مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الحقيقة

لمحة مختصرة عن تاريخ الهراء

TRUTH

A BRIEF HISTORY OF TOTAL BULLSHIT

توم فيليبس
TOM PHILLIPS

الحقيقة

لمحة مختصرة عن تاريخ الهراء

Truth

A BRIEF HISTORY OF TOTAL BULLSHIT

الحقيقة

لمحة مختصرة عن تاريخ الهراء

Truth

A BRIEF HISTORY OF TOTAL BULLSHIT

توم فيليبس

TOM PHILLIPS

ترجمة

إسماعيل كاظم

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

TRUTH

A Brief History of Total Bullshit

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Headline Publishing Group Limited

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2019 by Tom Phillips

The right of Tom Phillips to be identified as the Author of the Work has been asserted by him in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988

All rights reserved

Arabic Copyright © 2019 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2020 م – 1441 هـ

ردمك 978-614-02-3802-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

acebook.com/ASPArabic
witter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
isparabic

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف (+961-1) 785107

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف (+961-1) 786233

المحتويات

مقدمة	9
الفصل الأول: أصل المحتال	17
الفصل الثاني: أخبار قديمة كاذبة	37
الفصل الثالث: عصر التضليل	51
الفصل الرابع: كذبة بحجم بلد	89
الفصل الخامس: بيان الاحتيال	111
الفصل السادس: إنك تربكني	147
الفصل السابع: تصرفات عجيبة	169
الفصل الثامن: أوهام عادية منتشرة	185
الفصل التاسع: نحو مستقبل أكثر صدقاً	201
المصادر	215

«إن أكثر تجليّات التناقض في حضارتنا تتمثّل

بالإجلال الذي نكنّه للحقيقة، والإهمال الذي

نمارسه في كلّ ما يتعلّق بها».

فيلهلمور ستيفانسون،

مغامرات خاطئة، 1936

مقدمة

إنّك كذّابٌ منافق.

انتظر! لا تذهب. أعتذر منك فلا أظنّ أنّ هناك طريقة أسوأ لأبدأ بها كتاباً.

إنّني لا أنتقدك شخصيّاً هنا. هذا ينطبق عليك إن كنت تتصفّح هذا الكتاب في مكتبة ما وتتساءل إن كان عليك شراؤه، وأنا أقول لك إن عليك شراءه بالفعل. فأنت حكيم جداً، وذكيّ وجذّاب أيضاً. ولكن دعني أوضح الأمر، إنّك لا تمتلك شيئاً محدّداً يجعلك تبدو شخصاً لا يمكن الوثوق به بشكل غير اعتيادي أو ميّالاً إلى الأكاذيب بشكل خاص. (ذلك إن لم تكن نصّاباً محترفاً. ولكن إن كنت كذلك فأهلاً بك. أعتقد أنك ستستمتع بقراءة الفصل الرابع).

ولكن ما من شكّ في أنّك كاذب، أنت كاذب وتبالغ في كذبك، وأنت بالتأكيد مخطئ في ما يتعلّق بمئات الأشياء عن العالم الذي تعيش فيه، كبيرة كانت أم صغيرة. لكن لا يجب أن تشعر بالسّوء حيال الأمر، فالجميع من حولك يكذبون، وكي لا أكذب عليك أنا أيضاً أكذب.

ما أودّ قوله ببساطة هو أننا بوصفنا بشراً فإننا نقضي أيامنا ونحن نسبح في بحر من الهراء، وأنصاف الحقائق، والأكاذيب المطلقة. نكذب ويُكذب علينا. فحياتنا الاجتماعية تعتمد على تيار ثابت من الأكاذيب البيضاء الصغيرة. فالسياسيّون والإعلاميّون والمسوّقون وغيرهم كثر يضللون بشكل روتيني، وتكمن المعضلة في أنّ تضليلهم يُؤتي ثماره دائماً، إذ لا أحد منّا يستطيع مقاومة كذبة حُبكت بشكل متين، وربما تكون الأكاذيب التي نكذب بها على أنفسنا هي الأكثر رواجاً وانتشاراً، وهذه هي الحال منذ الأزل. الآن أينما تنظر حولك ستلاحظ كثرة ما ينبهنا إلى أننا نعيش في عصر «ما بعد الحقيقة». لقد اعتبر قاموس أوكسفورد عبارة «ما بعد الحقيقة» عبارة السنة لعام 2016، وفي عام 2017 نُشرت ثلاثة كتب على الأقل في المملكة المتحدة تضمّنت عناوينها عبارة «ما بعد الحقيقة». يبدو أنّ السياسيين يستمرّون بتشويه الحقائق، والمناورة، والكذب وذلك لأنّهم يحتمون خلف درع الحصانة. ويقال لنا بكلّ ثقة إنّ الشعب «اكتفى من كلام الخبراء». لقد حوّل الإنترنت حياتنا الاجتماعية إلى حملة مستعرة من التضليل، حتى بدأ الواحد منا يشك في أن عمه فريد ليس عمه فعلاً بل هو روبوت روسي.

ولكن كلمة حقّ يجب أن تقال، يسهل فهمُ سبب اعتقاد الأشخاص أنّنا نعيش في وقت مقاوم للوقائع بشكل مميز. وسأشرح ذلك من خلال مثال واضح وجليٍّ: يرأس الولايات المتحدة في هذه

الأيام رئيس لا يفوّت يوماً لا يكذب فيه، ولكن لنحسن النّية ونقول إن ما يتفوّه به ليس أكاذيب، ربما لأنه لا يعلم الحقيقة، ولا يهمه اكتشافها. ولكنّ التأثير يبقى ذاته تقريباً. وبحسب ما أشار إليه فريق التأكد من الحقائق في الواشنطن بوست، اتّضح أنّه حتى وقت كتابة المقال وخلال أول 773 يوماً من تولي ترامب منصب الرئيس أدلى بأكثر من تسعة آلاف ادعاء خاطئ أو مضلّل[1]، وهذا يمكن وصفه بسنتين من الخداع غير المسبوق على حدّ تعبير الواشنطن بوست[2].

إن معدل كذب ترامب اليومي هو عشر أكاذيب، ومع مرور الأيام يشهد هذا المعدل ارتفاعاً ملموساً، حتى إنه في السابع من أيلول عام 2018 تجاوز عدد أكاذيبه الخمسة آلاف، وبحسب الواشنطن بوست أيضاً أدلى في غضون ساعتين بأكثر من مئة وخمسة وعشرين ادعاء كاذباً أو مضللاً. وبذلك يمكننا القول إنّه تفوّه بأكثر من كذبة كلّ دقيقة. في الحقيقة لم يحظَ السابع من أيلول/سبتمبر بشرف أن يكون حامل الرقم القياسي لأكاذيب ترامب، بل حظي بالشرف يوم الخامس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر في ليلة الانتخابات النصفية، فقد أحصت البوست مئة وتسعة وثلاثين ادعاء خاطئاً خلال ثلاثة اجتماعات للحملة الانتخابية.

والحقّ يُقال إنّ هذا ليس أمراً طبيعياً. ولكن هل يعني أننا نعيش في عصر ما بعد الحقيقة؟ إنني هنا لأقول: لا.

ولكن لا تسيئوا فهمي، فأنا لا أسعى هنا لإقامة الدليل على أنّ العالم ليس مليئاً حتى التّخمة بالآلاف من شتّى أنواع الأكاذيب والهراء. لأنّني إن سعيت وراء ذلك فسأكون – معاذ الله – أحد أفراد جوقة الكذّابين. ولكن لا بدّ من توضيح حقيقة في ظلّ هذا السّيل من الأكاذيب، ومفادها بما أنّنا نعيش في حقبة ما بعد الحقيقة، فهناك حقيقة أكيدة مفادُها أنّه كانت هناك حقبة حقيقة، ولكنّنا في غفلة من الزمن تخطيناها.

للأسف إن الأدلة التي تشير إلى ذلك العصر... متباينة على أقل تقدير. وهذا التصور بأننا تركنا خلفنا مؤخراً حقبة ذهبية من الحقيقة النقية وإخلاصاً كبيراً للدقة والأدلة، هو بصراحة محض هراء.

بصفتنا بشراً، نحن نمضي أيامنا نسبح في بحر من الإفك، وأنصاف الحقائق، والأكاذيب المطلقة. نكذب ويُكذب علينا. تعتمد حياتنا الاجتماعية على تيار ثابت من الأكاذيب البيضاء الصغيرة، فالجميع يضللوننا بشكل روتيني بمن فيهم السياسيون، والإعلاميون، والمسوقون، وكثيرون غيرهم، وتكمن المشكلة الحقيقية في نجاح هذا الأمر؛ كلنا لا نستطيع مقاومة كذبة محبوكة بشكل جيد. لربما تكون الأكاذيب التي نخبر أنفسنا بها هي الأكثر انتشاراً.

وبالرغم مما قيل لك، فنحن على حالتنا هذه منذ زمن طويل جداً. هذا هو مضمون الكتاب: الحقيقة وجميع الطرق المبتكرة التي استطاعت من خلالها البشرية عبر التاريخ تفاديها. لأنه ليس هنالك شيء جديد. فليس دونالد ترامب أول سياسي يتصرف كمرشة الماء ويرش الأكاذيب في كلّ الاتجاهات. لم نحتج من قبل الدخول إلى فيسبوك لننشر إشاعات غير مؤكدة ومبالغ بها من شخص

إلى آخر. فمنذ أن كان هنالك مكسب مالي، وأناس سذّج ليؤخذ منهم، كان هنالك شخص ما مستعد ليبدع في ابتكار الأكاذيب كي يسلب الناس نقودهم.

بالطبع، لم تكن مسألة تعريف ماهية الحقيقة – أو كلّ ما هو ليس حقيقة– مهمة سهلة كما قد يظن بعضهم. حسناً، هنالك أسئلة أخرى كالسؤال عن مصدر الأكاذيب على سبيل المثال. هل الكذب خاصية بشرية، ومرتبطة بمجتمع البشر؟ وهل الكذب خاصية مقتصرة على البشر؟ هذه هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في الفصل الأول أصل المحتال إذ سنستكشف الفرق الطفيف بين «الأكاذيب» و«الهراء»، ونكتشف الحقيقة غير المتوقعة المتمثلة بوجود ألوان عدة للكذب تتجاوز الأبيض، ونفكر في الواقع المهيب الذي يقتضي وجود عدد كبير جداً من الطرق التي يمكن للإنسان أن يكون مخطئاً بها، وهو عدد يتجاوز الطرق التي يمكن أن يكون بها محقاً. فطيلة قرون، كان الإعلام واحداً من مصادرنا الأساسية للحصول على معلومات عن العالم. وكما يُقال إن الصحافة هي مذكرة العالم الأولى– ولكننا سنرى بأنها غالباً ما كانت مذكرة أولى مريعة جعلت المحررين يشدون شعور رؤوسهم. ابتداءً من خدعة القمر العظيمة سنة 1835 (حيث أشعلت صحيفة نيويورك صن شعوراً وطنياً عبر سلسلة من المقالات المفبركة حول اكتشاف الفلكي العظيم السيد جون هيرشل حضارةً متطورةً على سطح القمر) وصولاً إلى الهراء حيال حوض الاستحمام، ومذكرات هتلر، وقاتل القطط المتسلسل الذي طارد كرويدون، فكثير مما قرأناه حيال ما يحدث في العالم هو محض هراء. وهذا ما سنناقشه في الفصل الثاني **أخبار قديمة مزيفة.**

نحن لا نخطئ بشأن ما يحدث في العالم فحسب، بل نفشل أيضاً في الإجابة بشكل صحيح عن أسئلة تخص العالم بحد ذاته. في الفصل الثالث **الأراضي الكاذبة** سنحلق في رحلة عبر عصور متعددة من «الجغرافية المبتكرة». سنرى كيف تشكلت خرائطنا بالاستناد إلى حقيقة أنه لم يكن من السهل الذهاب والتأكد من الأكاذيب التي تُختلق بشأن الجانب البعيد من العالم سواء كانت عن سلاسل جبال لا وجود لها أم حكايات لا تُصدق عن أراضٍ خرافية أو مستكشفين لم تطأ أقدامهم الأماكن التي زعموا أنهم استكشفوها. وهذا ما استغله شخص ربما يكون أعظم نصاب في التاريخ؛ رجل خدع بلداً بأكمله عبر ابتكار بلد آخر بالكامل. إنه أحد المجرمين ذوي الأحلام الكبيرة الذين لم يرتكبوا جرائم جدية، الذين سنلتقي بهم في الفصل التالي بيان **الغش** مُستكشفين فيه انجذابنا الأزلي إلى المحتالين. فابتداءً من الحيلة البسيطة للغاية التي قام بها الرجل الواثق ويليام ثومبسون إلى المحتال السوفياتي الذي عامل البيروقراطية بذات الطريقة غير العادلة التي عاملت بها الناس، وصولاً إلى المرأة الفرنسية التي عاشت حياة من الرفاه لعقدين من الزمن بالاستناد إلى مزاعم امتلاكها ثروة في خزنة، تبين أنها فارغة، سنلقي نظرة على تاريخ أكثر الدجالين إدهاشاً ونجد أنفسنا أمام سؤال بديهي: إلى أي درجة كانوا محتالين، وهل صدقوا أنفسهم؟

إن كان هناك شيء واحد يُجمع عليه الناس بشأن السياسيين فهو أنهم كاذبون. يكذبون بشأن أعظم الأمور وأدقها، ويكذبون بشأن كلّ الأمور التي تقع ما بين أعظم الأمور وأدقها. في الحقيقة، (اسمعوا الكلمات التالية بصوت هامس) إن لم يكن هذا منصفاً بعض الشيء للسياسيين فهم يستحقون

كتابة فصل كامل عنهم. ففي فصل أنت تربكني سنبحث في فن الخداع السياسي الدنيء: ابتداءً ببروباغندا الحرب وصولاً إلى السياسيين الذين لا يمكنهم التوقف عن التفوه بالأكاذيب حيال إنجازاتهم الخاصة.

حيثما يوجد مصدر لكسب المال يوجد هنالك شخص مستعد ليلوي الحقيقة، ويكسب ذلك المال. في فصل سلوك مشبوه سنلقي نظرة على اثنين من كبار مجرمي عالم الأعمال والطب. اعتمد عالم الأعمال على الخداع سواء بشكل كبير أم صغير عبر التاريخ: من إيا نصير تاجر النحاس القديم الذي سكن بلاد ما بين النهرين وأخذ أموال الناس لكنّه لم يعطهم النحاس الذي وعدهم به (مما حثّ على كتابة أول رسالة شكوى مسجلة في التاريخ) وحتى وايتاكير رايت الذي كوّن ثروته في القرن التاسع عشر عبر سلسلة من الاحتيالات. وسنلتقي أيضاً بتشكيلة من بائعي زيت الأفاعي عبر التاريخ: ابتداءً من «طبيب غدة المعزاة» الغني عن التعريف – وهو رائد إعلام جديد كان لديه طموح سياسي وأصبح ثرياً بسبب زرع خصي الماعز جراحياً لرجال عاجزين جنسياً.

وبعد كلّ ذلك سنكون قد قابلنا كثيراً من أكثر الكذابين إثارة للاهتمام عبر التاريخ، ولكن لو كنا نعتقد أن الكذابين هم مشكلتنا الوحيدة فستنتظرنا مفاجأة غير سارة. يبدو أنه عندما يجتمع البشر معاً يصبحون جيدين جداً في اختلاق الأساطير والخرافات من الفراغ. في فصل **أوهام عادية منتشرة** سنرى كيف قادنا الجنون والذعر الأخلاقي والهيستيريا الجماعية إلى تصديق بعض الأشياء غير المعقولة، ابتداءً من صحون الفضاء الخيالية التي زارت بريطانيا إلى صيد الوحوش بين أشجار الصنوبر الأميركية وصولاً إلى صيد الساحرات بشكل فعلي. عندما يتعلق الأمر بعيش حياة حقيقية، يبدو أننا أنفسنا نشكل عدونا اللدود.

في الفصل الأخير **نحو مستقبل أكثر صدقاً** سنسأل: ما الذي يمكننا القيام به حيال كلّ هذا؟ إن كانت الأكاذيب والترهات موجودة عبر التاريخ فما تأثير ذلك على مجال المعلومات؛ مثل العلوم والتاريخ وكل الطرق الأخرى التي نحاول من خلالها وضع حقائق تتعلق بعالمنا؟ هل حُكم علينا أن نعيش حياتنا في ضباب من التضليل أم أنّ هنالك خطواتٍ يمكننا اتخاذها لكي تسير الأمور في طريق أصدق بقليل؟

الفصل الأول

أصل المحتال

يتحدث هذا الكتاب عن الحقيقة، أو لأكون أكثر دقة، إنه يتحدث عن أشياء ليست حقيقية. للأسف ذلك يعني أنه قبل أن نبدأ بالمعلومات الأساسية في هذا الكتاب يجب علينا التفكير لبعض الوقت في ما تعنيه كلمة «حقيقة» – وبشكل أهم – في ما لا تعنيه. ولكن المشكلة تكمن في أن هذه المهمة تصبح يوماً بعد يوم أكثر صعوبة وتعقيداً، نظراً لأن الطرق التي يمكن للمرء أن يكون وفقها مخطئاً متنوعة وكثيرة، وعصيّة على الإحصاء. قد تفاجئ هذه الحقيقة بعضَ الأشخاص، فكثيرون منا يعتقدون ببساطة أن هناك حقائق وأكاذيب، وأنه يسهل التمييز بينهما. ولكن للأسف ليس الأمر بهذه السهولة، وهذا ما اكتشفه البشر من القِدم، فعبر التاريخ توصل أولئك الذين فكّروا في طبيعة الحقيقة وأضدادها إلى مبدأ واحد أساسي: فمقابل محدودية الطرق التي يمكن للإنسان أن يكون وفقها محقاً، هناك عدد لا متناهٍ من الطرق التي يمكن أن يكون وفقها مخطئاً.

لقد قال الشاعر والدرامي الإلزابيثي توماس ديكر عام 1606: «دائماً ما كان للحقيقة أب واحد، بخلاف الأكاذيب التي هي أولاد زنا لألف رجل والتي تولد في كل مكان»[3]. وقد عبّر الفيلسوف ميشيل دي مونتين عن الفكرة ذاتها في مقاله عن الكذابين «لو أن للخطأ وجه واحد كما للحقيقة... لكنا أفضل حالاً، ولكن ما هو غير حقيقي يتقنع بمئات أو آلاف الأقنعة ويتقولب في أشكال مختلفة تبدو أنها لا متناهية».

يعدّ هذا الكتاب محاولة لفهرسة بعض من مئات آلاف هذه الأشكال. إن العصر الذي نعيش فيه يبتعد كلّ البعد عن كونه الفترة التاريخية الأولى التي أصبحت مهووسة بالحقيقة ونقصها، في الحقيقة، لقد مرت قرون عدة في أوروبا، عُرفت بعصور النفاق بسبب انتشار الكذب على نطاق واسع؛ كانت القارة تتمزق إرباً بسبب اضطرابات دينية منذ القرن السادس عشر وما بعد، ووجب على الجميع التقنع بأقنعة الخداع كي ينجوا بحياتهم ليس إلا. لقد ارتبط اسم ميكيافيلي إلى حدّ كبير بفنّ الخداع السياسي وهو القائل في كتابه الصادر سنة 1521: «لقد مضى وقت طويل منذ أن قلت ما أصدق، إضافة إلى أنني لا أصدق ما أقول، وإن صادف وقلت الحقيقة فإنني أخفيها في ثنايا عدد كبير من الأكاذيب حتى يصعب اكتشافها»[4]. لنكن صريحين، لقد مررنا جميعاً بأيام كهذه في أثناء عملنا.

لطالما أثارت الأخطاء اهتمام الأشخاص عبر التاريخ، إلى حدّ أنهم ابتكروا طرقاً كثيرة ومختلفة لتعريف الكذابين. اقترح كتاب الفيدا المقدس لدى الهنود القدامى طريقة مبنية على لغة الجسد فذكر أن الكذاب «لا يجيب عن الأسئلة أو يعطي أجوبة متملصة، فهو يتكلم هراءً، ويحرك إصبع قدمه الكبيرة على الأرض ويرتعش، وجهه شاحب، ويمرر أصابعه على جذور شعره، ويحاول بشتى الطرق مغادرة المكان...»، وهناك أيضاً طريقة أخرى في الهند تعتمد على الثقل: «يوضع الشخص المتهم بالكذب على ميزان، وتوضع قبالته موازين تعادل وزنه، وبعدها يُنزل المتهم ويتفحص القاضي الموازين لفترة ما، وبعدها يوزن المتهم من جديد، فإن كان أخف وزناً فلا يُعد مذنباً. (هذه تقنية تدعم ذلك الرأي الذي يتحدث عن منافع التبول في أثناء المحاكمة).

بالطبع تفضل الثقافات الأخرى طرقاً أكثر بساطة ومباشرة لكشف الكذابين كنبات النيفوفيا أو الماء المغلي. ولكن ما من دليل يثبت أنها أكثر فاعلية. لوقت طويل حاول الناس وبذلوا جهوداً جبارة لتصنيف الأنواع المختلفة للأخطاء. كان القديس أوغسطينوس (345–430) أول من وضع تعريفاً لثمانية أنواع من الكذب ورتبها ترتيباً تنازلياً بحسب سوئها: الكذب في التعاليم الدينية، الكذب الذي يضر بالغير ولا يفيد صاحبه (الكذب لمجرد الكذب)، الكذب الذي يُضر بالآخرين ويساعد صاحبه، الكذب لمجرد الاستمتاع، الكذب الذي يكون في سياق الكلام ويهدف لجذب انتباه السامع، الكذب الذي لا يضر أحداً ويساعد صاحبه مادياً، الكذب الذي لا يضر أحداً ويساعد صاحبه معنوياً، والكذب الذي لا يضر أحداً ولكنه يحمي من انفصام عرى العلاقات.

ما من شك في أننا هذه الأيام لدينا تعريف مختلف للكذب، ولكن حتى في الأيام الغابرة، كانت هناك فروقات طفيفة في الكذب لا نستطيع تميزها. فكلنا نعلم بشأن الأكاذيب البيضاء، ولكنّ هناك ألواناً أخرى للأكاذيب فالكذب الأصفر يُستعمل عندما يشعر شخص ما بالإحراج أو الخجل أو الجبن وذلك بهدف إخفاء شيء ما، أما الكذب الأزرق فيستخدمه المتواضع من أجل التخفيف من وهج إنجازاته، ولكن يبقى الكذب الأحمر الأكثر إثارة فهو الذي لا يسعى الكاذب من ورائه إلى أن يخدع، ففي الكذب الأحمر يكون الكاذب والمكذوب عليه يعلمان بأمر الكذب ومنه، فإن الهدف من هذا الكذب يكون الإشارة إلى شيء لا يمكن قوله ويكون من قبيل «تباً لك» أو شيئاً أقل حدية مثل «دعونا ندعي بأن ذلك لم يحدث للتو». ولطالما سمعنا المقولة الشهيرة التي تتحدث عن السرعة التي تنتشر فيها الأكاذيب، فالكذبة تستطيع القيام بجولة حول الأرض في الوقت الذي تكون فيه الحقيقة تنتعل حذاءها. (إن أردنا أن نعرف إلى من تعود هذه المقولة فالمسألة معقدة، فبعضهم ينسبها إلى مارك توين أو ويليام تشرتشل أو توماس جيفرسون أو شخص غيرهم تُنسب إليه الاقتباسات، ويمكنك أيضاً أن تتوقع الاحتمالات الآنفة الذكر كاذبة، لأن أول من أطلق هذه المقولة هو جوناثان سويفت الذي كتب سنة 1710 «الأكاذيب تطير والحقيقة تعرج لتلحق بها»).

بغض النظر عمّن تُنسب إليه هذه المقولة، من المؤكد أن الهراء يتحرك بسرعة مدهشة ومخيفة، وستعلمون ذلك إن غصتم في بحر شائعات الإنترنت. في الحقيقة، أنا أعرف كم ستواجهون من صعوبة في هذا الأمر، فهذا عملي الذي أقوم به يومياً.

لكن في الحقيقة، سبب تمتع الكذب بميزة على الحقيقة لا يتعلق كثيراً بسرعة الحقيقة والخيال النسبية أو حتى بالاختيار غير العملي لنوع الحذاء الذي ترتديه الحقيقة، بل يتعلق بتنوع

الأكاذيب وكثرتها. فمقابل كلّ كذبة تجول أرجاء العالم هنالك آلاف الأكاذيب الأخرى التي لا تتجاوز عتبة الباب.

ولكنّ العدد الهائل من الأكاذيب المحتملة غير المقيدة، وبسبب الحاجة إلى موازاتها للواقع، يوفر حقل تجارب داروينيّ كبير للعثور على أكثر الأكاذيب جاذبية وطولَ أمد – تلك الأكاذيب الأشبه بالزومبي التي لا تنفك تعود مراراً وتكراراً. فهي تشبه ذلك النوع من السمك الذي يضع مليوني بيضة ولا تفقس منها إلا سمكتان. أما الحقيقة فهي على عكس الأكاذيب مملة نوعاً ما. إنها تجلس في مكانها كنقطة رمادية صغيرة ذات حجم لا يُذكر، وهي مألوفة وغامضة ومملة بعض الشيء ومحبِطة كثيراً، ويمكن لأي شخص يكون عمله مرتبطاً بالحقيقة أن يشرح لنا عن عادتها السيئة في الانزلاق من قبضته في اللحظة التي يظن فيها نفسه قد أمسك بها.

لكن، لا بد من الإشارة إلى وجود حقائق لا جدال فيها: فالنار أسخن من الثلج: وسرعة الضوء ثابتة في الخلاء: وأفضل أغنية سُجلت في التاريخ هي «دانسينغ أون ماي أون» لروبين. ولكن بعد أن تتجاوز قوانين الطبيعة الثابتة، يصبح كلّ شيء مظلماً بسرعة كبيرة. فستجد نفسك كثيراً ما تقول أشياء كـ «يشير أفضل دليل موجود إلى...» و«أجل، لكن ماذا عن الصورة الأكبر؟». سيفهم أي شخص قضى وقتاً في البحث عن الدقة والأدلة كيف يميل كلّ جزء من المعرفة إلى طرح عشرة أسئلة جديدة: ففي كلّ مرة تعتقد فيها أنك اقتربت من التنوير، ترتد الحقيقة أبعد نحو الأفق، وتجد نفسك غارقاً في بحر من التحذيرات. ومن هذا المنظور تغدو الحقيقة رحلة طويلة مزعجة نحو هدف لن تستطيع الوصول إليه عوضاً عن كونها شيئاً محدداً.

إن أكاذيب عالمنا جذّابة وقادرة على التأقلم، ولأكون صريحاً، يمكن أن تكون مسلية للغاية.

سيلقي هذا الكتاب نظرة على قدر كبير ومتنوع من الأكاذيب، ذلك لأن الأكاذيب في الحقيقة هي وجه واحد من مئات آلاف الأوجه التي تتخذها أضداد الحقيقة.

فهناك فن المناورة في مجال السياسة: إن ما يجعل من المناورة فنّاً ماكراً هو أن المناور لا يحتاج إلى الكذب كي لا يكون صادقاً. صحيح أن معظم السياسيين كاذبون، إلا أن جوهر المناورة يتمثل في الإشارة إلى أمر غير صحيح من خلال التفوه بأقوال صحيحة، وخير تشبيه لذلك ما قاله أحدهم عن كونه بناء بيت من الهراء باستخدام مداميك من الصدق.. إضافة إلى ذلك هناك الوهم: قدرة الأشخاص المتناسقة على أن يكونوا مخطئين، ولكنهم يقنعون أنفسهم في الوقت ذاته بأنهم على حق، سواء كنا نبالغ في تقدير مؤهلاتنا الخاصة أم نستسلم للهيستيريا الجماعية ونظام الرعاع.

في النهاية، لعل أكثر الأنواع انتشاراً وأذية هو الهراء. يمكننا أن نشكر الفيلسوف هاري جي فرانكفورت لأنه أتاح لنا أن نفهم معنى الهراء، فكان أول من كرّس وقته لتحليل هذا الموضوع المعقد في عمله المبتكر عن الهراء (أجل يبدو أن هاري فرانكفورت يستمتع جداً بكونه فيلسوفاً).

لقد رأى فرانكفورت أن الكذب والهراء ليسا شيئاً واحداً، بخلاف ما نعتقد. فقد كتب «من المستحيل أن يكذب أحدهم إلا إن كان يعتقد بأنه يعرف الحقيقة، أما من يتفوه بالهراء فلا يُفترض أن تكون لديه القناعة نفسها».

بكلمات أخرى؛ يهتم الكاذب بالحقيقة بشكل كبير كما يهتم بحّار بجبال الجليد. فكل واحد منهما عليه أن يعرف مكان الحقيقة، كي يتخذ إجراءات دقيقة ومتعمدة لتجنبها. لكن الأمر مختلف بالنسبة إلى من يتفوه بالهراء إذ ليست للحقيقة أية علاقة بالأمر: فالهراء أمر لا يمكن تغييره. عند التفوه بالهراء يمكن أن يقترن ببعض الدقة مصادفة بوصفها إضافة اختيارية؛ إن تداخَلَ عالم الهراء الذي تصنعه مع العالم الحقيقي فسيسبب ضرراً طفيفاً، وقد يجلب منفعة غير متوقعة. أما بالنسبة إلى كاذب مستهتر ضمّن كذبته حقيقة غير ملائمة فربما تكون النتيجة كارثية.

يعمل الهراء على مستوى الأحلام فهو يحرث بسعادة أرض التناقضات، لأنه يبدو منطقياً حينها، وبحسب ما توصل إليه فرانكفورت: «عدم الاهتمام بحقيقة الأشياء، هو أساس الهراء».

نتيجة لذلك، يؤثر كلّ من الكاذب ومَن يتفوه بالترهات على العالم بشكل مختلف: فالكذب أشبه بالمشرط، في حين أن الهراء أشبه بالجرار. إن ألقينا نظرة على العالم في هذه الأيام، وتساءلنا كيف يتهرب هؤلاء الكاذبون من أكاذيبهم بصفاقة؟ وكيف لا يشير الأشخاص إلى كون أقوالهم أكاذيب؟ فالجواب هو لأننا نتهمهم اتهامات خاطئة. فالمشكلة الأساسية ليست مع الكذب – وهو مهنة تحليلية ترتكز على التفاصيل– بل مع الهراء.

بعد كلّ ما تحدثنا عنه سابقاً لا بد من الإشارة إلى أن الخطأ وارد.

كما سبق لي وذكرت، أنا أعمل يومياً في مؤسسة للتأكد من الحقائق، وبشكل عادي أكون على احتكاك مع مجموعة كبيرة من الطرق التي يمكن أن يكون وفقها الأشخاص مخطئين. الأمر الذي حملنا في العام الماضي إلى ابتكار تجربة فكرية فريدة، في محاولة لجعل العاملين في مؤسستنا يفكرون في كلّ أنواع الأخطاء المختلفة التي قد نجدها.

تكمن فكرة التجربة بالتخلص من كلّ الأمور المربكة والمشوشة التي تحيط بأغلب الأشياء في العالم، وتبسيط الأمر حتى الوصول إلى ادعاء واقعي واحد بسيط ينبع من مصدر واحد، حيث لا يمكنك الاعتماد على أي دليل آخر لدعمه أو إنكاره. نطلق عليها اسم «لعبة الساعة» وها هي ذي:

بياغتك فجأة صوت رنين هاتف فتستيقظ وتفتح عينيك. تجد نفسك في غرفة غير مألوفة يضيئها بشكل خافت ضوء ينساب من باب تظنه باب الحمام. تدرك أنك داخل غرفة فندق ما استناداً إلى أدلة التصميم العالمية التي تخبرك بأنك تقبع ضمن مكان «يشبه المنزل ولكنّه ليس المنزل». لستَ متأكداً من مكانك أو كيفية وصولك إلى هنا، ولكنّ الضبابية التي يُشعرك بها دماغك تخبرك بأنك متعب كثيراً من السفر.

ليست لديك أدنى فكرة كم مضى عليك من الوقت وأنت نائم.

تبحث في الغرفة عن دليل ما. لا توجد ساعة في مرأى العين، والستائر التي تغطي النوافذ تحجب الشمس فلا تعرف إن كان الوقت صباحاً أم مساءً. لا يزال الهاتف القابع بجانب السرير يزعجك برنينه. ترد على الهاتف بارتباك. يقول صوت مرح بشكل مزعج بعض الشيء «مرحباً. ها قد وصلت!». لا يمكنك تحديد لكنة الصوت الذي يكلمك.

ترد مندهشاً: «من يتكلم؟».

يجيبك الصوت: «أنا باري! يسرني التواصل معك أخيراً!».

تشك في أنك تعرف شخصاً يدعى باري، ولكنك تقرر المضي قُدماً في الحديث.

تبدأ بالكلام وتقول «إنني..» ولكنّك سرعان ما تكتشف أنك لا تعلم كيف سُتنهي هذه الجملة.

«آه... كم الساعة الآن؟» تقرر أن تسأل ذلك بهدوء.

يقول الشخص الذي يزعم أنه باري «انتظر لحظة. دعني ألقِ نظرة على الساعة». تسمع صوت الهاتف وهو يوضع جانباً ثم صوت تلاشي الخطوات، يمر بعض الوقت الذي قد يكون بضع ثوان أو بضع دقائق، ولكنك لست متأكداً.

تعود الخطوات.

«إنها الخامسة يا صاح». قال باري الذي كشف شيئاً عن نفسه.

تقول له: «... حسناً».

يكمن هدف هذه التجربة في سؤال: **هل يمكنك تحديد جميع الطرق المختلفة التي يمكن أن يكون وفقها إدراكك للوقت خاطئاً في تلك اللحظة؟** تنبيه لأنني سأجيب عن السؤال: قد تكون هنالك طرق أكثر مما تعتقد. حتى يومنا هذا استطعنا إيجاد أكثر من عشرين طريقة، ومن المؤكد أنه غابت عن أذهاننا بضع طرق.

حسناً، خذ وقتك لترى كم طريقة يمكن أن تبتكر. تخيّل سماع موسيقى مهدئة الآن.

[يتم تشغيل أغنية «تيك فايف» لدايف بروبيك وأنتم تفكرون بعمق عن الساعة، وقد تتبادر إلى أذهانكم أيضاً احتمالية أن يكون الكاتب مجنوناً]

حسناً، هل انتهيت من ذلك؟ جيد، دعنا نشر إلى الطرق الواضحة في البداية. قد تكون ساعة باري مخطئة، قد تعمل بشكل سريع أو بطيء، أو قد تكون قد توقفت تماماً، أو قد تعمل بالسرعة المناسبة تماماً، ولكنّها عُيّرت بطريقة خاطئة. وقد تكون ساعة تصعب قراءتها كتلك الساعات التي يكون تصميمها أنيقاً بشكل مبالغ به ومصنوعة من الخشب والكرات الزجاجية على نحو تبدو فيه جميلة جداً وهي معلقة على جدارك ولكنها ليست مفيدة جداً لمعرفة الوقت. وحتى قد لا تكون ساعة، لعلها رسمة لساعة فقط، وقد لا يملك باري حتى ساعة، وطلب إلى أحدهم كتابة الوقت على قطعة من الورق في وقت سابق من ذلك اليوم. وقد تكون أنت وباري في منطقتين زمنيتين مختلفتين فيكون محقاً تماماً ولكن قد لا يكون ذلك صحيحاً بالنسبة إليك. لربما قرّب الوقت إلى أقرب ساعة للسهولة، ولكنّ ذلك ليس مفيداً بالنسبة إليك لأنك تريد معرفة إن كانت الساعة أقرب إلى الرابعة والنصف. وقد تكون الساعة الخامسة عندما ألقى نظرة عليها، ولكنها لم تعد كذلك عندما عاد

إلى الهاتف، وربما يتعمد باري الكذب عليك، لأي سبب من الأسباب الشريرة التي يكذب بسببها الأشخاص الذين اسمهم باري. وربما هو صادق، ولكنه يتفوّه بالترهات لأنه لا يستطيع قراءة الساعة ولا يريد الاعتراف بذلك. وقد يعتقد أنه يستطيع قراءة الوقت، ولكنه لا يفهم كيفية عمل الساعة. وربما قصد أن يقول «الساعة التاسعة» ولكنه أخطأ القول. ربما قال «الساعة التاسعة»، ولكنك أخطأت السمع. وقد تكون أنت من لا يفهم كيفية عمل الساعة، واعتقدت أن الوقت هو منتصف الليل. وقد تكون اعتقدت بأنه لن يحسب الوقت الذي مضى في أثناء عودته إلى الهاتف، ولذا اعتبرت بأن الوقت هو الخامسة وخمس دقائق، ولكنه في الحقيقة احتسبه، وبذلك قد تكون صححت شيئاً صُحّح في الأصل.

ربما في حالتك المذعورة تلك، افترضت أن باري يكذب عليك، لذلك فالشيء الوحيد الذي أنت واثق منه هو أنها ليست الخامسة، ولكنك مخطئ لأن باري شخص جيد، وصديقك، ولن يكذب عليك أبداً. فالساعة الخامسة بالفعل، وقلة ثقتك هي التي جعلتك تضل الطريق.

قد لا تستخدم أنت وباري النظام ذاته، قد يكون مهندساً يعمل لدى ناسا على مشروع كوكب المريخ وقد عيّر ساعته اعتماداً على اليوم المريخي الذي يزيد على يوم الأرض بنحو 37 دقيقة.

قد لا تكون عبارة «إنها الساعة الخامسة يا صاح» محاولة لإخبارك بالوقت بل كلمة مرمزة تتبع للوكالة السرية التي تعملان فيها، وقد نسيتها تماماً بسبب فقدان الذاكرة ما بعد الصدمة الذي تعاني منه.

لعل الوقت، ذاك النهر الغامض الذي يجب أن يحملنا جميعاً على أكتافه يوماً ما، لا يمكن قياسه بشكل حقيقي من قبل البشر، وكل جهودنا لفعل ذلك ليست سوى مقاربات أولية.

وربما قصد أنها الساعة الخامسة صباحاً، وافترضت أنها الخامسة مساءً.

قد يبدو كلّ ذلك هراءً بالنسبة إليك، لكنه في الحقيقة يصور جميع الطرق التي يمكن أن تكون مخطئاً بها حيال الوقت. إنها أمثلة حقيقية من الواقع تمثل كيفية انتشار المعلومات السيئة في العالم، كتلك المعلومات السخيفة مثل عمل باري استناداً إلى الوقت المريخي أو محاولته إبلاغك رسالة سرية مرمزة.

بعض هذه الأمثلة تبدو واضحة جداً (الكذب هو الكذب والهراء هو التفوه بالترهات). التقريب بشكل كبير يبعد عن الأصل وعدم التعديل حسب الأخطاء (كالوقت ما بين الساعة والعودة إلى الهاتف) أو عدم إدراك أن مصدرك لا يمكن الاعتماد عليه بكل بساطة (ككون الساعة بطيئة للغاية) وكلاهما شائع خاصة عند التعامل مع الوقائع التي تعتمد على البيانات.

إن محاولة معرفة الوقت من ساعة متوقفة أو قطعة من الورق توازي عادة الإنسان في كونه متأكداً بشكل كبير من الأشياء حينما يكون من الواضح أننا لا نملك أية معلومات مفيدة يمكننا بناء الرأي وفقها. أما ساعة باري المريخية فهي في الحقيقة مثال شائع بشكل مفاجئ لعدم إدراك الأشخاص أنهم يستخدمون تعاريف مختلفة بشكل كبير لذات المبدأ الأساسي (تذكروا كيف

«اكتشف» كريستوفر كولومبس أميركا لأنه أخطأ على نحو فاضح في احتساب بعد آسيا وذلك لأنه احتسب محيط الأرض اعتماداً على مصدر افترض أنه مكتوب بالأميال الرومانية، ولكنه في الحقيقة استخدم الأميال العربية وهما مقياسان مختلفان تماماً).

لعله أمر غريب أنني عندما كنت أُجري أبحاثي بخصوص هذا الكتاب، اكتشفت أننا لم نكن أول من ابتكر هذا النوع من التجارب الفكرية. ففي عام 1936 تحولت حياة فيلهلمور ستيفانسون المهنية من مهنته المتقلبة بكونه مستكشفاً شجاعاً في القطب الشمالي بعدما ألّف كتاباً يتحدث عن مغامرات خاطئة، الذي اقتبست منه الجملة الاستهلالية لهذا الكتاب. في ذلك الكتاب يستخدم ستيفانسون مثالاً مشابهاً جداً للعبة الساعة، ولكنه يستعيض عن الساعة ببقرة.

«لنستعرض مثالاً: يأتي رجل ما من الخارج ويحمل تقريراً ذكر فيه أن هناك بقرة حمراء في الفناء الأمامي... نواجه أمامنا مصادر متعددة للخطأ. قد يكون الرجل أخطأ في تحديد جنس الحيوان، لعله كان ثوراً. وإن لم يخطئ في تخمين جنس الحيوان فقد يكون أخطأ في الحكم على عمر الحيوان إذ قد يكون عجلاً صغيراً. لربما كان هذا الشخص مصاباً بعمى الألوان، ولعل البقرة لم تكن حمراء (بعيداً بشكل كامل عن الجانب الفلسفي). وحتى لو كانت بقرة حمراء، قد تكون في الوقت الذي أخبرنا بوجودها في الفناء الأمامي، قد اختفت داخل غيمة من الغبار في نهاية الطريق»[5].

أتمنى أن يكون كلّ هذا الهراء حول البقر والساعات قد أقنعك بأنه إن كنا أحياناً نغرق في بحر من الأكاذيب فهنالك سبب يبرر ذلك: فللأكاذيب ميزة طبيعية على الحقيقة، لأن عددها يتجاوز عدد الحقائق بكثير، ولكنها ليست الميزة الوحيدة التي تمتلكها، فهنالك العديد من الأشياء في أدمغتنا ومجتمعاتنا تسمح للأكاذيب بأن تزدهر.

لقرون خلَت اعتقدنا أن الكذب أمر ذميم وخطيئتنا الأصلية، ولكن يبدو أن البشر ليسوا المخلوقات الوحيدة التي تكذب. فالأدلة التي تشير إلى أن أبناء رتبة الرئيسيات يخدع بعضها بعضاً أحياناً آخذة بالتزايد، في حين ترتكز حياة العديد من الحيوانات والنباتات على الخداع والمكر – ففكر في طير الوقواق الذي يجلس بتطفل في عش طير آخر. يعد الخداع أمراً ضمنياً في أمور كثيرة في الطبيعة، لذلك ربما يجب ألا نقسو على أنفسنا عندما نكذب بين الفينة والأخرى.

لا يقتصر الأمر ببساطة على أن الخداع أمر طبيعي، بل هو يتطور. أوضحت دراسة علمية[6] أن هناك ترابطاً قوياً لدى كلّ الحيوانات التي تنتمي إلى رتبة الرئيسيات بين حجم القشرة الحديثة (الجزء من دماغ الثدييات الذي يتعامل مع مهمات معقدة كاللغة) وتكرار الخداع لديها. بكلمات أخرى: كلما كان الدماغ أكبر استطاع صاحبه أن يكذب أكثر. ربما تكون التحديات التي يفرضها العيش في مجموعات اجتماعية معقدة – ما يتضمن الحاجة إلى خداع أقرانك أحياناً – هي ما زاد حجم أدمغتنا وتعقيدها.

يتضاعف الرابط ما بين القدرات الإدراكية والخداع في أثناء نمونا. يبدأ الطفل بالكذب للمرة الأولى عندما يكون في عمر السنتين ونصف وهذا يعني أن الأطفال يكذبون بعد فترة قصيرة من بدئهم بالتكلم. في البداية، تكون الأكاذيب الأولية بسيطة، أكاذيب تقال لتحقيق بعض أمنياتهم «أود ألا أكون الشخص الذي أكل البسكويت»[7]. ولكن مع تطور قدرات الأطفال العقلية، ومع امتلاكهم نظرية العقل وبدئهم في فهم الطبيعة المعقدة لتفاعلهم مع الآخرين، تسير قدراتهم في الكذب بالتوازي مع تلك التطورات.

إلى أي مدى زرعت الأكاذيب في حياتنا اليومية؟ ربما يكون مداها أكثر مما قد تتوقع. تشير الدراسات النفسية إلى أنه عند مقابلة شخص جديد، ستخبره كمعدل وسطي بثلاث أكاذيب في غضون أول عشر دقائق من محادثتكما، وتشير دراسات أخرى إلى أن الشخص يكذب مرة واحدة في اليوم كمعدل وسطي، ولكنّ هذه الدراسات بُنيت على سؤال طرحه الباحثون عن عدد المرات التي يكذب فيها الأشخاص، وهذا يعني أن هذه الدراسات قد تكون عرضة لكذب هؤلاء الأشخاص حيال الأمر.

ليست تلك المشكلة الوحيدة عند سؤال الأشخاص عن عدد المرات التي يكذبون فيها. ففي أثناء كتابة هذا الكتاب، كان أحد مخططاتي الأصلية هو الاحتفاظ بـ «مذكرة للكذب»، لكي أدوّن فيها على مدى أسابيع كلّ مرة أكذب فيها. كانت محاولة لفهم مدى اختراق الأكاذيب لحياتنا، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين يعتقدون أنهم أناس صادقون أساساً. شعرت بحماس كبير حيال ذلك مع أنني شعرت أيضاً بالقلق: ففكرت في عدد الصداقات التي ستتدمر إلى الأبد لدى نشر هذا الكتاب.

في النهاية، ما كان عليّ أن أقلق. ليس لأنني كنت منارة للطهارة والحقيقة (حسناً إنني بالفعل كذلك) ولكن لأن كلّ محاولة لتسجيل أكاذيبي توقفت بشكل نهائي بعد يوم تقريباً، وذلك ببساطة لأنني لم أستطع الانتباه إلى نفسي عندما أتفوه بالترهات.

كان الأمر على النحو الآتي:

إنني متأكد من حقيقة أنني تفوهت بالأكاذيب في أثناء ذلك الوقت. ولم يكن أياً من تلك الأكاذيب قبيحاً للغاية. ففي الوقت الذي كنت فيه أكتب لم أكن أرتكب الفظائع. أياً يكن الأمر يمكنني أن أقسّم أكاذيبي على ثلاث مجموعات: أكاذيب عما فعلت، وأكاذيب عما أستطيع أن أفعل في المستقبل القريب، وأكاذيب عن حياتي الاجتماعية.

انضوت تحت لواء المجموعة الأولى الرسائل النصية، ورسائل البريد الإلكتروني التي أرسلتها إلى ناشري ووكيلي مؤكداً فيها أن عملية إنتاج الكتاب تسير على قدم وساق وأنني قد كتبت الكثير. (آسف). أما المجموعة الثانية فقد انضوت تحت خانتها بشكل أساسي تصريحاتي لزملائي، إذ أكدت بكل ثقة أنني سأقوم بما وعدتهم به في الغد، وسأعطيهم شيئاً جديداً غداً. (آسف مرة أخرى). أما المجموعة الثالثة فكانت الأوسع والأشمل وضمت الأكاذيب البيضاء التي تحمي المجتمع من التفتت ليصبح دوامة فتاكة من الاتهام العكسي المشترك: أعذار مفبركة لعدم قدرتي على حضور حفلة ما– ادعاءات تبدو بشكل واضح أنها كاذبة بشأن أنني قرأت للتو رسالة ما–

تأكيدات واهية لشخص ما أنه العقلاني من دون أدنى شك في هذا الخلاف، وأن الشخص الآخر يبدو غير محق ووغداً بكل ما للكلمة من معنى.

(قد تكون تلك الفئة أوسع بكثير لولا حقيقة أنني كنت أحاول تأليف كتاب حينها، ولذلك قضيت أشهراً في رفض دعواتِ الذهاب إلى المقاهي وذلك لأسباب فعلية وبشكل أساسي لأنه كان عليّ التركيز على التحديق بفراغ بالشاشة دون كتابة أي شيء. نصيحة محترفة للانطوائيين: وجود وقت محدد للانتهاء من كتاب ما يعد عذراً ممتازاً وصادقاً للتملّص من الارتباطات الاجتماعية!).

إنها مجموعة من الأكاذيب المتنوعة، وكنت أعرف أنها أكاذيب عندما تفوهت بها (باستثناء بعض الوعود التي قطعتها كي أنجز شيئاً مما يمكن أن أعزوه إلى الوهم البسيط في أن باستطاعتي العمل طيلة الساعات الست والثلاثين التي ظننت أنها موجودة في اليوم الواحد) ولكن حدث شيء في دماغي في أثناء فعل الكذب؛ كان يتوقف عن التفكير، وأحاول ألا أتذكر أن ما كنت أقوله هو محض هراء. لم يكن باستطاعتي ملاحظة شيء كذلك إلا عندما أوكل لنفسي مهمة تدوين جميع الأكاذيب البيضاء التي تفوهت بها إذ لم يكن بإمكاني تمييزها وتحديد أنها أكاذيب في ذات اللحظة. كأن دماغي يمتلك آلية للدفاع عن نفسه على نحو لا يشي فيه بما فعل.

لا أعلم إن كان دماغ أحد ما يعمل بالطريقة نفسها أم أنني اكتشفت بمحض المصادفة أنني مريضة نفسياً، ولكنني أرجح أن ذلك يحصل لكل البشر.

سيستمر البشر بالكذب والتفوه بالترهات: ذلك سهل الاكتشاف. ما من شيء مثير للاهتمام في أن الناس يقولون أشياء غير صحيحة، فذلك سيحصل دائماً، بل السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هو لماذا تبقى بعض الأكاذيب متداولة؟ ولماذا يُصدَّق بعضها بشكل كبير جداً؟ بالرغم من تقديرنا للحقيقة واحترامنا إياها إضافة إلى البنى الموضوعة من قبل المجتمع للتعرف إلى الأكاذيب واقتلاعها من جذورها. بكلمات أخرى؛ كيف يستطيع أولئك الذين يتفوهون بالترهات النجاة من العقاب؟

يكمن السبب في أنه إلى جانب ميزة التفوق العددي التي تمتلكها الأكاذيب على الحقيقة، فهنالك بعض الأسباب البنيوية التي تقتضي تميز الأكاذيب عن الحقيقة. في هذا الكتاب سنصادف مراراً وتكراراً سبع طرق أساسية تنتشر وفقها الأكاذيب وتسيطر على العالم.

حاجز الجهد

يتشكل حاجز الجهد عندما تُرجح الصعوبة النسبية للتأكد من حقيقة أمر ما على أهميته الظاهرة. لكن النقطة المهمة هنا هي أن حاجز الجهد ينطبق على الأمور التي يسهل نسبياً التأكد من صحتها، ولكنها تافهة إلى حدّ أن أحداً لا يتأكد منها، وينطبق أيضاً على الأمور المهمة للغاية التي يصعب جداً التأكد منها. إن السبب الذي حال دون اكتشاف أكاذيب مستكشفي القرن السادس عشر عندما ادعوا وجود عِرق من العمالقة يبلغ طولهم 360 سنتم في بتاغونيا، هو ذاته الذي يسمح لك

عادة بتعديل علامتك في الرياضيات من جيد جداً إلى ممتاز في سيرتك الذاتية من دون أن يكشفك أحد. صحيح أنه من السهل التأكد من ذلك، ولكن من يتأكد عملياً منه؟

هذا ما يفهمه فطرياً الكذابون المتمرسون، فببساطة، من غير العملي ابتكار أكاذيب يكون التأكد من دقتها وصحتها ممكناً، لذلك يطلق كذّاب موهوب أكاذيبه سواء كانت كبيرة أم صغيرة عند الجهة البعيدة من حاجز الجهد.

مكنسة المعلومات

في العادة، نعتقد أن الحقيقة والكذب يستمران في عراك أبدي. ولكن وفقاً لمبدأ حاجز الجهد وتأثيراته في معظم الأحيان لا تشارك الحقيقة في هذا العراك، فكثيرة هي الأمور التي لا نعلم أي شيء عنها في العالم. وفي غياب المعلومات، نميل إلى التخلي عن الحذر تجاه ما يُسوق على أنه معلومات بخصوص الأمور، وإن لم تكن تحمل في طياتها أية مؤشرات جيدة لتصديقها.

يتناسب كلّ ذلك مع الانحياز الإدراكي الذي يعرف بـ «الارتساء»؛ الذي يعني ميل أدمغتنا الفطري إلى التعلق بأول معلومة نصادفها حيال أي موضوع، فنعطيها قيمة أكبر من أية معلومة أخرى. وإذا أردنا القياس على حقيقة أن الطبيعة لا تريد الفراغ، يمكننا القول إنه في ظل غياب المعلومات الجيدة ستملأ المعلومات السيئة الفراغ، وسترفض التنحي جانباً عندما تظهر المعلومات الجيدة في النهاية.

حلقة تغذية استرجاعية من الهراء

لا يمكن لأحد بمفرده أن يحيط عِلماً بكل ما في العالم. لذا، علينا جميعاً الاعتماد في جزء من معلوماتنا، سواء أكان هذا الجزء صغيراً أم كبيراً، على الآخرين. إن الحقيقة الآنفة الذكر جيدة، لأنها تتيح لنا الحصول على معرفة جمعية أكثر بكثير –وبما لا يمكن مقارنته– مع ما يستطيع كلّ واحد بمفرده الحصول عليه، ولكن وككل شيء في هذا العالم هناك جوانب سيئة لذلك، ولعل أهم جانب سيئ يتمثل في حلقة التغذية الاسترجاعية من الهراء، وهي التي تتشكل عندما تُكرر معلومة مضللة. إلا أنه، وبدلاً من رؤيتها على حقيقتها – لا سيما عندما يتبناها شخص آخر من دون التأكد من صحتها –يتم التعامل مع هذا التبني على أنه تأكيد على صحة تلك المعلومة المضللة. إن حدث ذلك لوقت طويل، فلن يقتصر الأمر على تكرار الادعاء فقط، بل سيتأصل في النهاية إلى درجة يبدأ فيها الناس بتعديل كلامهم ليتناسب مع تلك المعلومة، ولعل الجميع مروا بتجربة مع هذا النوع من المعلومات المضللة، إلى حدّ أن من ينظر مباشرة إلى دليل يثبت عدم صحتها يشك في أن عينيه تعانيان من خلل.

حسناً، عندما يخبر الشخص «أ» معلومة غير صحيحة إلى الشخص «ب»، وبعدها يخبر الشخص «أ» المعلومة نفسها للشخص «ج» يشك الشخص «ج» بالمعلومة، ولكنّ عندما يخبره الشخص «ب» بالمعلومة نفسها عندها يقتنع الشخص «ج» بالمعلومة، لأنه يظن أنه استحصل عليها من مصدر معلومات ثانٍ، وعندها لا يجد ضيراً في تداول المعلومة بعدما تأكدت له صحتها، فيخبر

بها الشخص «د»، ولكن عندما تبدأ الدائرة الاسترجاعية بالتكون لا سيما عندما يخبر الشخص «د» الشخص «أ» بالمعلومة عندها يعتبرها الأخير دليلاً على صحة ما أطلقه أولاً.. وعندما يسمع العديد من الأشخاص الآخرين المعلومة ذاتها من أشخاص عدة يعتبرونها حقيقة ومقبولة وتصبح بمثابة أمر مفروغ منه. ولكن عندما يطرح الشخص «هـ» سؤالاً بشأن صحة المعلومة يُحرق على الفور بتهمة الهرطقة من قبل جميع الأحرف الأبجدية الأخرى.

أو لنأخذ مثالاً مألوفاً: تذكر إحدى الصحف معلومة في مقال نقلاً عن موقع ويكيبيديا ومن ثم يُذكر المقال في ويكيبيديا على أنه دليل على صحة المعلومة.

الرغبة في أن يكون الأمر صحيحاً

كثيرة هي الأمور التي تقوم بها أدمغتنا لجعلنا سيئين على نحو فريد في التمييز بين الحقائق والأكاذيب. لهذا فإن كثيراً من العبارات التقنية مثل «الاستدلال المدفوع» و«الانحياز التأكيدي» تعني ببساطة أننا عندما نرغب في تصديق أمر تنصرف أدمغتنا عن الاهتمام بشأن مدى صحته، وهذا الأمر لا يقتصر على دعم موقف سياسي، أو تحيز أو أمنية مثل «ربما ربحت مسابقة اليانصيب في إسبانيا حتى عندما لا أكون قد اشتريت بطاقة يانصيب أصلاً»، وعندها ستسعى أدمغتنا فرحة إلى ابتكار مبررات زائفة كي نعطي أكثر الادعاءات غير المعقولة مصداقية، بحيث ننتقي الدلائل التي تدعمها ونتجاهل فرحين الجبال الشاهقة من الدلائل التي تثبت العكس.

فخ الأنا المغرورة

حتى عندما نميط اللثام عن الأكاذيب، يبقى هناك ما يعيق انتشار الحقيقة بالسهولة نفسها التي انتشرت فيها الكذبة، وهذا مرده بكل بساطة إلى أننا لا نحب الاعتراف بأننا كنا على خطأ، فأدمغتنا لا تحب ذلك، إضافة إلى كمّ كبير من التحيزات الفكرية التي تدفعنا بعيداً عن الاعتراف بأننا ربما أخطأنا. هذا فضلاً عن أن مقداراً كبيراً من الضغوط الاجتماعية يدفعنا إلى التغطية على حقيقة أننا صدقنا أمراً خاطئاً. فعندما نكون في قبضة الترهات لا تبقى لدينا رغبة في التحرر منها.

ببساطة إنه عدم الاكتراث

عندما تُتاح لنا فرصة لمحاربة الأكاذيب غالباً لا نستغلها، معتبرين أن لا أهمية إن كانت المعلومة صحيحة أو كاذبة (وخاصة إن كانت الكذبة تعجبنا). ولكننا نعتقد في الوقت ذاته أن لا جدوى من محاربة الأكاذيب، لذلك لا نهدر وقتنا وجهدنا في سبيل ذلك. فقد نعتقد بأن الكذب شائع.

نقص في الخيال

ببساطة يمكننا القول والتأكيد، إن أهم ما يميز الأكاذيب هو أننا لا نعرف الطرق الكثيرة التي تتجلى بها. يبدو الأمر منطقياً؛ ففي نهاية المطاف، علينا أن نعيش مفترضين أن معظم ما يقال صحيح، وإلا سندخل في دوامة من الارتياب، الذي سيقودنا إلى التقليل من احتمال كون كلّ شيء

غير حقيقي، فنعتقد أن كلّ ما نقرؤه في الأخبار هو صحيح، ونظن أن من يبدو أهلاً للثقة يحاول أن يخدعنا. ونعتقد أيضاً أنه عندما يقول شهود عيان إنهم رأوا شيئاً ما، فذلك يعني أن هنالك شيئاً من الصحة في ما قالوه، ولكن لا يمكننا الركون إلى هذه الافتراضات بشكل كبير كما نعتقد. لأننا في الأساس، لم نعر اهتماماً كافياً لموضوع الأكاذيب، ولم ندرسه، ولم نتحدث عنه، ونتيجة لذلك لا نستطيع التعرف إليه دائماً عندما نراه.

آمل أن تختفي تلك المشكلة عندما تنتهي من قراءة هذا الكتاب.

الفصل الثاني

أخبار قديمة كاذبة

لقد مات تايتان ليدز، ما من شك في ذلك.

لقد كان رجلاً مُجداً وصادقاً – كان ناشراً ناجحاً في مدينة بيرلينغتون في نيوجيرسي قبل وفاته – توفي السيد ليدز يوم الأربعاء في 17 تشرين الأول/أكتوبر سنة 1733 تقريباً عند الثالثة والنصف بعد الظهر. سُجل خبر موت ليدز وطُبع ووُزع باللونين الأبيض والأسود كي يقرأه الجميع: «إن موته حقيقة لا ريب فيها»[8]. هذا ما ذُكر في المقال الذي يذكر وفاته. بالرغم من التوقعات المسبقة حول موته القريب، احتفظ خبر وفاته – كان في أول الثلاثينيات – بوقعه على العديد من أهالي بيرلينغتون؛ وهو عبارة عن مجتمع نشيط يجاور نهر ديلاور، نما بسرعة كبيرة منذ تأسيسه على يد مجموعة من الكويكرز منذ خمسة عقود تقريباً.

لعل أكثر شخص فاجأه خبر الوفاة هو تايتان ليدز ذاته، فقد كان متأكداً بشكل كبير من كونه حياً يُرزق.

لا يمكننا سوى تخيل ردّ فعله. ولكنّ هنالك سبباً وجيهاً يجعلنا نفترض أن السيد ليدز الذي لا يزال على قيد الحياة شعر بارتباك كبير عند قراءته خبر موته وهو لا يزال حياً. فهذه هي الأشياء التي ستربكك أليس كذلك؟ حسناً، لا عتب على من تملكه الذعر. ولكن لا بد أن الأمر كان مربكاً على نحو خاص في سبعينيات القرن السادس عشر، ذلك لعدم امتلاك ليدز أية مراجع تتعلق بما كان يحدث معه.

في عصرنا هذا، إن احتمال مرور شخص ما بالتجربة المقلقة لقراءة خبر وفاته نادر للغاية، إلا أنه محتمل. ربما سمعنا جميعاً قصص أشخاص حدث معهم هذا الأمر: كجثث تم التعرف إليها بشكل خاطئ، أو نشر نعي سابق لأوانه. «حدثت مبالغة في تقارير موتي». إنه اقتباس مشهور جداً لدرجة أنه يعتبر الآن مبتذلاً (حتى وإن أشار شخص متحذلق إلى أن مارك توين لم يقل تلك الكلمات أبداً)[9]. في عام 1980 نشرت صحيفة النيويورك تايمز نعي المحتال الشهير ألان أبل[10]، وقد بدا في ذلك نوع من المخاطرة والتهور، وهذا ما ثبت في اليوم التالي عندما عقد أبل مؤتمراً

صحفياً ليعلن أنه خطط لمقتله كي «يحصد الشهرة»[11]. (بعد وفاة أبل بنحو 38 سنة، أعلنت النيويورك تايمز في كتابة نعيه «لقد مات حقاً»[12]).

بكلمات أخرى؛ بالنسبة إلينا تُعتبر إعلانات الوفاة السابقة لأوانها أمراً مألوفاً. فنحن لا ندرك إمكانية حدوثها، بل إن كثيرين منا يتخيلون كيف سيكون الأمر إن حصل معنا (اعترفوا بالأمر أن الفكرة التالية خطرت ببالكم ذات يوم «يخطئ الناس الاعتقاد ويظنون أنني قد متّ مما يعني أنني سأكتشف حقيقة رأيهم فيّ»). في عام 2009 عندما أُعلن –وبنتيجة خليط من معلومة كاذبة ذكرها موقع ما وموجة من الشائعات التي تم تداولها عبر تويتر –مقتلُ جيف غولدبام الذي ظهر في نهاية المطاف في حلقة من برنامج ذا كولبيرت ريبورت ليرثي نفسه[13]، وأعتقد أن الجميع يُجمعون على مدى رقي تعامله مع أمر كهذا.

أما بالنسبة إلى تايتان ليدز– الذي عاش في وقت بعيد من فجر حقبة وسائل التواصل، فبدا له الأمر غريباً وجديداً. إن احتمال اعتقاد الناس بأنك ميت بسبب شيء قرؤوه كان أغرب بكثير مما هو بالنسبة إلينا الآن... بالطبع كان أكثر إثارة للغضب. فبالرغم من أنه بذل قصارى جهده ليثبت أنه لا يزال حياً إلا أن هذه الجهود ذهبت هباءً منثوراً. بالرغم من إصرار ليدز بغضب على أنه حي في الصحف، استمرت التقارير بالظهور لسنوات عدة مؤكدة موته. وما زاد الطين بلة هو إصرار تلك التقارير على أنه يجب على ذلك المحتال الذي يكتب مقالات غاضبة عن كونه حياً يُرزق تحت اسم السيد ليدز أن يتوقف على الفور لأنه يدنس ذكرى الراحل المحبوب.

حدث كلّ ذلك لأن قصة موت ليدز لم تكن ببساطة خطأً بريئاً؛ خطأ طباعياً على سبيل المثال أو شائعة لا أساس لها كُررت بسذاجة، بل كانت كذبة متعمدة وكان هناك سببان تقليديان وراء انتشارها: المكسب والأذى. فقد كان عبارة عن جهد ناجح للغاية هدف إلى زيادة المبيعات من جهة، وعداوة بدأها ناشر جديد حديث النعمة. من سوء حظ تايتان الشديد أنه كان لهذه العداوة حس فكاهي شيطاني. وإن كان ليدز قد انزعج حيال ذلك، إلا أنه على الأرجح أصبح غاضباً إلى أبعد الحدود عندما أدرك أن ذلك المحتال التافه الذي لفق خبر موته لهدف سخيف تمثل بزيادة مبيعاته سيصبح في العقود التالية أحد أبطال الولايات المتحدة الأميركية الناشئة.

باختصار، حظي ليدز بلقاء مبكر وقاس للغاية مع ما يمكننا وصفه بـ «الأخبار الكاذبة».

لقد كان وصول صانع تقاويم إلى منطقة نهر ديلاوير هو السبب في معاناة ليدز من معضلة ما بعد الحقيقة. في أميركا، وفي ثلاثينيات القرن الثامن عشر، كان التقويم مجال عمل مهم وكان تايتان ليدز الأفضل فيه. فقد ورث مهمة نشر التقويم من أبيه دانيال عندما اضطر هذا الرجل المسن للتقاعد. ولد دانيال ليدز لعائلة من الكويكرز تنحدر من عائلة إنكليزية (العائلة الصغيرة في كينت وليس تلك الكبيرة في يوركشاير)[14]. لقد هربت عائلته من الاضطهاد–هاجرت عام 1677 إلى أميركا –الديني في العالم القديم، ولكن دانيال اصطدم مجدداً بتلك القيود الدينية في العالم الجديد.

كان دانيال ليدز رجلاً مفكراً، وقد علّم نفسه بنفسه، وكانت لدانيال ليدز فلسفة خاصة محددة وغير تقليدية إلى حد ما: فقد جمعت ما بين التصوف المسيحي الذي يصفه البعض بالهرطقة، وحب كبير للعلم. أما ما دفعه إلى حقل النشر فهو ولعه في نشر الحقيقة كما رآها، أولاً عبر تقويم ريادي، ثم عبر كراسة فلسفية ولاهوتية كبيرة تمثل ذروة عمله. وعندما أثارت أفكاره الانشقاقية واستخدامه الكبير لعلم الفلك غضبَ رفاقه في مجتمع الكويكرز الذي أسسوه في بيرلينغتون، رفضوا أعماله، ومنعوا انتشار تقويمه، ودمروا كلّ نسخ كتابه مما حطم دانيال ليدز تماماً.

لكن دانيال ليدز لم يستسلم وعوضاً عن تقبل الحياة الهادئة، أعاد إنتاج تقويمه بحماس متجدد، إضافة إلى انخراطه في حرب كتيبات طويلة ومريرة جداً مع جيرانه، فقد أدت سلسلة هادرة من العداءات إلى أن اتهمه أحد أعدائه بأنه شيطان حقيقي، وقد كان أعداؤه كثراً ووصفوه بصوت الشيطان وبوقه. صراع الكويكرز في القرن الثامن عشر كان وحشياً، ولربما سببت سمعة سيئة كهذه مواقف محرجة في شوارع بيرلينغتون، ولكنها لم تكن سيئة بالضرورة لعمله، إضافة إلى أنه كان لتقويم ليدز جمهور كبير بسبب سمعة التقويم بوصفه أحد أول التقويمات في المستعمرات الأميركية. وشاءت الظروف أن ينتهي المطاف بأن يتولى تايتان في عام 1714 تحرير التقويم. عندما تسلم ليدز تحرير التقويم كان الأخير يعتبر الأفضل والرائد في المنطقة منذ عقود.

لكن مشكلة أن يكون الشخص رائداً في السوق هي أنه سيكون هدفاً كبيراً لأي دخيل شرس يحاول دخول السوق. وهذا ما حدث تماماً عندما قرر شاب طموح اسمه بينجامين فرانكلين دخول سوق التقاويم.

في هذه الأيام، يُعرف فرانكلين بأنه أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأميركية، حتى إنه يعرف بالمفكر العظيم لحركة الاستقلال الأميركية، فهو رجل عبقري متعدد المواهب إذ يمتد إرثه من ريادة تسمية الكهرباء باسمها، إلى إنشاء أول مكتبة عامة لاستعارة الكتب في أميركا، وهو من أسس نظام البريد الأميركي فضلاً عن اختراعه عدسات ثنائية البؤرة. أعدكم بألا أعتاد النسخ من موقع ويكيبيديا واللصق في هذا الكتاب، ولكن كي أعطيكم لمحة عن إنجازات بينجامين الكبيرة إلى حدّ مزعج لجأت إلى السطور التي تفتتح صفحته على ويكيبيديا على أنه «كاتب بارز، وناشر، وعالم نظري في السياسة، وسياسي، وماسوني ومدير مكتب البريد، وعالم، ومخترع، وفكاهي وناشط مدني، ورجل دولة ودبلوماسي»[15].

بكل صراحة، إن قراءة كلّ ذلك أمر متعب. ابق في مجالك يا بينجامين.

في عام 1732، عندما كان فرانكلين في عقده الثاني من العمر، لم يكن رائداً في أي مجال، وبعدما ترك مسقط رأسه بوسطن في السابعة عشرة، كي لا يعيش في جلباب أخيه الكبير، أسس دار نشر في مدينة فيلادلفيا التي تنمو بشكل سريع والتي تقع على ضفة النهر قرب بيرلينغتون. (في هذه الأيام وبفضل قرون من الزحف العشوائي للمدن، أصبحت بيرلينغتون إحدى ضواحي فيلادلفيا). أجاد فرانكلين عمله إذ كان يملك صحيفة بنسلفانيا غازيت. ولكن إن كنت تريد كسب المال حينها فقد كنت في أشد الحاجة إلى ملف متنوع من المنشورات كي توسع عملك حتى تصل إلى مجال التقاويم.

إن لم تكن تعرف ما كانت التقاويم، فهي دليل فعلي يحوي معلومات مفيدة قد تود معرفتها في السنة القادمة. فكما فعلت الصحف طيلة عقود بذكر نتائج المباريات الرياضية، ولائحة ببرامج محطات التلفاز، وبعض الآراء والمواقف، إلى جانب النشرات الجوية، والقليل من علم الفلك لتجعل من هذا الخليط شيئاً يمكن للناس شراؤه قامت التقاويم بالأمر ذاته فقد جمعت بعض الآراء والمواقف والنشرات الجوية وبعضاً من الفلك. (فلم تكن لائحة برامج محطات التلفاز بتلك الأهمية في ثلاثينيات القرن الثامن عشر). بالنسبة إلى المجتمعات الزراعية كانت معرفة معلومات مثل متى تشرق الشمس ومتى تغرب؟ ومتى يكون المدّ مرتفعاً ومتى ستتغير الفصول أساسيةً. فقد باع ناثانيال إيمز في ماساشوسيتس 50 ألف نسخة في السنة[16] وهو عدد هائل بالنسبة إلى مجال نشر كان في بدايته. ربما ما ذُكر آنفاً يجعلك تعرف لماذا أراد فرانكلين المشاركة فيها.

في عام 1732 أطلق تقويم بور ريتشاردز تحت اسم مستعار هو ريتشارد سوندرز الذي عُرّف عنه بأنه فلكي فقير أجبرته زوجته المتطلبة على العمل في مجال النشر مصرّةً على أن يعمل كي يكسب عيشه. (أحب فرانكلين كثيراً استخدام الأسماء المستعارة. تحذير قد يفسد عليكم أحداث هذا الكتاب: لن تكون هذه المرة الوحيدة التي سيؤدي فيها استخدام بين فرانكلين أسماء مستعارة دوراً مهماً في هذا الكتاب).

في هذه المرحلة، كانت العداءات بين المتكهنين المتنافسين جانباً راسخاً في ساحة التقاويم الأميركية، فبعض المتنافسين كانوا يطلقون سيولاً سنوية من القدح والذم تجاه منافسيهم[17]. في الوقت التي كانت معظم هذه العداءات تتلخص بقول «أنت فاشل في مجال التقويم»، اختار فرانكلين مقاربة أكثر خبثاً، وأقل مباشرة عند انتقاد منافسه الرئيسي؛ مقاربة كانت هزلية مضحكة، فقد كتب «سوندرز» في أول تقاويمه أنه كان ليبدأ بنشر تقويم يعود عليه بالربح منذ سنوات عديدة، إلا أن طيبة قلبه لم تسمح له بأن يخرّب عمل ومصدر رزق «صديقه وزميل دراسته تايتان ليدز».

بعد ذلك، قال إن السبب الوحيد الذي حمله على رأيه هو أن هذا المانع – للأسف – لن يستمر طويلاً، لأن تايتان ليدز سيموت قريباً، أو على حد تعبيره «إن موته محتم، وهو الذي لم يعرف عنه أن توقعاته تخيب»[18].

بعدها ذكر فرانكلين أن تايتان ليدز سيموت «بحسب توقعي الذي جاء بطلب منه، في السابع عشر من تشرين الأول عام 1733 في الساعة الثالثة وتسع وعشرين دقيقة، في لحظة اقتران الشمس وكوكب عطارد». وأضاف ليعطي توقعه مصداقية أن هناك خلافاً مع ليدز على التاريخ الدقيق «فبحسب توقع تايتان فهو سيعيش حتى السادس والعشرين من الشهر نفسه».

هي طرفةٌ جيدة، وهي في الحقيقة ليست من بنات أفكار فرانكلين، فقد سرقها من الكاتب الساخر الأيقوني الإيرلندي جوناثان سويفت، الذي قام عام 1708 بالأمر ذاته مع منجّم وعامل بالتقويم اسمه جون بارتريج، حيث توقع في نشرة تقويم مزيفة نشرها تحت اسم مستعار بأن جون «سيموت يوم 29 من شهر آذار المقبل عند الساعة الحادية عشرة ليلاً نتيجة حمى مستعرة»[19]. بدا

فرانكلين، غير المناصر للتنجيم، متأكداً بالطبع من حيلة سويفت (ومن حقيقة أن دانيال ليدز كان من مناصري بارتريج) وكان يغمز كتابياً لأي قراء مطّلعين ممن سيدركون الحيلة.

من سوء حظ تايتان ليدز فإنه لم يفهم الطرفة على الإطلاق، كان أبوه دانييل يتمتع بحس فكاهة جيد، أما هو (حسب وصف أحد الباحثين) فكان «رجلاً جدياً، ومعتداً، وعمليّ الطباع، ويأخذ الأمور على ظواهرها»[20]. نتيجة لذلك فقد أكل الطُعم، واستجاب في السنة التالية لريتشاردز بور في السنة التالية في تقويمه لعام 1734 (نِزاعات التقويم كانت أبطأ قليلاً من موقع تويتر) وهاجم غريمه بسبب «الافتراء الجسيم والكلي» ووصفه بـ «الأحمق والكذاب» وتفاخر بأنه «على الرغم من توقعه الباطل فإنني عشت وبرحمة من الله لأكتب تقويماً لعام 1734 ولأعلن حماقة وجهل هذا الكاتب المدّعي»[21].

كان ذلك العذر الوحيد الذي احتاج إليه فرانكلين، ولذا نقل حيلته إلى المستوى التالي، أولاً في تقويم سنة 1734 حيث عبّر فيه عن صدمته بالأشياء المريعة التي كُتِبت عنه، وقال إن ذلك إشارة إلى أن صديقه القديم والعزيز ليدز كان بالقطع ميتاً، وأن شخصاً آخر لئيماً كان يكتب مكانه، وفي إصدار السنة التالية، أكد أن ليدز مات فعلاً في الموعد المتوقع، وقال: «إنه يتعرض لإساءة شديدة من شبح تايتان ليدز، الذي يدّعي أنه حيّ ويكتب التقويم متحدياً توقعاتي».

أما عن المدة التي عذّب فيها فرانكلين ليدز والكيفية التي ردّ فيها ليدز على الادعاءات المستمرة عن وفاته، فللأسف لا نعرف عنها شيئاً، لأنه في عام 1738، أي عندما غدت المسألة في خطر أن تصبح مشوشة جداً، بسّط تايتان ليدز الموقف بموته.

ربما تظنّ أن القصة انتهت عند هذا الحدّ، لأن رد فعل معظم الناس – وبشكل كبير – على الموت الحقيقي لشخص كانوا يمزحون حول وفاته سيكون – على حدّ علمي – الشعور بالذنب، وعدم التطرق للموضوع مجدداً، ذلك سيكون رد فعلك أنت، أليس كذلك؟

ذلك لم يكن رد فعل فرانكلين.

بل نشر في عام 1739 ما اسماه «رسالة مزيفة من شبح تايتان ليدز» أكد فيها أن ريتشارد بورز كان على حق منذ البداية، وأن ليدز مات فعلاً عام 1733، مؤكداً أن التقويم الذي كان ينشره تايتان ليدز الحقيقي كان من عمل بعض المحتالين. دعوني هنا أقل بصريح العبارة لقد كان بينجامين فرانكلين ناصب أفخاخ لعيناً.

نعم لقد كان ناصب أفخاخ لعين، لأن لعبته نجحت، وأضحى «تقويم ريتشاردز بور» أشهر من نار على علم، في حين أخذ «تقويم ليدز» ينحدر إلى أسفل الدرك بسرعة إلى أن توّقف نشره بعد عقد من الزمن. كان تقويمه أذكى وأكثر ترفيهاً من منافسيه، وكانت ممارساته المهنية أكثر قسوة، لم تقتصر كتاباته على الهمز واللمز عن طريق علم الفلك بل كان يذكّر الجمهور بارتباط آل ليدز بالمعتقدات الغريبة وبالاتهامات القديمة وأنهم «صوت الشيطان»، في الحقيقة، لم يهتم أحد إن كانت ادعاءاته تجافي الحقيقة أم لا.

هذه هي فكرة هذا الكتاب، لأنه حسب ما سنرى فقد واجهنا عبر التاريخ تخييراً بين الحقيقة والحكاية الممتعة، وقلّما مالت الكفة لصالح الحقيقة.

حفر خشبي يمثل بائع صحف يعرض صحيفة Relation

يمكن رؤية طول المدة التي استمرت فيها هذه المشكلة من خلال مقال بخصوص خطاب إحدى النساء في المحكمة والذي عبّرت فيه عن معاناته من الظلم، لقد تم التداول بهذا الخطاب طيلة

عقود في القرن الثامن عشر عبر ضفتي الأطلسي. في الحقيقة، لقد حوّر الخطاب الأساسي عدة مرات نتيجة إعادة نشره بشكل متكرر.

إن الأهمية التي اكتسبها هذا الخطاب تعود إلى تغيير السياق التاريخي المحيط به. إننا نتحدث عن خطاب بولي بيكر.

يبدو مقال بولي بيكر بالنسبة إلى من ينظر إليه في هذه الأيام، وكأنه صمم ليحقق انتشاراً واسعاً، ولكنه كتب في القرن الثامن عشر.

لقد ادعي أن هذا المقال الذي نشر للمرة الأولى في الخامس عشر من نيسان عام 1747 في صحيفة «ذا لندن جينرال آدفرتايزر» نسخة طبق الأصل من خطاب ألقته الآنسة بيكر أثناء محاكمتها التي جرت في الطرف الآخر من المحيط في كونكتكت قرب بوسطن في نيو–إنغلند.

كانت بيكر تحاكم لإنجابها طفلاً خارج الزواج، ولم يقتصر الأمر على هذا وحسب، فقد كانت تلك المرة الخامسة التي تمثل فيها أمام المحكمة بتهمة من هذا النوع، ولكن بدل أن تشعر بولي بيكر بالعار لجأت إلى الصراحة، ممارية: «أين العدل في أن تحاكم عدة مرات بسبب إنجابها أطفالاً غير شرعيين بينما يُعفى عن آباء أولئك الأطفال ولا تنزل بهم أدنى عقوبة؟». وقالت: «لقد أنجبت خمسة أولاد أصحاء، معرضة حياتي للخطر، وقد رعيتهم وربيتهم وفقاً لطريقتي، لقد خاطرت باحترام العامّة لي، وعانيت مراراً الإذلال والعقوبات العلنيين، لذا أرى وبكل تواضع أنني أستحق أن يشيّد لي تمثال يخلد ذكراي بدل أن أُجلد».

وفقاً لما ذُكر في افتتاحية جينرال آدفرتايزر لم يكن خطابها قوياً لدرجة منعت المحكمة من إدانتها وحسب، بل إن كلماتها حرّكت مشاعر أحد القضاة فتزوجها في اليوم التالي.

ذلك الخطاب يبدو أنه صُنع ليناسب لغة منتصف العقد الثاني من القرن الحالي في مواقع إلكترونية ملهمة تحت عنوان: هذه المرأة أسكتت محكمة بخطاب مؤثر عن الخزي الذي ألحق بها، ولكن ما حدث في ما بعد كان مذهلاً.

من الواضح أن الخطاب كان جيداً، لذا أخذت عجلة إعادة النشر في الصحف البريطانية بالدوران. في اليوم الذي تلى خطاب الآنسة بيكر في جينرال آدفرتايزر، نشرته خمس صحف لندنية على الأقل، وفي غضون أسابيع نشرته صحف مدن أخرى مثل صحف نورث هامبتون، وباث، وإدنبره، ودبلن. وبعد بضعة أسابيع، قامت مجلات الأخبار الأوسع انتشاراً بنشره (من الواضح أن أياً من هذه الصحف لم يكن لديه الوقت الكافي ليزور كونكتكت ليرى إن كان بإمكانه أن يتعقّب أثر بولي؛ وهي حالة أخرى من وقوف الجهد الجغرافي عائقاً أمام الحقيقة، الأمر الذي يوفر غطاء لانتشار الكذب). لم يُنسخ هذا النص وحسب، بل بدأت التغييرات تطرأ عليه، سواء عن عمد أم لا، أجدرها بالذكر هي مجلة جنتلمانز ماغازين التي قررت أن زواجها بقاضٍ لم يكن مفاجأة كافية، بل أضافت أنهما أنجبا 15 طفلاً أيضاً، ولم يتم توضيح متى وُلد هؤلاء الأطفال الخمسة عشر، لأن النص كان غامضاً بخصوص وقت حدوث الأحداث.

في تموز، وبعد مضي بضعة شهور، كانت القصة قد قطعت المحيط الأطلسي ووجدت طريقها إلى سوق الصحف الحديثة النشأة في المستعمرات الأميركية، بداية في بوسطن، ثم على امتداد الساحل إلى نيويورك وماريلاند. وبالرغم من السهولة النسبية التي كانت متاحة أمام الصحافة الأميركية للتحقق من صدق القصة، يبدو أن أحداً لم يحاول ذلك، وهذا ليس مفاجئاً، فحتى في عصر الهواتف ومحرك بحث غوغل يصعب إثبات أن شيئاً ما لم يحصل. في وقت لم يكن فيه إلا اثنتا عشرة صحيفة في كلّ الدولة، لم يظهر مفهوم الصحافة التحقيقية الشجاعة إلا بعد قرن، ربما لن يفاجئنا أنهم شعروا أن لديهم أموراً أكثر أهمية ليقوموا بها. كانت إعادة نشر مواد كتابية من الصحف البريطانية الأكثر عراقة أمراً شائعاً، وقد يكون حاجز الجهد الذي يتطلبه التحقق قد انخفض، ولكنه استُبدِل بالسلطة المفترضة التي تترافق مع سمعة الصحافة البريطانية.

لذا، وبدلاً من تحفيز خطوات جديدة (سواء للتمحيص أو التفنيد) فإن نداء بولي التعبوي المناهض للمعايير المزدوجة التي تميز بحسب الجنس أخذ طريقاً إلى الوعي الجماعي ليصبح واحداً من المفضّلات الكلاسيكية، تلك القصص التي تصيغ الخلفية النفسية للشعب، والتي تُستخدم بين الحين والآخر، كلما أراد أحد أن يثبت شيئاً ما. لقد استخدم الخطاب مراراً وتكراراً في العقود اللاحقة، وأعيد نشره في الصحف والمجلات والكتب وتمت ترجمته إلى اللغتين السويدية والفرنسية. إن هذا الخطاب يرمز إلى شخصية عادية، تصدت لقوانين ظالمة. لقد أمسى هذا الخطاب رمزاً كبيراً في عالم محكوم بالربوبية والحركة اللاهوتية حيث لا تجوز منازعة السلطة الاعتباطية للكنيسة التي تستمد سلطتها من الإله، وهذا ما سيترك لاحقاً تأثيراً فكرياً كبيراً على الثورتين الفرنسية والأميركية.

في هذا السياق، وبعد عشرين سنة بعثت الروح في هذا الخطاب، وكانت هذه هي الطريقة التي أدت إلى اكتشاف حقيقته. ففي عام 1770 ظهرت القصة بشكل جديد وأكثر ميلودرامية في كتاب فرنسي واسع الانتشار، لمؤلفه آبيه رينال، وهو قسيس سابق له وجهة نظر خاصة بشأن التاريخ، ولكنه بارع في الدعاية والترويج (ويرجح أنه كتب قسماً من الكتاب الذي نسبه لنفسه. ويعتقد أن أجزاء كبيرة منه عبارة عن مساهمة من الفيلسوف الموهوب دينيس ديدروه، بالإضافة إلى مجموعة من المشاركين الآخرين، ويرجح أن ديدروه هو من أضاف قصة بولي إلى الكتاب فقد كان من المعجبين بها).

في المناخ المحموم السابق للثورة الفرنسية، عزف اضطهاد القضاة الطغاة في نيو إنغلاند لبولي بيكر على وتر حساس ولاقى شعبية. أعيدت طباعة ما نشره رينال في نسخ مرخصة ونسخ غير مرخصة، وظهرت نسخ أخرى من قصة بولي في سبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر. وفي أحد الأيام عام 1778 عندما كانت الثورة الأميركية في أوجها، زار رينال السفير الأميركي في فرنسا ليتفاجأ بأنه يناقش كتابه المشهور مع زائر من كونكتكت. لم يكتب أي من هؤلاء الثلاثة الذين حضروا هذا الاجتماع عما حصل. لكن ما سنورده الآن هو نقل عن رئيس أميركا توماس جيفرسون الذي قال إنه أُخبر بعد بضع سنوات عما حدث في تلك الغرفة. وكما كلّ قصص التاريخ تعد بعض الأحداث الزائدة ضرورية.

موجز الأحداث هو الآتي: كان الأميركيان يناقشان كتاب رينال ومدى سوئه، عندما دخل رينال ذاته بشكل مفاجئ، فرحّب سيلاس دين القادم من كونكتكت برينال، وأخبره أنهما كانا يتحدثان عن كمية الأخطاء الموجودة في كتابه (ملاحظة جانبية: بما أنني كاتب، أرجو منكم ألا تقوموا بشيء كهذا، فهو في غاية الفظاظة، بإمكانكم على أقل تقدير أن تتحدثوا لبضع دقائق بأمور جانبية أولاً). احتج رينال وقال إنه ما من أخطاء، وأنه كان حريصاً جداً على التأكد من مصدر جميع المعلومات التي ذكرت في الكتاب. عندها سأله دين: لكن ماذا عن بولي بيكر؟ لقد ذكرت تلك الحادثة مع أنها لم تحدث قط. لكن رينال أصرّ أنه مصدره موثوق، ولكنه لا يستطيع الآن تذكر من هو.

عندها لم يستطع السفير الأميركي – بينجامين فرانكلين – كبح نفسه من الضحك. ذلك لأنه هو من اختلق قصة بولي بيكر منذ ثلاثة عقود، ومررها إلى الصحف البريطانية. فلم تكن قصة موت تايتان ليدز هي نهاية عهده في الخداع.

وللحقيقة يمكننا القول إنها لم تكن بدايته أيضاً.

في الواقع، لقد بدأ فرانكلين الخداع في مجال الأخبار عندها كان مراهقاً عام 1722 عندما منعه أخوه الكبير جيمس من الكتابة في صحيفة نيو إنغلند كورانت وهي الصحيفة التي كان ينشرها جيمس، وبسبب انزعاجه من كبت قدراته الإبداعية، قام بينجامين الصغير بما يمكن لأي مراهق في السادسة عشرة من عمره القيام به، اختلق شخصية أرملة في أواسط العمر اسمها سايلنس دوغود وأرسل مقالات باسمها[22]. وحينها نشر جيمس فرانكلين – الذي لم يكن يعرف هوية كاتب المقالات الحقيقة – أربعة عشر مقالاً لها، وجذبت الآنسة دوغود العديد من المتابعين بالإضافة إلى العديد من عروض الزواج.

بعد أن حققت محاولته الأولى في عالم الخداع نجاحاً مؤكداً، تابع فرانكلين بمرح عمله منذ أن تركته سايلنس دوغود. في 1730 كان قد بدأ ينشر في صحيفته الخاصة في فيلادلفيا، التي أسماها صحيفة بنسلفانيا غازيت، حيث ابتكر قصة متخيلة تماماً عن محاكمة ساحرة. في الواقع، لم يكن هنالك أي محاكمات بارزة للساحرات في أميركا منذ عقود خلت، وبعدها انتقل إلى تقويم ريتشاردز بورز (حيث كتب مجدداً تحت اسم شخصية مخترعة) وأمات السيد ليدز سيئ الحظ.

سأعطيكم فكرة عن الجهد الكبير الذي يبذله فرانكلين حتى في التخطيط لأسخف حيله. ففي عام 1755 أضاف فصلاً زائفاً إلى فصول الإنجيل الواحد والخمسين في سفر التكوين حيث أصبح بسهولة قادراً على الفوز بأي نقاش مع سيدة إنكليزية أنيقة.

لم يكن الهدف من بولي بيكر التحريض على حماسة ثورية؛ فقد اختلقها فرانكلين ليتسلى لا أكثر. أكرر مرة أخرى، في بعض الأحيان تخرج الأمور عن السيطرة.

الفصل الثالث

عصر التضليل

في مدينة نيويورك في أوائل أغسطس 1835، كان أمام هؤلاء المحبين للأخبار أمور كثيرة ليتحدثوا عنها. فكان بإمكانهم التكلم عن الطقس بالطبع، حيث اجتاحت البلاد موجة حر شديدة، لم تنخفض طوال شهر. كما اندلع حريق خطير في مانهاتن السفلى. إضافة إلى ذلك سيطر مناخ سياسي متوتر في ما يتعلق بالعبودية وصدامات غالباً ما كانت حادة بين أفراد الحزب اليميني والديمقراطيين. وفي تلك السنة شهدت البلاد أول محاولة اغتيال رئيس فاشلة. أما بالنسبة إلى أولئك المهتمين بالعلم، فكان هنالك ترقب كبير بشأن العودة القريبة المتوقعة لمذنب هالي، كما كان هنالك معرض مثير للاهتمام في مكان الترفيه المشهور حدائق نيبلو الذي نظمه شاب طموح يتطلع إلى أن يبدأ مسيرته المهنية كمنظم عروض – اسمه فينياس تايلور بارنوم. ترك هذا المعرض أثراً كبيراً منذ افتتاحه في العاشر من آب.

لم يقتصر الأمر على وجود الكثير من الأخبار، ولكنّ فكرة وجود الأخبار ذاتها كانت حدثاً مهماً وجديداً. فقد شهدت المدينة إصدار عدد كبير من الصحف التي يبلغ ثمن كل نسخة منها بنساً واحداً والتي أسست في السنتين السابقتين، حيث تنافس نوع جديد من المنشورات التي هي في متناول الجميع ضمن سوق واسعة النطاق بشراسة كي تحصد القصص والقراء.

أجل، كان هنالك أخبار كثيرة يمكن تداولها في أوائل شهر آب. لكن مع نهاية الشهر، كان الشيء الوحيد الذي يتكلم عنه الجميع هو الأشخاص الذين يشبهون الوطاويط ويعيشون على سطح القمر.

من المهم الإشارة إلى شيء ما (لأنني لا أريدك أن تسيئ الفهم). لم يكن شبيهو الوطواط ذوو الشعر الأحمر وحيدين على سطح القمر. لا تكن ساذجاً. فكما يعلم الجميع، إنهم جزء من نظام بيئي حيوي ومعقد يتضمن – إلى جانب أشياء أخرى – قنادس عملاقة ذات أقدام، وهي تحمل أطفالها برفق بين أيديها، وكائنات برمائية كروية الشكل شديدة السرعة تتدحرج على ضفاف أنهار وشواطئ بحيرات القمر الواسعة، بالإضافة إلى قطعان من وحيدي القرن صغيرة الحجم وزرقاء اللون لها وجوه شبيهة بوجوه الماعز وهي تجري بمرح في مروج ريفية مليئة بالأزهار القرمزية.

لقد كشفت صحيفة نيويورك صن هذه العجائب الفضائية لقرائها الأميركيين للمرة الأولى من خلال سلسلة مقالات في الأسبوع الأخير من شهر آب، نقلاً عن مقال ظهر للمرة الأولى في ملحق لمجلة إدنبرغ جورنل أوف ساينس. لقد استندت هذه المعلومات إلى ملاحظات حديثة شوهدت من خلال تلسكوب جديد ذي قوة وضوح كبيرين موجود في رأس الرجاء الصالح في جنوب القارة الإفريقية وهو تليسكوب لا سابق له، وقد دوّن هذه الملاحظات الفلكي العظيم جون هرشل.

سببت هذه المقالات عن الاكتشافات القمرية صدمة كبيرة في المدينة والعالم أجمعه. فقد استقطبت حشوداً كبيرة إلى مكاتب الصحف المتنافسة وجعلتها تبذل جهدها لتعيد نشر الأخبار. كما طغت هذه المقالات على المحادثات العامة وعلى المشهد الثقافي، حتى أن مسرحية كبيرة تناولت الموضوع وعُرضت على مسرح باوري بعد أقل من شهر. وساعدت على تأكيد أن صحيفة الصن والتي أسست قبل عامين فقط كانت الأكثر مبيعاً في العالم.

ولكن (من فضلك جهّز نفسك لتلقي الصدمة). لم يكن أي مما تقدم صحيحاً.

أعلم بأن هنالك كثيراً من المعلومات التي يصعب فهمها خلال فترة زمنية قصيرة. ولكن أرجو أن تصدقني عندما أخبرك أن العلماء تأكدوا بتأنٍّ، وتبين لهم أنه ما من بشر حمر يشبهون الوطاويط يسكنون سطح القمر بتاتاً. كما لا وجود لحيوانات وحيد القرن ذات وجوه تشبه الماعز.

فلم تكن خدعة القمر العظيمة التي حدثت سنة 1835، كما تدّعي المقالات الأولى لصحيفة الصن، من عمل «الدكتور أندرو غرانت» الذي كان «لعدة سنوات المساعد الملازم لهيرشل الأصغر منه»[23] ولكنها كانت من صنع شاب إنكليزي هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية واسمه ريتشارد أدامز لوك. عُيّن لوك محرراً في صحيفة الصن قبل شهرين فقط. ولم يهدر كثيراً من وقته ليصبح محرراً شهيراً ومؤثراً.

إن كان عليك السؤال عن المكان والزمان اللذين شهدا ولادة صناعة الأخبار الحديثة فالجواب المرجح لهذا السؤال هو: منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر في نيويورك.

في الماضي لم تكن الصحف تشبه تلك التي نبتاعها اليوم (أو لأكون أكثر دقة: الصحف التي نتصفح موقعها ولا نبتاعها). فأولاً كانت إلى حدّ كبير من مقتنيات الرفاهية، فهي تستهدف بشكل خاص كبار التجار ورجال السياسة، ولم تبذل أي جهود لتجذب جمهوراً أكبر، فقد كان ثمن كل نسخة من صحف نيويورك في أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر ستة سنتات وهو ثمن مرتفع بالنسبة إلى معظم سكان المدينة التي تشهد نمواً سكانياً متزايداً باضطراد. كانت الصحف عبارة عن ورقة واحدة مطوية، وكانت مؤلفة من أربع صفحات خصصت الصفحتان الأولى والأخيرة منها – وهما الصفحتان الأهم بالنسبة إلى أي محرر صحيفة حديثة – لكتابة الإعلانات المبوبة القصيرة المطبوعة ضمن عواميد متراصة باستخدام أحرف صغيرة لا يمكن قراءتها.

رسم فرنسي للأخوين تيري يوضح ظهور مشهد القمر وسكانه (ينسب إلى: غيتي)

وبفضل ابتكارات القرن العشرين التي أنجزها روبيرت مردوخ، أصبحت كلمتا «الصفحة الثالثة» مرتبطتين بشكل معقد في أذهان هواة الصحف البريطانية بصور نساء عاريات الصدور. في أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر كانت الصفحة الثالثة في صحف نيويورك مليئة بقوائم طويلة من أمور كأسعار تبادل العملات، وتفاصيل عن سفن وصلت حديثاً إلى المرفأ، وبمعلومات كانت أساسية للتجار. أما الأخبار الفعلية فأحيلت إلى الصفحة الثانية وهي صفحة يعتبرها أي صحفي في صحيفة حديثة «المكان الذي توضع فيه أشياء لن يقرأها أحد».

لم تشجع أي من هذه الخصائص على شراء الصحف. ولكن لسبب ما لم يكن هذا الشكل غير الجذاب مشكلة حقيقية بالنسبة إلى مبيعات هذه الصحف، لأنها كانت تعتمد على الاشتراكات عوضاً عن مبيعات كشك الصحف (لأنه لم يكن هناك أكشاك بيع صحف وقتها). كما اعتمدت كثيراً على التحيز، لا سيما التحيز السياسي. كانت تلك نهاية حقبة «الطباعة الحزبية» في الولايات المتحدة الأميركية، عندما كانت معظم الأخبار تعبر عن آراء حزبيين أو تتحدث عن خدمات يقدمها السياسيون الذين اختيروا لتنفيذ عقود حكومية مربحة، وكان هؤلاء هم من يمولون الصحف.

كل ما تقدم أدى إلى ما يمكننا وصفه بظهور مساحة لنقاش سياسي واسع بشأن المشكلات السياسية التي يواجهها بلد حديث الولادة أو وصفه على نحو سيئ بظهور مجموعة من النرجسيين

يواجهون بعضهم من دون أن يولوا أي أهمية لدقة المعلومات التي يكتبونها.

فاض هذا الحماس والحيوية بشكل مستمر ليصبا في الحياة الحقيقية. تختلف نيويورك عام 1835 بشكل كبير عن العاصمة المتلألئة في يومنا هذا. بالطبع، لم يكن هنالك أي ناطحات سحاب زجاجية، وعوضاً عن ناطحات السحاب كان هناك خنازير متوحشة تجول في الشوارع التي يملأها البراز. ولكن بالرغم من ذلك كان للمدينة بعض الخصائص التي ستبدو مألوفة لقاطني مدينة نيويورك الآن؛ كانت رائحتها كريهة للغاية في الصيف؛ لم يكن فيها مترو يعمل بشكل سليم؛ كما كان لديها فرقة صغيرة ولكن مؤثرة من الإعلاميين المحترفين الذين يتعاملون مع مشاكلهم الشخصية المشتركة بشكل جدي زائد عن الحد.

يتشارك محررو الصحف خصائص كثيرة مع المخرجات التي أشرفوا عليها، لأنهم كتبوا الأغلبية الساحقة من نسخة صحفهم بأنفسهم. لم يكن الفرق بين المراسل والمحرر واضحاً حينها، ونتيجة لذلك، دائماً ما كانت الشكاوى ما بين مخرجات المتحزبين شخصيةً بشكل كبير – وكان أمراً اعتيادياً أن يضرب محررو الصحف منافسيهم عندما يلتقون بهم في الشارع. حتى أن أحد المحررين أصبح يحمل مسدسه أينما يذهب بعدما تعرض لثلاثة اعتداءات من قبل محرر منافس في غضون أسبوع واحد.

في خضم هذا الجو المتشنج ظهرت صحيفة النيويورك صن سنة 1833 وغيّرت طبيعة المنافسة وميدانها إلى الأبد. كانت فكرة الصن (وغيرها من المطبوعات الرائدة الأخرى لحقبة «الصحف التي يبلغ ثمنها بنساً») ثورية؛ فعوضاً عن ثمن الصحيفة المعتاد ألا وهو ستة سنتات، صدرت بنسخة ثمنها سنت واحد. وعوضاً عن الاعتماد على الاشتراكات والتحيزات، كانت مستقلة، تباع في الشوارع من قبل مجموعة من موزعي الصحف الذين يصرخون بصوت عالٍ بأبرز العناوين إثارة في الصحيفة.

وبناءً على ذلك، أصبح جل مدخول الصحيفة من الإعلانات التي أصبحت تصل إلى جمهور أكبر بكثير بفضل ارتفاع نسبة مبيع الصحف بشكل هائل. لم تكن الأخبار تأخذ شكل منتج مخصص وبالغ التكلفة يباع إلى حشد صغير متماثل، بل أصبحت عبارة عن سوق واسعة النطاق، المشهورة والأكثر شهرة، وأصبحت تخاطب نطاقاً أوسع من القراء... وتعتمد على جذب الأعين.

بكلمات أخرى، أصبحت تتبع نموذج عمل الخط الكبير وهو نموذج سيتبعه قسم كبير في مجال صناعة الأخبار طيلة العقود والقرون التالية، والذي ظل معتمداً حتى عقود قريبة قبل أن تؤثر به إلى حد كبير ثورة الإنترنت. (لكي ننتقل إلى موضوع آخر بإيجاز، اقترح عدد لا بأس به من الناس مؤخراً أن تلجأ صناعة الأخبار إلى نماذج سابقة؛ إما عن طريق منتجات تمولها الاشتراكات وتستهدف جمهوراً أصغر وأكثر نخبوية أو تعتمد على التحيز في التأثير. بجميع الأحوال، ذلك يعني أنه كان وقتاً مرحاً في عالم الأخبار!). وبعد أن توصلت صحيفة الصن إلى معادلة صمدت على مر السنين – ألا وهي أن المقالات التي تتحدث عن الجريمة والكوارث ومآسي الناس تلفت الانتباه – وحققت نسبة مبيعات عالية غير مسبوقة، حتى أنها أعلنت بفخر في النصف الأول من شهر آب أنها باعت ستة وعشرين ألف نسخة متفوقة على صحيفة التايمز اللندنية التي كانت الأكبر والأوسع

انتشاراً قبل صدور صحيفة الصن. وربما يعزى هذا الارتفاع الهائل في عدد النسخ المباعة إلى الحريق الذي شب في الثاني عشر من آب وقضى على معظم حي الصحف في وسط مانهاتن، والذي استفادت منه الصحيفة بشكل مزدوج. فخبر الحريق أتاح لها كتابة مقالات درامية سعى الناس لقراءتها بشوق كما أن الحريق دمّر مطابع الصحف الأخرى لا سيما مطبعة صحيفة نيويورك مورنينغ هيرالد، التي كانت تبيع نسختها ببنس واحد، والتي لم يمر على بدء صدورها سوى ثلاثة أشهر.

بسبب كلّ ما تقدم، كانت صحيفة الصن في شهر آب في المكان المثالي لتصبح الصحيفة الجديدة والمثيرة. ومع ذلك بدأت سلسلة مقالات قاطني سطح القمر بجرعات صغيرة، وكانت عبارة عن فقرة موجزة في الصفحة الثانية في النسخة التي نشرت يوم الجمعة في 21 من آب تحت عنوان «اكتشافات سماوية». حيث أشارت إلى أن السيد جون هيرشل حقق في رأس الرجاء الصالح ـ»اكتشافات فلكية مهمة عبر استخدام تليسكوب هائل يعتمد على مبدأ جديد كلياً».

وكما اتضح لاحقاً، كانت هذه الفقرة غيضاً من فيض ما سيأتي لاحقاً. ففي يوم الثلاثاء 25 آب بدأت قصة المقال تتكشف، ولكنّ الصحيفة لم تلجأ إلى نشر مقدار كبير من المعلومات المصيرية دفعة واحدة، بل بدأت بأمور مهمة، ولكنّ يمكن وصفها بالمملة نسبياً مقارنة بما ستنشره لاحقاً. فقد اكتفت بوصف التلسكوب الكبير الذي يبلغ وزنة سبعة أطنان.

ولكن يبدو أن هذا الأسلوب كان بمثابة ضربة معلم، فبدلاً من إثارة الشك حول مثل هذه المعلومات، أشارت الصحيفة إلى أنها تعيد نشر ما نشر في إدنبرغ جورنل أوف ساينس، وبذلك أعطت للمعلومات التي ستنشرها غطاءً من المصداقية، ونصبت فخاً من التشويق للقراء كي يبتاعوا الصحيفة يومياً للاستزادة من المعلومات

في اليوم التالي، بدأت الصحيفة بإماطة اللثام عن عجائب القمر. وكشفت في عدد الأربعاء أن هناك حياة نباتية وحيوانية مزدهرة على سطح القمر، وتحدثت عن الأزهار الحمراء الشبيهة بالخشخاش، والمخلوقات البرمائية المتدحرجة، ووحيدي القرن الزرق التي تشبه وجوهها وجوه الماعز. لقد كانت معلومات مثيرة بحق، ولكن لا يمكن مقارنتها بما نُشر في اليوم الثالث عن اكتشاف قنادس: وهي حيوانات ذكية جداً تحمل صغارها بين أيديها «كالبشر»، وتعيش داخل أكواخ «شيدت بطريقة أفضل مما يشيد به البشر أكواخهم وكانت أسقفها أكثر ارتفاعاً من أسقف أكواخ البشر الهمج».

قد تظن أن ذروة الإثارة في سلسلة المقالات تمثلت في ما ذُكر آنفاً، ولكنّ عدد 28 آب نقل القصة إلى مرتبة أعلى من التشويق. يومها ذكرت الصحيفة وطاويط القمر التي تشبه البشر:»فيسبيرتيليو أو الرجل الوطواط»، كما سماه هيرشل. إنها مخلوقات يصل طولها بحسب وصفه إلى «أربع أقدام، وهي ذات شعر قصير، وعيون لامعة نحاسية اللون، ووجوه صفراء وهي أفضل نوعاً ما من إنسان الغاب». وذكر أن لها أجنحة «ذات غشاء رقيق... يتمدد بشكل مريح على ظهورها من أعلى أكتافها حتى ربلات أرجلها».

لم تقتصر قدرات هذه المخلوقات الشبيهة بالبشر على الطيران، بل كانت شديدة الذكاء؛ فقد ذكر هيرشل «إنها تتحدث، وتومئ وتنفعل وتتعاطف». وفي حال لم يكن ذلك كافياً لجذب انتباه الأشخاص، أضاف المقال: «قادت مراقبتنا لعادات هذه المخلوقات التي كانت من الجنسين إلى نتائج مذهلة أفضّل أن يوضحها أولاً الدكتور هيرشل للعامة في عمله الخاص... إنها بلا شك مخلوقات بريئة وسعيدة، بالرغم من أن بعض ما تقوم به لتتسلى لا ينسجم مع تصوراتنا الأرضية للّباقة». فقد تم حذف قسم كامل يصف هذه «التسليات» بشكل متفاخر بعد إخضاعه للرقابة.

أجل، بالرغم من أن النص يحوم حول فكرة معينة من دون قولها بشكل صريح، لكنها لا تزال واضحة تماماً للقارئ. أيها الرفاق: مارس الأشخاص الذين يشبهون الوطواط الجنس.

بعد كلّ هذه الإثارة، كان من الطبيعي أن يكون المقالان التاليان من السلسلة مخيبين للآمال بعد مقال يوم الجمعة، ولكن بالرغم من ذلك استطاعا أن يثبّتا ما يعتبر الآن اهتماماً لا يُشبع منه بالنسبة إلى القراء. فقد كشف مقال يوم السبت للقراء أبنية كبيرة وغامضة على سطح القمر تشبه المعابد بنيت من الياقوت الأزرق، بينما قدم مقال يوم الاثنين (لأن المحرر قرر أن يكون يوم الأحد يوم استراحة) نوعاً جديداً ومحسناً للأشخاص شبيهي الوطواط. حيث وصفها بـ «أعلى رتبة حيوانية في هذا الوادي الواسع» فأظهرها تجلس في حلقات وتتناقش. كما ذكر أن هذه المجموعة الأفضل من الأشخاص شبيهي الوطواط كانت «من مقام أعلى من العينات السابقة، وكان لون أفرادها أفتح، وتعد نوعاً أفضل من هذا العرق في جميع المجالات».

أجل لم يتجاوز وجود الأشخاص شبيهي الوطواط الأربعة أيام حتى أصبح أحدهم شديد العنصرية تجاههم.

حوصر مكتب صحيفة الصن من قبل آلاف الأشخاص الذين طالبوا بالمزيد، ولم تستطع آلات الطباعة تلبية طلب القراء لمزيد من النسخ.

لم يقتصر هوس الأشخاص على اهتمامهم بمعرفة المزيد عن الأمر، بل شاركوا بشكل فعال أيضاً في هذه الخدعة: فصرح ويليام غريغز وهو صديق مؤلف الخدعة لوك أن أشخاصاً من الحشود قدموا أدلة تدعم هذا الخيال، حيث زعم «رجل كبير في السن يبدو محترماً للغاية ويلبس بدلة كويكرز مصنوعة من الجوخ» بأنه رأى تلسكوب هيرشل بأم عينه عندما كان يُحمل على سفينة في مرفأ شركة الهند الشرقية في لندن، كما أصر رجل آخر «يبدو محترماً جداً» أنه يمتلك نسخة أصلية من تقرير إدنبرغ جورنل أوف ساينس وأن المقال الذي أعادت صحيفة الصن نشره كان بالفعل صحيحاً. يصف غريغز هذه التصرفات بـ «الكذب العفوي»[24].

لقد أدرك بينجامين داي، وهو ناشر صحيفة الصن الماكر، كيف يستغل الفرصة على الفور فقبل أن تنتهي سلسلة المقالات، نشر المقالات في كتيب مستقل سرعان ما بيع منه عشرات آلاف النسخ (وكان ثمن كلّ نسخة من الكتيب 12.5 سنتاً). كما طلب إنتاج أعمال فنية تصور قاطني القمر، وكما استثمر في آلات طباعة حديثة تعمل على البخار ليتأكد من أن صحيفة الصن لن تعجز

مرة أخرى عن تلبية طلبات قرائها من النسخ. كانت الأخبار في طريقها لتصبح مجال عمل وصناعة.

ما من شك أن هذه الخدعة لاقت رواجاً كبيراً وصدّقها الجميع. لقد كتب أهل نيويورك عن هذا الأمر في مذكراتهم، ولكنّ بعضهم عبّر عن شكوكه حيال الأمر: فأشارت عدة روايات من مصادر معاصرة إلى أن معظم الأشخاص انخدعوا بكتابة لوك. فلم يكن عددهم أقل مما كتب لاحقاً إدغار آلان بو فقال «لم ينفِ صحة الأمر حتى شخص واحد من بين عشرة أشخاص.... فقال لي أستاذ الرياضيات في جامعة ما في فرجينيا أنه لا يشك البتة في صحة المقالات!»[25] كان بو نفسه مستاءً جداً حينها حيال الخدعة – ليس لأنه خُدع، ولكنّ لأنه نشر قصته الخادعة الخاصة عن رحلة إلى القمر قبل بضعة أشهر في ذا ثوثرن ليتررري مسنجر وكان يخطط لنشر جزءٍ ثانٍ قبل أن يسحق عمل صحيفة الصن ما نشره تماماً.

في نهاية المطاف، بدأ الناس يُعبّرون عن قلقهم بشكل علني، وكان أحد أوائل الأشخاص الذين قاموا بذلك هو جيمس غوردون بينيت محرر صحيفة نيويورك هيرالد. فلم يستطع إبداء الرأي بأي شيء في الأسبوع الأول من الخدعة لأن صحيفته لم تكن قادرة على الصدور بسبب الحريق الذي نشب في ذلك الشهر، وأعتقد أنه كان يستشيط غضباً من النجاح منقطع النظير الذي يحصده منافسه.

لكن يوم الاثنين في 31 آب عاودت صحيفته الصدور مجدداً، وبدأ بينيت هجوماً عنيفاً ضد منافسيه عبر نشر مقال بعنوان «تهافت الخدعة الفلكية» ذكر فيه من بين أشياء عديدة، أن إدنبرغ جورنل أوف ساينس توقفت عن الصدور منذ سنتين، ولذلك لا يمكن أبداً أن تكون مصدر الخبر. وتابع طيلة أسبوعين مفنداً ما وصفه بأعمال صحيفة الصن «النابية والخبيثة التي لا تعدو في الحقيقة كونها احتيالاً وقحاً» واتهم الصحيفة بالترويج «للأكاذيب بهدف جني المال».

هل كانت الاتهامات صحيحة؟ هل كانت صحيفة الصن تنشر الأكاذيب فعلاً لتكسب المال؟ حسناً، ما من شك أن رفع المبيعات هو ما دفع لوك لكتابة خدعته العظيمة، وبالطبع فكر بينجامين داي من دون تردد في كل دولار يمكنه أن يكسبه من خلال نشر هذه الخدعة. ولكن يبدو أنه كانت لدى كوك دوافع أخرى. في الحقيقة وحسب توضيحاته التي قدمها عندما اعترف بالخدعة بعد عدة سنوات، لقد أنتج هذه الكذبة لأنه سئم من نشر الأشخاص للأكاذيب. فالهدف لم يكن الخداع بقدر ما كان إنتاج محاكاة تسخر من الأكاذيب التي تموّه بطابع لاهوتي، والتي كانت فلسفة مشهورة عندها، حيث أحيل العلم إلى مرتبة ثانوية في كل مرة يعطي الكهنوت تفاسير مختلفة وينسبونها إلى الله. وبما أنه كان محباً للعلم وشغوفاً بالجيولوجيا وعلم الفلك، شعر بخوف من التفاسير غير العلمية التي يعطيها رجال الدين، وأراد أن يكشف زيفها.

لم يهدف لوك إلى نشر الهراء. لكنه روى نكتة مفصلة إلا أن أناساً كثراً لم يفهموها.

أتت هذه النكتة على لوك بعواقب مؤسفة ووخيمة. فطيلة حياته اللاحقة لكتابة هذه الخدعة، لم يستطع الهروب من ظل القمر الذي صنعه. فبعد سنة ترك صحيفة الصن، وانتقل للعمل في

صحيفة جديدة، حيث تأمل أن ينجز عملاً ذا قيمة أكبر بالنسبة إلى العالم، ولكنّ الفشل كان نصيبه. فبعد مرور سنوات وهو يعمل لذلك الهدف، حاول أن يطلق خدعة جديدة عن المذكرات الافتراضية للمكتشف الأيرلندي مانغو بارك، ولكنّ أحداً لم يكترث لها. فقد لطخت بقعة سوداء مصداقية كلّ ما كتبه. ولم يكن لديها سبيل للهروب مما اقترفه قلمه، إلا الارتماء في أحضان الكحول والثمالة. وبعد أقل من عقد من نشر خدعته، اعتزل الصحافة، وعمل طيلة العقود الثلاثة التي عاشها بهدوء وسلام في مجال الجمارك.

لكن الإرث السيئ الذي تركه لا يزال يلاحقه حتى يومنا هذا. أمجاد خدعة القمر – صحف تتصارع من أجل الانتشار، وتصنيع عملية توزيع الأخبار، وتفضيل الأنباء المثيرة للاهتمام على الدقة – كانت جميعها عوامل سيسمع صداها في مجال عمل تسجيل الأخبار خلال القرون التي تلت ذلك. وكما ذكر ذلك المصدر القيم على الإنترنت، وهو متحف الخدع، إن سلسلة قمر لوك كانت «أول دليل حقيقي يظهر القوة الجماهيرية للإعلام»[26].

كما سنرى لاحقاً، لم تكن تلك المرة الوحيدة التي خرجت فيها فكاهة صحفي عن السيطرة. أعتقد أنه عليّ الاعتراف باهتمامي الخاص هنا: إنني صفحي، وشخص أطلق دعابات خرجت عن السيطرة. ولعدة سنوات حديثاً –بفضل مميزات الإعلام الجديد بشكل عام، وتساهل أرباب عملي بشكل خاص – جمع عملي ما بين هاتين الوظيفتين في حزمة واحدة تثير الحيرة نوعاً ما. فمن جهة، وبما أنني أعمل صحفياً، كنت أقدم تقارير تخص التضليل على نطاق واسع عبر الإنترنت، فكنت أساعد على فضح وكالة أنباء عديمة الضمير، وألاحق برامج الروبوتات الروسية، وأكشف زيف عدد لا متناهٍ من الصور المعدلة لأسماك قرش تسبح في شوارع تفيض بالماء. من جهة أخرى، وبما أنني كاتب فكاهي، كنت أبتدع خدعاً مفصّلة من التقارير الإعلامية عن فعاليات وأحداث غير موجودة. بالطبع، أخذت كلّ تلك الخدع من دون أي استثناء على محمل الجد من قبل مجموعة صغيرة وفرعية من القراء. وهذا ما علمني أنه لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً – سوى أن يقول إنها مجرد نكتة يا رفاق في كلّ مكان ما يؤدي إلى إفساد النكتة برمتها. إن كنت تحب أن تشكك في مكانك في هذا العالم، فلا شيء يضاهي أن ترى نكتة ابتكرتها عن أناس يشاركون هراء بسذاجة على موقع التويتر وهي تُشارك على أنها شيء حقيقي على موقع التويتر بعد أقل من سنة.

لذلك، أود أن أستغل هذه الفرصة – للمرة الأولى – وأعتذر بشكل علني من نيك روبينسون رئيس مقدمي البي بي سي وأن أوضح بأنه لم يذهب إلى إيتون مع ديفيد كاميرون وأنه ما من تسجيل سري له يقول فيه «أنا أكره الفقراء»[27]. لا يمكنني التأكيد كفاية على أنها كانت مزحة ولم يكن من المفترض على الأشخاص أن يغردوها خارج سياق أنها كانت مزحة.

إضافة إلى شعوري بالخزي والعار لأنني شهّرت بالسيد روبينسون وذممته، وهذا يعني أنني أعاني من رؤية مزدوجة بشأن الصحافة. وكما كلّ الصحفيين، سأدافع عن الصحافة بثبات، وبشيء من الغرور على أنها مهنة نبيلة وتتطلب الشجاعة، وهي عمود أساسي من أعمدة أي مجتمع ديموقراطي، وأداة لا غنى عنها لإماطة اللثام عن الحقائق، ومحاسبة ذوي النفوذ. ذلك ليس بموقف وحسب: فكل يوم يشعرني زملائي الصحفيون في جهات الأرض الأربعة – والعديد منهم يخاطرون

بأرواح وحرياتهم في سبيل فضح الاعتداءات وإنارة شمعة في الظلام– أنهم بالفعل أبطال بكل ما للكلمة من معنى.

لكنني أدرك كلّ الإدراك أن معظم ما ينتجه الصحافيون لا يعدو كونه هراء، وإن كان هراء مختلف الدرجات.

يرجع ذلك بجزء منه إلى صعوبة العثور على الحقائق والكتابة عنها مع الالتزام بوقت محدد لإنهاء المهام. إنني لا أتحدث عن صعوبة تشبه صعوبة العمل في منجم، بل أتحدث عن صعوبة مثل صعوبة العثور على إبرة في كومة قش «عندما تكون كومة القش في مهب عاصفة، وعندما لا يكون أحد متأكد من أن الإبرة التي يُبحث عنها موجودة أصلاً في هذه الكومة، وأصبح المزارع يوجه كلّ الأسئلة عن كومة القش إلى محاميه، وذلك الرجل الذي يعمل في وكالة رويترز أتى إلى هنا منذ ساعتين واستطاع أن يحصل على مقابلة حصرية مع عائلة صاحب الإبرة».

لأكون واضحاً، إن الأحداث البشرية فوضوية ومضطربة ومحاولة التأكد من أدق تفاصيل ما حدث – واستخراج 800 كلمة واضحة وذكية بالتقطير من هذه المعلومات في غضون ساعات قليلة – يمكن أن يكون، وبكل صراحة، أمراً في غاية الصعوبة في بعض الأحيان. وخير مثال على ذلك قصة ظهور أفعى بشكل مفاجئ عام 1904.

ولكي أكون واضحاً منذ البداية، هذه القصة ليست ذات أهمية، فهي لم تسقط أي حكومة، لم تبدأ أي حركة اجتماعية عظيمة، ففشل إرثها أن يبقى ثابتاً على مر السنين، كما لم تكتب أي مسرحيات استعراضية عنها. فالضحية الوحيدة لهذه القصة كانت ميتة قبل أن تطبع القصة بوقت طويل، والضحية التي نتحدث عنها هي الأفعى بحدّ ذاتها.

ظهرت الأفعى سيئة الحظ في مبنى منحوس يقع في 22 شرق الشارع 33، في حي مانهاتن كثير الجرائم (بعد مرور عقود من الزمن، وبعد تحويله إلى مكاتب، كان هذا العنوان الأخير ولفترة قصيرة آخر مقر لمصنع أندي أند أرهول.) حيث شوهد صبي صغير مع عائلته يلعب بدمية غريبة الشكل. وبعد التدقيق في هذه اللعبة الجديدة اتضح أنها أفعى حية.

بطبيعة الأمر، انتاب العائلة الفزع، ومزقوا الأفعى إرباً بسرعة كبيرة حتى ماتت – رحمك الله أيتها الأفعى – قبل أن يحملوا جثتها إلى مخفر الشرطة كريه الرائحة. من هنا نفترض أن أحد أفضل رجال الشرطة في نيويورك أبلغ رجال الصحافة بمعلومات سرية عن قصة قد تحصد اهتماما كبيراً.

يمكن تفسير سبب اهتمام الصحفيين بمثل هذه القصة: فهي من نوع القصص التي تنصب حولها التغطية الإعلامية المحلية. وسبب اهتمامنا نحن بالأمر هو ما تلى ذلك: لم تتفق أي من الصحف الست التي نشرت الخبر على تفصيل واحد من أحداث الواقعة.

علينا شكر أندي تاتشر وهي صحفية سابقة ومؤرخة في كلية كولومبيا للصحافة في جامعة نيويورك، على بحثها المسهب في مجموعة مربكة من الأخطاء التي استطاعت الصحافة أن

تعتصرها من هذه القصة غير المنطقية البتة[28]. بين صحف نيويورك الصن، وذا هيرالد، وذا تايمز، وذا تريبيون، وذا وورلد، وذي أميركان، ومجلة إيفنينغ انتشرت تفاصيل متضاربة كما تنتشر الشرائط في المهرجانات. فاختلفوا على حجم الأفعى (فكان طولها ما بين الثلاث والخمس أقدام) ولونها (كانت صفراء أو بنية أو خضراء أو سوداء وتتخللها أحياناً بقع متعددة الألوان) وعمر الصبي (3 أو 4 أو 5 أو رقم مختلف) بالإضافة إلى اسم الفتى (بيير أو قد يكون ألبيرت أو غيلتراب أو غالتريم أو بلانباين) واسم الجار الذي يُزعم أن الأفعى هربت من حديقة حيواناته (وقد اتفقوا أن اسمه الأول هو غوستاف ولكنّ كنيته كانت إما هورتليلاند أو سفينسون ولم يكن أي منهما صحيحاً). وأيضاً اختلفوا على هوية قاتل الأفعى (الأب أم الجد أم العم أم الممرضة) وعن الأداة التي تم استخدامها لقتل الأفعى (سكين أو رفش أو مطرقة أو سيف) أو حتى عدد القطع التي قطعت إليها الأفعى بعد موتها (اثنتان أم أكثر)

إننا لا نسعى هنا إلى انتقاد مراسلي نيويورك الكسالى في الضاحية التاسعة عشرة، بل نسعى إلى الإشارة ببساطة لضعف الارتباط ما بين ما هو حقيقي وما رويّ والذي شكّل معظم تاريخنا. فهذه القصة تتضمن القليل من المشاكل التي تعتبر أساسية في الصحافة الجدية: فلم يكن لأي من المواضيع (باستثناء مصدر الأفعى المزعوم غوستاف) دافع لتغيير الحقيقة. فلم يحاول أحد تغطية شيء ما، ولم يروج أحد لفيلم ما، ولم يحاول أحد استخدام الأفعى كتبرير سياسي للتدخل العسكري في أحد بلدان العالم الثالث.

قد يكون بعض المراسلين غير الدقيقين الذين غطوا موضوع الأفعى كسالى أو عديمي الكفاءة وربما غير محظوظين ببساطة، ولكنهم ربما مارسوا مهنتهم بأفضل طريقة ممكنة. ففي هذه الأيام تعد عبارة «أخبار زائفة» منتشرة في كلّ مكان – وأخذ معناها يتغير بسرعة وبطريقة محزنة من «نسخة مزورة تماماً تتنكر بزي الأخبار تهدف فقط لجذب القراء» (المعنى سنة 2016) إلى «أشياء تنشر حول سياسي ولا تعجب هذا السياسي» (من سنة 2017 وحتى يومنا هذه). ولكنّ هذه ليست المرة الأولى التي دخل فيها مصطلح «زائف» إلى مجال صناعة الأخبار إلى أن يتغير معناه بعد مرور الوقت: فحدث شيء مشابه لذلك في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما ظهرت الكلمة للمرة الأولى في عالم الأخبار. فقبل ذلك الوقت، لم يكن مفهوم «التزييف» جزءاً من الحديث الشعبي، فقد استخدم كمصطلح لوصف أكثر المهن رذالة فقط، كاللصوص والمحتالين والممثلين. ولكنّ – كما كتبت المؤرخة والباحثة في الصحافة تاتشر عن حادثة الأفعى[29] – في أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر شقت الكلمة طريقها إلى عالم الصحافة الذي كان في مراحله الأولى قبل أن يصبح مهنة حقيقية. ولكنها لم تعامل على أنها الخطيئة الأصلية للمراسلة، لم تعامل كشيء يسبب طرد أحدهم من مجال العمل.

فبالنسبة إلى البعض، تم اعتبارها مهارة مهمة في العمل.

يشير المحرر ويليام هيلز في مجلة (الكاتب – ذا رايتر) وهي مجلة واسعة الانتشار في أوساط الكتاب المحترفين أنه لا يُفترض بالصحف التي يمتلك فيها المحررون «المقدرة على

'التزوير' أن تطلب منهم تأدية أعمالهم على أكمل وجه»[30] وبعد عدة أشهر، أصر على أنه «من النادر نقل أخبار غير مزورة نوعاً ما»[31] وهو يتحدث عن تضمين الخبر «بعض التفاصيل غير المهمة من خلال أعمال الفطرة السليمة والخيال الصحي... تفاصيل لا تبرز الحقيقة بالرغم من أنها تتوافق مع ما يعتقد المراسل أنه أقرب للحقيقة». إن الهدف من هذه التفاصيل جعل المقال أكثر تشويقاً؛ أصر على أن التزوير ليس «محض كذب»

إن أردنا أن نستعرض مثالاً عن «التفاصيل غير المهمة» فيمكننا ذكر المثال الموجود في كتيّب صدر عام 1894 والذي استهدف الصحفيين الشباب وكتبه إدوين شومان: صحفي من مدينة شيكاغو كان يعطي حلقة دراسية (كيف تصبح صحفياً) في زمن لم تكن الصحافة تُدرّس فيه في الجامعة. لقد حذّر شومان أولئك الذين يرغبون في أن يصبحوا صحفيين من «الأخطاء المملة والمسهبة المتمثلة في أن يكونوا دقيقين بشأن الأشياء الصغيرة التي تشعر القارئ بالوهن والملل مثل حالة الجو أو نقل كلمات المتحدث بحرفيتها»[32].

إن كنت محرر أخبار، لا بد أن كلمات شومان الآنفة الذكر أصابتك بالذعر. بالطبع، يتحدث شومان عن فترة زمنية لم يكن بالإمكان إخفاء جهاز تسجيل صوت في جيبك (في ذلك الوقت، كانت الآلات التي أصبحت بعد عقد من الزمن تحمل علامة تجارية باسم «الدكتافون – جهاز التسجيل» مؤلفة من أسطوانة ضخمة إلى حدّ ما) ولكن مع ذلك، لا يعتبر عدم نقل كلمات المتحدث بحرفيتها شيئاً بسيطاً، فقد أعطت إباحة التزوير هذه المراسلين الصحفيين (الذين يحاولون لعب دور الصورة النمطية للروائيين المحبطين) الفرصة لاستعراض عضلاتهم الأدبية، والتي كانت طريقة مفيدة لتتأكد من أنك تحقق سبقاً صحفياً.

لقد أعجب ذلك المحررين لأنه ضمن لهم تدفقاً ثابتاً من النسخ البراقة، فقد كان ذلك يجعل القراء يحبون المنتج (الصحيفة) ويشترونه. إذا استمرت الأخبار التي تبدو أفضل من أن تصدق بالتدفق – لا سيما من المواقع الصغيرة أو البعيدة حيث كان الجهد اللازم للتحقق من صحتها أمراً صعباً للغاية – فلن يقوم أحد ببذل جهد يذكر للتدخل.

هكذا بدأت مسيرة لويس تي ستون الكاتب الشاب الطموح المنحدر من مدينة وينستيد الصغيرة في كونيكتيكت والذي سرعان ما أصبح أحد أشهر الصحفيين في البلاد، فلم تكن الصحف تشبع من التقارير التي يرسلها من مسقط رأسه. لقد تمتع الصحفي الذي أصبح يعرف بعد ذلك بـ «كاذب وينستيد» بمسيرة عملية استمرت عقوداً من عام 1895 وحتى وفاته عام 1933 أنتج خلالها كماً هائلاً من الهراء الذي لم يتمكن المحررون من مقاومته.

وبحسب ما سجل أستاذ الصحافة كورتيس دي ماكدوغال عام 1940[33]، من بين أبرز تقارير ستون: بيضة ثلاثية الألوان حمراء وزرقاء، وبيضاء باضتها دجاجة في الرابع من تموز، وشجرة تثمر تفاحاً مطهياً، وقطة تغني (يانكي دودل)، وساعة ابتلعتها بقرة بقيت تعمل بشكل مثالي

تقريباً لسنوات في معدتها لأن أنفاس البقرة كانت تبقيها على قيد العمل، ورجل أصلع رسم عنكبوتاً على رأسه يقوم باصطياد الذباب.

إنها مجموعة مقالات يمكن وصفها على أقل تقدير بالمثيرة للتعجب، ولكن عندما يكون مصدرها كاتباً واحداً من مدينة صغيرة، ستعتقد أن أحدهم سيلاحظ زيف ستون أو يفكر في احتمال مستبعد أن وينستيد بوابة إلى عالم سحري.

هل صدق أحد أخبار وينستيد؟ يصرّ ماكدوغال على أن الجميع صدقوها «باستثناء المحررين الحكماء إلا أنهم كانوا يطبعون مقالاته لأن القراء أبدوا اهتماماً بها»[34].

لم تؤثر الشكوك على مسيرة ستون، فقد تسلق سلم التدرج المهني لينتهي به المطاف مديراً عاماً لصحيفته المحلية بعد أن رفض العديد من عروض العمل في المدن الكبيرة مفضلاً البقاء في بلدته الصغيرة حيث يمكن أن تظل الأخبار غريبة. عندما توفي، وبدلاً من أن يشعر الجميع بالسخط تجاه مقالاته الخيالية، مدحه مواطنو مسقط رأسه الممتنين لأنه «وضع وينستيد تحت الأضواء»، وسمّوا جسراً باسمه تخليداً لذكراه – وهو جسر يعبر فوق نهر محلي اسمه ساكر بروك. لم يتجاوز إرث خيالات ستون جسراً ومكانة أبدية في مدفن العظماء. ولكنّ ذلك لا ينطبق على ما يعتبر أحد أبرز خدع القرن التاسع عشر: وهي الرسائل التي قدّمت لنا أسطورة جاك السفاح.

فقدمت لنا جرائم وايت تشابل أحد أكثر رموز الثقافة الشعبية رسوخاً في وقتنا الحالي. إن وصف رسائل هذا السفاح بـ «رمز للثقافة شعبية» هو أمر يثير الاشمئزاز بشكل خاص. فقد استوحيت أفلام، ومسلسلات تلفزيونية، وروايات، وأغانٍ، ومجلات كوميك، ومعارض، ومسرحية استعراضية واحدة على الأقل من هذه الجرائم. في بعض عطل نهاية الأسبوع، يستحيل أن تمشي في أجزاء من غربي لندن من دون أن يقطع طريقك «سياح السفاح جاك»، حيث يخبر ممثلون موظفون– قصصاً مخيفة عن شوارع مضاءة بنور خفيف وظلال أجسام في الضباب– السياح المتشوقين والذين يبذلون قصارى جهودهم ليتجاهلوا حقيقة أن الحانة التي يقفون خارجها قد أصبحت الآن ممتلئة بمبدعي الإعلام الذي يؤدون خدعاً بالدخان.

لكن معظم ما «نعرفه» عن جاك السفاح وضحاياه (هو الاعتقاد الأكيد بوجود قاتل متسلسل واحد مسؤول عن خمس جرائم قتل) مبني على مزيج ضبابي من الحقيقة، والمزاعم، والتقارير المعاصرة حينها والتي لم تكن مستعدة للسماح للحقائق بالوقوف أمام أسطورة جيدة. فنحن نعرف أن كل الضحايا كن بائعات هوى (أثبتت المؤرخة هالي روبينهولد حقيقة مقنعة في كتابها ذا فايف – الخمسة – بأن معظم الضحايا لم يكونوا كذلك: بل يرجح أنهم كانوا مشردين لا أكثر)[35] ولكن هذه المعرفة تتضمن كثيراً من جوهر أسطورة جاك السفاح ذاتها؛ وأبرزها لقبه. يرجع هذا الاسم إلى ثلاثة اتصالات يزعم أن وكالة الأنباء المركزية قد تلقتها في شهري أيلول وتشرين الأول عام 1888: رسالة «عزيزي رب العمل» وبطاقة «جاكي الماجنة» البريدية ورسالة «مرابٍ ومدين». كتبت الرسائل باللون الأحمر وذُيلت بتوقيع «جاك السفاح» («لا تستاؤوا لأنني كشفت اسمه التجاري») وساعدت في تأسيس نموذج لكل فيلم تشويق عن قاتل متسلسل يستهزئ بالشرطة تدور

أحداثه في المطار. فتعطي هذه الأفلام دافعاً لارتكاب الجرائم («تغضبني العاهرات») ووعداً بأعمال وحشية أخرى في المستقبل («سكينتي جميلة وحادة، أريد أن أبدأ عملي حالاً إن سنحت لي الفرصة»)، وتستهزئ بالشرطة لأنها لم تقبض على المجرم («دائماً ما أسمع أن الشرطة قد ألقت القبض عليّ، ولكنها لم ترسلني إلى المحاكمة بعد») وتصف الاحتفاظ المروع بالتذكارات («لقد احتفظت ببعض من الأشياء الحمراء المعتبرة في زجاجة كنت أشرب منها الزنجبيل»).

يجمع كلّ من في العصر الحديث على أن تلك الرسائل كانت من نسج خيال صحفي يهدف إلى إبقاء القصة على قيد الحياة. فكل من تحليل خط اليد، وتحليل الأسلوب واللغة يشير إلى أن هذه الرسائل كتبها شخص واحد، وكل أصابع الاتهام تشير بشكل عام إلى فريد بيست (عامل حر يزعم أنه اعترف بكونه المؤلف بعد عدة عقود، ولكنّ مصدر هذه المعلومة مدار جدال) أو توماس بولينغ الذي كان يعمل في وكالة الأنباء المركزية، وكان مسؤولاً عن إعادة توجيه الرسائل إلى الشرطة، وما يجعله المتهم المرجح هو أنه أعاد توجيه نسخة عن الرسالة الأخيرة بينما فُقدت الأصلية مما يضع الأمر في خانة الأشياء التي يُرجّح أن تكون خدعة.

منذ مطلع القرن العشرين فصاعداً، أصبح التزييف أمراً يثير الامتعاض بالنسبة إلى العاملين في مجال صناعة الأخبار الذي كانت معايير الحرفية فيه تشهد تطوراً ملحوظاً، ولكن ذلك لا يعني أن الأمر اختفى تماماً. فتاريخ الصحافة الحديث يزخر بمراسلين رفيعي المستوى زيفوا بعضاً وربما كلّ ما أرسلوه، وفي كلّ مرة كانوا يطلقون العنان لفيض من محاسبة النفس والوعود بعدم تكرار الأمر مجدداً. هناك عدد كبير من هؤلاء المراسلين أسماؤهم مألوفة: جايسون بلير، وستيفن غلاس، وجانيت كوك التي حصلت على جائزة البوليتزر سنة 1981 عن قصة اختلقتها عن مدمن مخدرات عمره 18 عاماً واسمه جيمي. في كانون الأول عام 2018 طردت المجلة الألمانية دير شبيغل الصحفي كلاس ريلوتياس الحاصل على عدة جوائز والذي نسخ من قصص مزيفة تدور أحداثها في الولايات المتحدة الأميركية المضطربة ليعتمد مرة أخرى على البعد الجغرافي الذي يجعل أمر التأكد من المعلومات أمراً أشد صعوبة.

مرة أخرى دخلت بعض هذه القصص الخاطئة إلى ذاكرتنا الثقافية على نحو يصعب تغييره. يبقى فيلم «ساترداي نايت فيفر» فيلماً أيقونياً في عالم الأفلام والموسيقى وهو شيء لم يتغير كثيراً منذ أن اعترف نيك كون – وهو الصحفي المختص بالموسيقى القادم من أيرلندا الشمالية والذي كتب «الطقوس القبلية لليالي السبت الجديدة» في مجلة النيويورك التي بنيت عليها أحداث الفيلم– بأنه لفّق الأمر برمته. فكما يروي كون، ركب سيارة أجرة ليذهب إلى باي ريدج في بروكلين، حيث كان يخطط للكتابة عن ثقافة الديسكو النابضة بالحياة هناك، وفي اللحظة التي فتح فيها باب السيارة، تقيّأ عليه رجل كان يتعارك مع أحدهم في الشارع، حينها أغلق الباب على الفور، وقرر العودة إلى مانهاتن واختراع تفاصيل ثقافة الديسكو النابضة بالحياة عوضاً عن ذلك. في الحقيقة، كانت شخصية جون ترافولتا، التي تصوّر بشكل حازم حياة الطبقة العاملة لدى الأميركيين ذوي الأصول الإيطالية، مبنية على شاب مواكب لموضة الستينيات اسمه كريس التقى به كون في لندن قبل عقد كامل.

في عام 2016 صرح كون لصحيفة الغاردين بأنه كان متفاجئاً، ولكن ليس إلى حدّ الصدمة، لأن المقال نُشر: «بدا بالنسبة إليّ بمثابة خيال في غاية الوضوح... في الستينيات والسبعينيات، لم يكن الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال واضحاً. فاستخدم العديد من الكتاب في المجلات تقنيات خيالية لكتابة مقالات يزعمون أنها تنقل الحقيقة. سأل بعض المحررين أسئلة صعبة. وفي أغلب الأحيان كان الجواب: 'لا تسأل ولا تخبر أحداً'».

لكن الأمر لا يتعلق دائماً بأن الصحفيين يختلقون الأشياء. فأحياناً، كانت الصحف هي التي تخدع، وهنا يمكننا الحديث عن شهية الصحف المفتوحة تجاه قصص النازيين غير الصحيحة. وإحدى أهم تلك القصص هي مذكرات هتلر سنة 1983، التي كانت عبارة عن محض تزوير، قام به مجرم سخيف، ومهرب للمُخلفات التذكارية النازية، والتي خدعت بالرغم من ذلك دور نشر عظيمة كالمجلة الألمانية شتيرن، والتايمز اللندنية إلى جانب المؤرخ اللامع هيو تريفور روبر. لكن من الظلم أن نغض النظر عن منشورات الدايلي اكسبريس سنة 1972 التي تضمنت الأخبار الباهرة بأنها كانت تملك «دليلاً لا جدال فيه» بأنه عثر على مارتن بورمان رئيس الحزب النازي على قيد الحياة في مكان ما في أميركا اللاتينية. وكان هذا الدليل الذي لا جدال فيه عبارة عن صورة رجل مختبئ لم يكن في الحقيقة نازياً بل أستاذ مدرسة أرجنتيني. إن هذه الحقيقة، لم تمنع من نقل الخبر إلى الاكسبريس – وهو مؤرخ هنغاري–أميركي لا يمكن الاعتماد عليه واسمه الذي لا يمكن تحسينه هو لاديسلاس فاراغو– من نشر كتاب عن بحثه عن بورمان طيلة سنتين.

إن تاريخ الصحف المخدوعة طويل جداً: فهنالك مثال مسلٍ بشكل خاص يرجع أصله (مجدداً) إلى التايمز في تشرين الأول سنة 1856، عندما نشرت الصحيفة اللندنية مقالاً صادماً عن العنف من ولاية جورجيا الأميركية. حيث تحدث المقال عن رحلة قطار طويلة حدثت فيها سلسلة من الجدالات، وحدثت فيها خمس مبارزات مميتة على الأقل، أدت إلى مصرع ستة أشخاص قبل أن يهدأ الوضع. «تحاربوا بمسدسات مونتي كريستو» كما ذكر تقرير التايمز المتأسف على كابوس الوحشية الذي انحدرت إليه الولايات الجنوبية للمستعمرة السابقة. «من بين القتلى الستة كان هناك أبوان وابنهما حيث قتل أحد الأبوين أثناء الدفاع عن ابنه وقتل الثاني أثناء بكائه على ابنه» وبحسب ما ذكر المقال يبدو أنهم ذبحوا الأم لأنها لم تتوقف عن البكاء.

بعد بضعة أيام، كتبت التايمز أن الفظائع يجب أن تثير «قلقاً على مستقبل الولايات المتحدة لأن ما وصفناه أصبح على ما يبدو الحالة الطبيعية».

عندما وصل هذا المقال إلى أميركا بعد أسبوع ونيف، لم تصدق الصحافة الأميركية ما ورد فيه. أشعلت حكاية مسدسات المونتي كريستو مبارزة صحفية بين ضفتي الأطلسي. كانت صحف أوغوستا، وكرونيكل، وسينتينيل، وسافانا ريبابلك من بين الصحف التي ذكرت أن التايمز ساذجة إلى حدّ يفوق الوصف، لأنها نشرت هذه القصة «التي يبدو جلياً مقدار الغباء فيها»[36]. وعنونت النيويورك تايمز بـ «خدعة مدهشة» حيث كتب محررها أن القصة كانت «مليئة بالهراء السيئ والعبثية التي لا تصدق لدرجة أننا نعتقد أنه كان على محرر صحيفة التايمز أن يقدم بعض

الأدلة على سلامته العقلية وهو يكتب هذا الهراء في صحيفته، بدلاً من أن يشهد على سلامة عقل وصدق الراوي».

استمر النزاع بين ضفتي الأطلسي ذهاباً وإياباً وأخذت القصة بعداً سياسياً. وقد دعمت صحيفة التايمز القصة بكل ثبات في معظم الأوقات، وأصرت على صحتها قبل أن تدرك في نهاية المطاف –بعد أن قدم لها قنصل بريطاني في شهر كانون الأول رسالة ساخطة من رئيس سكة حديد جورجيا الوسطى – أن مصدر معلوماتها ربما كان «يهلوس».

لم يصل النزاع حول صحة القصة إلى خواتيمه قبل صيف عام 1857 ولكن، عندما أصر صحفي إنكليزي على تتبع القصة حتى يصل إلى مصدرها، وأجرى مقابلات مع بعض ركاب القطار، أنكروا جميعهم حصول هذا الأمر، وأشاروا إلى أن «مسدسات مونتي كريستو» كانت في الحقيقة تعبيراً محلياً عن زجاجات الشامبانيا أما الزجاجات الفارغة فكان يطلق عليها اسم «الرجال الميتون». وأضاف بوجه جامد إن: «النقاشات التي تدور حول مونتي كريستو في أمتعة العربات ليست بأمر غريب كما فهمت».

لم يكن هذا التبادل عبر الأطلسي أمراً نادراً، ولكنه كان يحصل في الجهة المعاكسة أي لم تكن الصحافة في الولايات المتحدة الأميركية والمملكة المتحدة تفضح بعضها البعض بشراسة بل كانت كلّ منها تعيد نشر ما كتبته الأخرى بكل ببساطة من دون تفكير وتمحيص لتحري الدقة. كان ذلك صحيحاً قبل خدعة القمر التي اختلقها لوك سنة 1835 ولا يزال صحيحاً حتى اليوم، ولكنه يحصل الآن بسرعة الإنترنت. كلّ ما يتطلبه الأمر الآن هو أن يقفز خبر واحد إلى العوالم المشكوك فيها حتى يعيد العشرات نشره قبل أن يتمكن مدققو الحقائق من البدء بأي شيء.

بالطبع، لا تكون كل الأمور التي تخرج عن السيطرة مرتبطة بنية الخداع. فمعظم الأمثلة التي رأيناها حتى الآن تضم بين ثناياها خدعاً صريحة، أو على الأقل بعض التحسينات المقصودة على القصة. لكن في بعض الأحيان لا يوجد أي خدعة على الإطلاق، ومع ذلك، يمكن أن يُبالغ في تقدير مقال حقيقي بسيط لأن كلّ صحيفة تضيف قليلاً من الإثارة إلى القصة في كل مرة تنقل فيها عن صحيفة أخرى.

هذا ما حدث سنة 1910 عندما نظرت صحيفة النيويورك مرة أخرى إلى السماء عندما ظهر مذنب هالي للمرة الأولى في سمائنا منذ عام 1835، وأثار تقرير دقيق تماماً في صحيفة النيويورك تايمز حالة من الذعر.

كان التقرير من ثلاث فقرات فقط في منتصف الصفحة الأولى ومعنوناً بجملة بسيطة: «ذيل المذنب السام». نقل التقرير فكرة أن علماء الفلك اكتشفوا أن ذيل مذنب هالي يحتوي على كمية كبيرة من السيانوجين وذلك عندما طبقوا تقنية تحليل الطيف الجديد. وذكّرنا التقرير أن السيانوجين هو «سمٌّ قاتل»، وأشار إلى أن هذا الاكتشاف قد أثار «جدلاً كبيراً» بين علماء الفلك حول تأثيره على الأرض، وفي نهاية الفقرة الثانية، ذكرت صحيفة النيويورك تايمز بشكل عرضي رأي عالم الفضاء الفرنسي كاميل فلاماريون والذي قال إن «الغلاف الجوي سيتشربه وربما سيخمد كلّ شيء على هذا الكوكب».

الأمر المهم هو أن ذلك التقرير كان دقيقاً تماماً فيما يخص رأي فلاماريون، ولكن التايمز أضافت في الفقرة التالية أن «معظم علماء الفلك لا يتفقون مع فلاماريون» لكن هذا لم يكن كافياً فقد انتشرت الفكرة بين الناس، وإن كان هناك شيء واحد تقوم به البشرية بشكل جيد هو الهلع من دون سبب وجيه.

مع اقتراب موعد وصول مذنب هالي، اقترب معه الخوف من الموت الوشيك. وقد ذكرت تقارير أن الناس كانوا يحكمون إغلاق نوافذهم وأبوابهم كي لا تدخل الأدخنة السامة. وقد ازدهرت مبيعات أقنعة الغاز كما بدأ بعض المحتالين بيع حبوب مضادة لسم المذنب، زاعمين أنها ستحمي الأشخاص من أثر ذيل المذنب الخطير. في 19 أيار نشرت صحيفة التايمز تقريراً آخر ذكرت فيه ردّ فعل الأشخاص في شيكاغو حيث كان العنوان الأساسي للتقرير هو «أقدم بعض الناس على الانتحار» والعنوان الفرعي «بينما أصيب آخرون بجنون مؤقت جرّاء التفكير الزائد في المذنب».

في نهاية المطاف، مرّ المذنب من دون أن يؤثر على حياة الناس على الأرض، باستثناء موت فتاة في السادسة عشرة سقطت عن سطح مبنى في بروكلين أثناء تجمع أقيم لمشاهدة مرور المذنب.

تعد هذه القابلية على المبالغة، والرفض العنيد للتخلي عن فكرة ثبت عدم صحتها جوهر الطريقة التي تقترف الصحافة فيها الأخطاء. فحتى من دون أي تزوير متعمد، سيقوم عقل الصحافي الأشبه بخلية نحل مجتمعة – والمدعوم بآراء القراء بالنسبة إلى ما يحبون قراءته – بتركيز نفسه على فكرة محددة ليس من السهل تغييرها. فلهذا إن تأطير الأحداث، وهو السرد الذي يتحول إلى القصة المنشورة، هو ما يعطي القصة انطلاقة مذهلة، وبعدها تتصارع كل الحقائق التي تنافيها لتثبت أنها محقة.

فعلى سبيل المثال، ربما يذكر القراء البريطانيون الحكاية المروعة الحديثة لقاتل قطط كرويدون، وهو شخص مجنون زعم أنه المسؤول عن قتل وتشويه مئات القطط في منطقة كرويدون جنوب لندن. لقد ظهرت التقارير للمرة الأولى عام 2015 بشأن قاتل القطط، بعد أن قصد بعض القاطنين القلقين في منطقة كرويدون صحيفة الدايلي ميل. انقضّت بقية الصحف على القصة وطرحت أسئلة من قبيل: متى سيرتكب قاتل القطط جريمته التالية؟ لماذا لم تبذل الشرطة الجهد الكافي للقبض عليه؟ وتم تحذيرنا أنه بعد مرور بعض الوقت سيحول هذا القاتل السادي اهتمامه من القطط إلى البشر.

تم اعتبار العثور على بعض القطط المقتولة في أماكن أبعد من كروديون بمثابة أدلة تشير إلى أن «قاتل القطط –الذي يُعتقد بأنه قد قتل أكثر من مئة قطة في السنة الفائتة– بدأ يوسع نطاق عمله»[37] بدلاً من اعتبار تلك الأمثلة دليلاً على أنه يوجد كثير من القطط في بريطانيا وفي بعض الأحيان تموت من تلقاء ذاتها. تحول لقبه إلى «قاتل القطط أم 25، وبعد أن وصلت موجة القتل هذه إلى حدود مانشستر أصبح اسمه ببساطة قاتل القطط. وكانت هذه القصة محط اهتمام وهوس العديد من الصحف البريطانية لأكثر من سنة.

في النهاية، في شهر أيلول سنة 2018- أعلنت الشرطة أنها عثرت على المجرم أو بالأحرى المجرمين. فاتضح أن قاتل قطط كرويدون هو... السيارات والثعالب. تلك هي الحقيقة. فكانت تلك القطط عبارة عن قطط دهستها السيارات وأحياناً قطط أكلتها الثعالب بعد موتها. ولكنّ إثبات ذلك استغرق أكثر من ألفي ساعة من عمل الشرطة، وعلى الأقل ستة آلاف جنيه إسترليني من أجل تشريح جيف القطط.

لا تعد هذه القابلية على إنتاج شيء ما من العدم، وانهمار القصص حتى يصبح من المستحيل إيقافها أمراً جديداً. تشبه ملحمة قاتل القطط هذه بشكل كبير قصة مطلق الغاز المجنون في ماتون التي سبقت ذلك بسبعة عقود، حيث أدى تعبير ميلودرامي في أحد المقالات إلى أسابيع من الذعر في ماتون، إيلينوي وهي المدينة الهادئة.

كان المقال في جوهره بسيطاً للغاية. في الأول من شهر أيلول سنة 1944 – عندما كانت الحرب العالمية الثانية في أوجها والخوف من الاعتداءات النازية أمراً طبيعياً– اعتقدت امرأة اسمها ألين كيرني أنها اشتمت رائحة غير اعتيادية، وعانت بعدها من نوبة ما، بعد أن شعرت بالدوار، واشتكت من شلل في ساقيها. استدعيت الشرطة التي لم تعثر على أي شيء يثير الريبة، وتعافت المرأة خلال نصف ساعة. ولكنّ عندما عاد زوجها إلى المنزل بعد ساعة، اعتقد أنه رأى جسماً ما يتربص قرب المنزل، ولكن مع ذلك لم تستطع الشرطة العثور على أي دخيل مرة أخرى.

في اليوم التالي، نشرت كلّ من مجلة وصحيفة ماتون اليومية القصة على صفحتها الأولى وعنونت «متسكع يُطلق الغازات» وفي عنوان فرعي كتبت «السيدة كيرني وابنتها كانتا أولى ضحاياه».

بإمكانكم رؤية حيلتهم بوضوح أليس كذلك؟ لم يحولوا شكاً مبهماً إلى خطة محبوكة فحسب – وهي أن دخيلاً ما قد ملأ بيتاً بغاز مخدر بهدوء، كي يستطيع دخول المنزل عندما يكون سكانه غائبين عن الوعي– بل أضافوا عبارة «أولى ضحاياه» فقد أعدوا كلّ من يقرأ ليتوقع مزيداً من الهجمات.

في الحقيقة، كان توقعاً يحمل في طياته بذور تحقيقه. فكل من أصيب بحالة من الإغماء في الأسابيع الماضية، أصبح فجأة مشتبهاً بأنه ضحية سابقة لمطلق الغاز. فقد نشرت قصصهم التي نقلتها المجلات والصحف اليومية لتعزيز فكرة وجود شخص خطير حر طليق، وقد توالت التقارير في الأيام التالية، وفي غضون أسبوع، تبنت العديد من الصحف في المنطقة تلك القصة، وجميعها اعتبرت القصة مؤكدة، واعتبرت أن التقارير الأصلية صحيحة.

توالت العناوين: «أخصائي التخدير المجنون يعود مجدداً! لقد زار منزلين خلال الليل» و«ست ضحايا جدد ينضمون إلى لائحة ضحايا مطلق الغاز، وهم صبي وخمس نساء» وقد كانت التقارير بقدر إثارة تلك العناوين. في العاشر من أيلول، وصفت شيكاغو هيرالد–أميركان المشاهد في ماتون: «في الوقت الذي كان فيه سكان لندن تحت قصف جوي طويل الأمد، يعاني المواطنون في ماتون من الارتباك والذهول بسبب تكرر هجمات أخصائي التخدير المجنون الذي رش الغاز

الذي يفتك بالأعصاب في 13 منزلاً، وتسبب في غياب 27 من الضحايا مجهولي الهوية عن الوعي»[38].

حتى في الأيام التي لم ترد فيها تقارير عن هجمات، استمر الحديث عن القصة الأساسية، فعلى سبيل المثال، غزا العنوان التالي الصحف والمجلات اليومية: «ملاحظة: لم يقم مطلق الغازات بأي هجوم الليلة».

عند هذه المرحلة، عم الذعر شتى أرجاء المدينة. وخرجت الحشود إلى الشوارع عندما قال أحدهم إنه اكتشف هوية مطلق الغاز وبطبيعة الحال، شم شخص ما بعد ذلك رائحة غير عادية، وأصبح الكثيرون في الحشد مقتنعين أنهم قد تعرضوا لإطلاق غاز. تم نقل بعض الأشخاص إلى المستشفى، وارتبكت قوات الشرطة المحلية الصغيرة.

في هذه المرحلة؛ أي بعد أسبوع ونصف من الهجوم الأول بدأت السلطات – التي كانت قد قبلت التقارير سابقاً على أنها حقيقية – تتراجع ووصفت المخاوف علناً بأنها «هستيريا جماعية». والآن بعد أن تغيرت القصة، تغير سلوك الصحافة حيث بدأوا يسخرون من الذعر بشكل علني، وأجروا مقابلات مع علماء النفس الذين كانوا يشرحون كيف انخدع الجميع بـ «بمزاعم مطلق الغاز». في محاولات صراع إلقاء اللوم، ألقيت مسؤولية الهستيريا الجماعية على الغازات الكيميائية التي تطلقها مصانع قريبة، وتم تجاهل دور الصحافة في إشاعة الذعر بين الناس.

في النهاية، كلّ ما تقدم كان محدود المسؤولية لو صدق القول الشائع إن كلّ ما تنشره الصحف اليوم ينسى غداً، ولكنّ الحقيقة أن كلّ ما تنشره الصحف اليوم هناك احتمال كبير أن يبقى في الذاكرة لوقت طويل وكما يقول القول الشائع: الصحف هي المسودة الأولى للتاريخ. ولكنّ المشكلة أن وقتاً طويلاً يمر في العادة قبل كتابة المسودة الثانية، هذا إن كتبها أحد أصلاً.

يمكننا أن نرى ذلك جيداً، وبشكل مثير للقلق في مقال صحفي طريف خرج بعض الشيء عن السيطرة. قد تكون خدعة القمر العظمى أشهر كذبة في تاريخ الصحافة الأميركية (لأسباب غير واضحة، وفقاً لقواعد الصحافة الأميركية، يجب أن يكون التاريخ دائماً «قصصياً» فلا يمكنه أن يكون فقط تاريخاً عادياً، ولكن ما ينافس خدعة القمر العظمى على جائزة أشهر كذبة هي عمل أحد أبرز الشخصيات في التاريخ القصصي للصحفيين الأميركيين: إتش إل مينكن.

يمكن اعتبار مينكن أحد أكثر الكتاب والمحررين الذين أشيد بهم في النصف الأول من القرن العشرين، فقد كانت كتاباته شديدة الانتقاد وشرسة في ما يتعلق بمجالي المجتمع والسياسة بشكل عام، وعلى حد وصف النيويوركر له كان «الصحفي الأكثر تأثيراً في أميركا وقتها»[39]. ولا تزال صحيفة بالتيمور صن تحفر اقتباساً له على حائط مبناها (يمكنكم رؤية الاقتباس على الحائط بوضوح وبطريقة تثير الارتباك إن شاهدتم الموسم الأخير من مسلسل ذا واير والذي تحدث عن اختلاق الصحافة للحقائق)

قبل أن أنسى لا بد من الإشارة إلى أن مينكن كان شخصاً أحمق إلى أقصى حدّ، شخصاً يسير بعكس تيار الرأي العام بتعجرف وغرور نخبوي، وفوق كلّ هذا كان عنصرياً إلى أقصى الحدود؛ فهو يكره الفقراء، والسود، واليهود. في الحقيقة هذه الصفات ليست مرتبطة بما سيلي من أحداث، ولكن لا ضير في ذكرها. وخاصة لأن الصحفيين المخادعين اللذين سيركز عليهما هذا الفصل كانا شخصين محترمين جداً بالنسبة إلى معايير زمانهما. ولكن لم يكن مينكن كذلك؛ بل كان رجلاً مروعاً.

أياً يكن الأمر، في شهر كانون الأول سنة 1917 عندما بدأت نيران الحرب العالمية الأولى تشتد سعيراً نشر مينكن عموداً لطيفاً ومسلياً عن تاريخ أحواض الاستحمام في الولايات المتحدة بمناسبة ما وصفه بـ «الذكرى المهملة» لقدوم أحواض الاستحمام إلى أميركا، حيث تم تركيب الحوض الرائد من قبل تاجر مغامر اسمه آدم ثومبسون داخل منزله في مدينة سينسيناتي في شهر كانون الأول سنة 1842.

لقد كان هذا العمود (كما سيعترف مينكن بيأس بعد ثماني سنوات) «محض هراء» و«نسيج من الحماقات»[40]. فما من أحد اسمه آدم ثومبسون، ولم تلهمه مقدمة السيد جون راسل بشأن أحواض الاستحمام في إنكلترا سنة 1828 (والتي كانت غير حقيقية)، ولا تقبل الأميركيون بشكل متأخر فكرة أحواض الاستحمام بعد أن ركّب الرئيس ميلارد فيلمور واحداً في البيت الأبيض بشكل مثير للجدل (فكان هذا محض هراء أيضاً). فقد كتب مينكن ذلك على سبيل الفكاهة لا أكثر، «ليخفف من وطأة أيام الحرب»، ولأنه كان محباً شديداً للحضارة الألمانية ومعارضاً لتدخل الولايات المتحدة الأميركية في الحرب العالمية الأولى، وكرد على منعه من الكتابة، بالإضافة إلى كثرة التقارير الصحفية الحربية المترعة بالأكاذيب، فكما كتب لاحقاً عن سنوات الحرب: «ما هي نسبة الأخبار الصحيحة التي قرأها المتابعون بنهم كبير عن العالم حينها؟ على الأرجح أنها لا تتجاوز واحداً بالمئة[41] (لقد كان رأيه هذا شديدة الوطأة على المراسلين الميدانيين الذي غطوا الأحداث من ساحات المعارك، ولكن كما سنرى في الفصل التالي لم تكن هذه الاتهامات من دون أسس).

كانت خدعة أحواض الاستحمام طريقة لينفّس عن غضبه ليس إلا. ولكنّ لسوء الحظ، أتقن صنع هذه الخدعة بطريقة مثالية. كان المقال مليئاً بتفاصيل لا تعد ولا تحصى، ما أعطاها صدقية شكلية وجاذبية، فقد سار وفقاً للمنهجية السليمة التي تتبعها الأحداث التاريخية؛ كالقافز الذي يتبع مساراً متعرجاً شبيها بالذي يسلكه شخص ثمل. فقد أخبر القراء زاعماً أن حوض ثومبسون مصنوع من «خشب الماهوجني النيكاراغوي» المبطن بالرصاص و«يبلغ وزنه 1750 باوناً»[42]. أثار حوض الاستحمام جدالاً على الفور، خوفاً من أن يسبب «حمى السل أو حمى روماتيزمية أو التهاب الرئة إلى جانب سائر الأمراض المعدية»؛ وبالفعل حظّر الاستحمام بالحوض في كلّ من فيلادلفيا وبوسطن؛ وفرضت ولاية فيرجينيا ضريبة على هذه الأحواض. وهاجم الخصوم السياسيون للرئيس فيلمور الرئيس بحجة أن تركيبه أول حوض استحمام في البيت الأبيض زاعمين أن أفعاله المرتكزة على الاستحمام بدت فرنسية بطريقة محرجة.

في البدء، كان مينكن راضياً عن العمود ولكنّ (كما كتب في اعترافه سنة 1926 تحت عنوان تأملات حزينة) «لم يلبث شعوري بالرضى أن تحول سريعاً إلى خوف وفزع». لم يدرك الناس أنها كانت مجرد فكاهة، فأعادت صحف نشر المقال أو أعادت كتابته، وأخذ القراء يكتبون له بعد أن أخذوا مقاله بكل جدية لدرجة أنهم قدموا أدلة تدعم تاريخه الخيالي تماماً؛ وهذا مثال آخر عما سماه ويليام غريغز بـالكذب العفوي. «فبعد فترة وجيزة بدأت أصادف حقائقي المستحيلة في كتابات رجال آخرين، دخلت هذه الحقائق إلى مجلات ثقافية، واستشهد بها في الكونغرس، وعبرت المحيطات، ونوقشت بجدية في إنكلترا وشتى أرجاء القارة العجوز، وفي نهاية المطاف، وجدتها في مراجع نموذجية».

في 23 أيار سنة 1926، نشرت ثلاثون صحيفة اعتراف مينكن بأن كلّ ما ذكره زائف، إلا أن ذلك العمود لا يزال مثالاً كلاسيكياً في مجال دراسة الهراء، لملاحظاته الموجهة إلى قابلية مجال صناعة الأخبار على ارتكاب الأخطاء. فكتب مينكن: «بما أنني صحفي ممارس من سنوات، غالباً ما كنت على اتصال وثيق بالأحداث التي دخلت التاريخ، لا يمكنني تذكر وقت أو مكان نشر أو تصديق ما كتبت. في بعض الأحيان يخرج جزء من الحقيقة، ولكنها لا تخرج كلها على الإطلاق، وما خرج بالفعل نادراً ما كان يفهم بوضوح».

كان ذلك الاعتراف موجزاً جيداً عن الواقع. ولكنّ ما لم يستطع مينكن معرفته أثناء كتابته لهذه الكلمات هو أن هذه السلسلة كلها، ستصبح مثالاً قوياً عن مجال صناعة الأخبار. لأن أكثر ما يثير الاهتمام في خدعة مينكن عن حوض الاستحمام، ليس أن الناس صدقوها، وأخذوا يكررونها، فذلك يحدث بشكل عمودي كما سبق لنا وذكرنا. بل ما جعلها لحظة استثنائية في تاريخ الهراء هو الآتي: لم يكن لاعتراف الكاتب في عدة صحف بأنه قد كذب أي تأثير على وقع انتشار الشائعات.

فبشكل مفاجئ، وبالرغم من محاولة مينكن المتأخرة ليُرجع هذا الجني إلى القمقم، رفضت حكاية آدم ثومبسون رائد أحواض الاستحمام الانصياع، فاستمر الناس بإعادة نشر الحقائق الزائفة غير مكترثين وغافلين عن حقيقة كونها محض هراء.

بعد عقود من اعتراف مينكن، كتب مستكشف القطب الشمالي فيلهلمور ستيفانسون في كتابه مغامرات خاطئة لائحة ناقصة تتضمن أكثر من 31 مرة تم فيها تكرار هذه الحقائق الزائفة من قبل مصادر شهيرة خلال السنوات العشر التي تلت اعتراف مينكن[43]. وشمل ذلك صحفاً أميركية مثل النيويورك تايمز، وبالتيمور ايفنينغ صن، وصحيفة كليفلاند، ونيويورك هيرالد (عدة مرات)، وصحف أجنبية مثل صحيفة أستراليا ايج في ملبورن، والنيو ستايتسمان في لندن، وأكاديميين كأستاذ جامعي في الطب في جامعة هارفرد، ووزير الصحة في نيويورك؛ لربما تكون وكالتا الحكومة الأميركية هما الأكثر إثارة للتعجب فقد كانت إحداهما هي إدارة الإسكان الاتحادي التي أضافت تلك القصة إلى ورقة حقائق أرسلتها إلى مختلف الصحف في شتى أنحاء البلاد. ولعل أبرز من تصدر لائحة إعادة نشر الخبر بعد اعتراف مينكن بكذبه صحيفة البوسطن هيرالد التي نشرت قصة أحواض الاستحمام على أنها حقيقة واضحة في 13 حزيران سنة 1926 – بعد مرور ثلاثة

أسابيع فقط من نشرها مقال مينكن «تأملات حزينة» معترفاً فيها أن ما ذكره هو من بنات أفكاره وكذبة تفتقت عنها قريحته.

استمر الوضع على هذا المنوال، ولم يبدُ أن هناك بصيص أمل في التخلص من قطعة الهراء الصغيرة هذه والتي سكنت عقول العامة.

بعد عقود عدة، شق هذا الهراء طريقه فوصل إلى قائد البلاد الحرة. ففي سنة 1951، أثناء مقابلة[44] للرئيس هاري ترومان مع جون هيرسي من صحيفة النيويوركر (نشرت هذه المقابلة في خمسة أعداد منفصلة تبعاً لعرف هذه المجلة الذي لا يكترث بحدود الكلمات الذي تقيم له وزناً صحف ومجلات أقل شأناً) فقد كرر الرئيس كذبة تركيب فيلمور أول حوض استحمام في البيت الأبيض.

وبحسب ما ذكر هيرسي لقد تدخل أحد معاوني الرئيس موضحاً أن قصة الحوض لا تعدو كونها هراء كتبه مينكن. لم يتقبل الرئيس فوراً هذه الحقيقة وبحسب كلمات هيرسي: «بدا الرئيس متردداً في نفي ما كان يعتقده صحيحاً».

أصر ترومان أن الأمر يجب أن يكون صحيحاً، لأنه «قرأ مقالاً للجمعية الطبية الأميركية ذُكر فيه أن الأبخرة المنبعثة عن الحوض كانت تشكل خطراً على صحة الرئيس». حسناً، فهذا رئيس الولايات المتحدة الأميركية يصر على أنه رأى بأم عينه وثيقة تاريخية لا وجود لها لأن الشيء الذي تتكلم عنه لم يحدث. ولكنّ المساعد وضّح للرئيس: «حتى هذه المعلومة اختلقها مينكن» لكن مينكن لم يختلقها لأنه أصلاً لم يذكرها في مقاله، بل كانت كذبة مبتكرة تفتقت عنها قريحة أقوى رجل في العالم.

أدهش هذا التوضيح الرئيس. «إنني متأكد جداً أن أولئك الذين يعملون في الجمعية الطبية الأميركية لم يعتقدوا بأن موضوع حوض الاستحمام كان خدعة لا أكثر». هذا ما قاله الشخص الوحيد في التاريخ الذي أمر بشن هجوم نووي.

في النهاية أنهى المساعد كلامه بقوله: «أشعر أيضاً يا سيدي أنك سلبت مني الحقيقة».

بالطبع ليس أمامنا سوى ما رواه هيرسي عن هذا الحديث، وربما يكون قد عدّل الحديث المنسوب شأنه شأن كلّ كتاب المقالات الذين تحدثنا عنهم في هذا الفصل. (فبصراحة تامة تبدو بعض أجزاء هذا الحوار مخططة من قبل) ولكنّ بغض النظر قررت قبوله على ما هو عليه – لأن الناشر هو صحيفة النيويوركر – وفي نهاية المطاف عليك أن تثق بمصدر ما. فلهؤلاء الأوغاد عدد كبير من مدققي الحقائق يفوق عدد الرسائل الموبخة التي أرسلها إليّ ناشري بشأن ضرورة التقيد بالمواعيد النهائية.

أياً يكن الأمر، بعد سنة من نشر مقابلة النيويوركر هذه، ألقى ترومان خطاباً في فيلادلفيا، وروى مرة أخرى قصة حوض الاستحمام مرة أخرى[45]. فصدق الجميع أنه صدق أمراً حقيقياً

وتأكدوا من صحة ما نقله هيرسي، وما نشرته واحدة من أكثر الصحف احتراماً في البلاد.... يبدو أن كلّ ذلك لم يكن كافياً ليزعزع ارتباطه بتلك القصة.

حتى الآن وبعد مرور عقود على الحادثة، استمرت خدعة حوض الاستحمام بإعادة إنتاج ذاتها بمرح عبر الأجيال. لدرجة أنها دخلت القرن الحادي والعشرين بقوة؛ ففي سنتي 2001 و2004 نشرت الواشنطن بوست مقالات تتعامل مع الخدعة على أنها تاريخ حقيقي قبل أن تضطر محرجة أن تنشر نفياً لها[46].

يبدو أن بعض الحقائق جيدة للغاية لدرجة أننا لا يمكن أن نسمح لها بأن تكون حقيقية.

ماذا يعني ذلك في مجال صناعة الأخبار وهدفها النبيل للعثور على الحقيقة؟ قد يكون مينكن قد وصف الأمر بأحسن صورة في مقاله اللاحق الذي كتبه في شهر تموز سنة 1926 بعد أن ألهمته حماقة صحيفة بوسطن هيرالد. كانت كلماته انعكاساً مريراً لواقع الصحافة بشكل عام، ولكنه أيضاً أصاب كبد الحقيقة بالنسبة إلى فكرة أساسية وهي أن الأكاذيب تملك ميزات أصيلة على الحقائق لأنها ببساطة غير محدودة بقبضة الواقع الممل.

كتب مينكن: «ما يعيب الحقيقة هي أنها غير مريحة بشكل أساسي وغالباً ما تكون مملة. يبحث العقل البشري عن شيء أكثر تسلية ومداعبة، لا أعلم ما هي القصة الحقيقية وراء تاريخ حوض الاستحمام؛ فالتنقيب عنها سيكون عملاً مريعاً غالباً ما ستكون نتيجته سلسلة من التفاهات.

«لقد كان الخيال الذي اختلقته سنة 1917 على الأقل أفضل من ذلك»[47].

الفصل الرابع

كذبة بحجم بلد

قليلة هي المناظر الطبيعية التي يفوق جمالها جمال جبال كونغ، فهي سلسلة جبلية عظيمة تشطر غربي السنغال قبل أن تتابع امتدادها عبر مالي حتى أقصى شمال غينيا. على عكس المشاهد الطبيعية المحيطة بها، تبدو قمم الجبال التي تلوح في الأفق ملونة بالأزرق الجذاب، الأمر الذي يرسم أفقاً خلاباً بالرغم من كونه قاحلاً وقاسياً. فهنا تجد أنهار المنطقة – وأبرزها نهر النيجر الواسع والمتعرج – أصلَها الذي يتمثل بالمياه الباردة التي تتدفق من الثلوج الذائبة في سيول هادرة بين أخاديد مسننة من المرو. لا تقدم هذه الأنهارُ المياهَ التي تهِبُ الحياة إلى النباتات في الأسفل فحسب، بل تحمل معها أيضاً غبار الذهب إلى الأسفل، وطيلة قرون نقلت ثروة هائلة وسببت في الوقت ذاته خلافات كبيرة بين أولئك الذين سكنوا في ظل جبال كونغ.

تمتد سلسلة جبال كونغ على طول ألف ميل عابرةً بوركينا فاسو، وغانا، وتوغو، وبينين، وصولاً إلى نيجيريا حيث السهول المنخفضة والهضاب المتموجة بلطف التابعة لهذه البلدان التي تشطرها على حد ما وصفه أحدهم في القرن التاسع عشر بـ «كتل متصاعدة من الغرانيت... فهي تنتصب على الأرض مثل الكاتدرائيات والأسوار الدفاعية المنخفضة المتهدمة؛ كجلمود ذي أبعاد هائلة؛ كأهرامات يبلغ ارتفاعها ألف قدم، ومخاريط منعزلة ترتفع كقوارير خشبية عملاقة»[48]. وهي تواصل امتداها، إلا أنها لا تتابع نحو الساحل الجنوبي المنحني بل تنعطف نحو الداخل، وفي نهاية المطاف، تلتقي جبال كونغ بسلسلة جبال ضخمة أخرى في أفريقيا وهي جبال القمر الشرقية (حيث توجد الينابيع التي تشكل مصدر مياه نهر النيل) فتندمجان معاً لتشكلا حزاماً وحيداً من الصخر لا يمكن اجتيازه يتشعب في القارة بأكملها، ويفصل الشمال عن الجنوب.

هممم. حسناً إذن. دعنا نتوقف هنا قليلاً.

قد تكون لديك بعض الأسئلة في هذه اللحظة. وخاصة إن كنت – على سبيل المثال – تعيش في أي من تلك البلدان التي ذُكرت سابقاً أو إن كنت تملك معرفة أساسية بالجغرافيا. قد تكون أسئلتك مثل الآتي –وقد لا تقتصر عليها –:

«ماذا؟» و«ما الذي تقوله؟» و«لا توجد هنالك أية جبال، ما الذي تتكلم عنه؟».

وجوابي عن هذه الأسئلة ببساطة هو: إن لم تكن هنالك أية جبال، فلماذا ظهرت سلسلة جبال كونغ على جميع خرائط أفريقيا تقريباً في القرن التاسع عشر وحتى في القرن العشرين؟ ولماذا هنالك عدة توصيفات لصروحها الغرانيتية الصاعدة وظروفها القاسية من قِبل مستكشفين أوروبيين زعموا أنهم ذهبوا إلى تلك المناطق؟ حسناً من ستصدقون: بضعة رجال بيض البشرة أم جميع سكان تلك المنطقة؟ أعتقد بأن الجوابَ عن ذلك السؤال واضحٌ.

لكن السؤال الضمني هو سؤال صحيح ومدهش: كيف تشبثت جميع القوى في أوروبا وأميركا لقرن ونيف بإيمان ثابت بوجود سلسلة جبال ضخمة لا وجود لها؟ إنها جبال! لا توجد كمية كبيرة من الغموض في الجبال. فإما أن تكون موجودة وإما لا تكون. لا يزال الجواب عن هذا السؤال لغزاً بحد ذاته، ولكنه سؤال يوضّح كيف نخطئ معظم الوقت في أمور كثيرة.

سيوضح هذا الفصل أيضاً أننا لم نقضِ وقتاً طويلاً من تاريخنا في اختراع أكاذيب جنونية عن أحداث لم تحدث في العالم فحسب، بل قمنا بعمل ممتاز بالنسبة إلى اختراع ترهات عن العالم ذاته؛ فمن الجبال الوهمية، إلى البلدان الخيالية، والحكايات المستبعدة للغاية عن أراضٍ بعيدة، استغل كاذبو التاريخ بمرح حقيقةَ أنه من الصعب جداً التأكد مما يقوله أحد ما عندما يصف الحياة على الجانب الآخر من الأرض.

يُعدُّ تاريخنا المؤلَّف من ترهات جغرافية مثالاً عن حواجز الجهد ومكانس المعلومات التي تظهر على نطاق واسع، فبالنسبة إلى القسم الأكبر من وقت البشر على هذا الكوكب، كان السفر لمسافات بعيدة عمليةً بطيئةً وخطرةً ونادرةً؛ كثيرون هم الأشخاص الذين لم يسافروا لمسافة بعيدة جداً عن مكان ولادتهم، وقد ترافق ذلك مع عدم وجود الطائرة أو القمر الصناعي.

بالنظر إلى ما تقدم، يصبح من المعقول والمقبول أن يكون فهمُنا للكوكب الذي نعيش فيه ضبابياً بعض الشيء. فلم يملك صنّاع الخرائط كثيراً من المعلومات كي يستخدموها، وغالباً ما اضطروا إلى الارتجال لملء المساحات الفارغة (حتى عندما كتبوا للأسف «هنا توجد تنانين» في المناطق المجهولة والتي تبين أنها هراء محض)[49].

مع أن نقص المعلومات يُعد عذراً، لا تزال الطرق التي مُلئت بها الفجوات في معرفتنا بالخيالات الجامحة والسخيفة تخبرنا كثيراً عن كيفية انتشار الترهات.

هذا ما نعرفه عن جبال كونغ: بدأت هذه المسألة السخيفة عام 1798 عندما تباهَت خريطة جيمس رينال بتطور الاكتشاف والتحسين في جغرافيا أفريقيا الشمالية[50]. كان رينال أول من وضع سلسلة جبال ضخمة في غرب أفريقيا وأسماها «جبال كونغ». بعد ذلك بسرعة كبيرة سار الجميع على خطاه، وقرروا أن ما ذهب إليه صحيح.

وطيلة قرن بعد ذلك، تضمنت معظم الخرائط المهمة لأفريقيا التي أُنتجت في أوروبا وأميركا جبال كونغ (وقد بلغت نسبتها 80 بالمئة حسب الدراسة الأكاديمية الحاسمة لظهور سلسلة

الجبال هذه واختفائها اللاحق)[51] وأدلى العديد من مستكشفي الإقليم أنهم رأوا أو حتى تسلقوا هذه الجبال بأنفسهم بالرغم من حقيقة أنها غير موجودة.

هنا يوجد تفصيل من خريطة جيمس رينال سنة 1798 حيث تمتد جبال كونغ تماماً في مكان عدم وجودها. (رينال، جيمس. خريطة تُظهر تطور الاكتشاف والتحسين في جغرافيا أفريقيا الشمالية.]لا يوجد ذكر لمكان النشر أو اسم دار النشر[. 1798 مكتبة الكونغرس https://www.loc.gov/item/2009583841/.)

ما يثير الاهتمام هو أن رينال لم يكن صانع خرائط عادياً يدور حول الأنهار والجبال للتسلية ويكتفي بذلك قبل أن يذهب إلى الحانة. في الحقيقة، لقد اعتُبر الأفضل في مجال رسم الخرائط حينها، وتمثلت إحدى مهاراته الرئيسة باستخدام معرفته بمبادئ الجغرافيا والجيولوجيا ليفهم التقارير المختلفة – المتناقضة غالباً – التي يقدمها المستكشفون. في الواقع، قد يكون ذلك هو ما أوقعه في الخطأ.

في ذلك الوقت، لم يكن كثير من الأوروبيين قد توغلوا في القارة الأفريقية، كان ذلك قبل عقود من بدء التنازع الاستعماري على أفريقيا، ولأكون صريحاً تماماً، كانت القلة القليلة من المستكشفين الذين توغلوا في القارة تجهل تماماً ما تفعل. نتيجة لذلك، لم تهتم العديد من خرائط تلك الحقبة بما هو أبعد من شمال أفريقيا وبعض المناطق الساحلية. ومَن توغلوا في وسط أفريقيا، إما غادروها خالي الوفاض وإما رشوها بمعالم جغرافية عشوائياً في حين قام آخرون برسم لوحات جميلة للفيلة.

أتى اختراع رينال لجبال كونغ لأنه أعطى اهتماماً مبالغاً لتعليق عديم الجدوى من أحد المستكشفين الذين زعموا أنهم زاروا الإقليم وملأ بعدها الخريطة بتلك النتائج البائسة، وذلك المستكشف الذي نحن بصدده الآن هو مانغو بارك؛ وهو الرجل الاسكتلندي الأنيق صاحب المذكرات التي سيفشل ريتشارد آدم لوك بإثبات عدم صحتها بعد عدة عقود، حينها اعتقد الجميع بأن بارك ماتَ في أثناء رحلة استكشافية هدفها أن يجد مصدر نهر النيجر حتى عاد بشكل مفاجئ سنة 1797 بعد عدة سنوات من اختفائه. لم يجد مصدر نهر النيجر تماماً، ولكنه لحق مساره الفريد لعدة مئات الأميال.

كانت قصص بارك عن رحلاته تجذب اهتمام القراء واختير رينال ليوضحها من خلال الرسوم، وهنا زُرعت بذرة الخدعة عندما قال بارك في نقطة ما من حديثه: «باتجاه الجنوب الشرقي ظهرت جبال بعيدة جداً رأيتها سابقاً من مرتفع قرب مارابو حيث أخبرني الناس بأن هذه الجبال تقع ضمن مملكة كبيرة وقوية اسمها مملكة كونغ...»[52].

يرجح أن بارك كان صادقاً، فقد كان في مكان ما بالقرب من باماكو في مالي حينها، وبالفعل كانت هنالك مملكة قوية اسمها كونغ على مقربة منها (إمبراطورية كونغ التي كانت عاصمتها كونغ أيضاً؛ وهي مدينة تقع ضمن حدود الكوت ديفوار في هذه الأيام)، وتضمُّ بعضُ الأراضي المرتفعة في هذا الإقليم عدداً من الهضاب الصخرية المرتفعة التي يسميها الجيولوجيون جبالاً مفردة (إنسلبيرغ)– والتي يمكن لمن ليس لديهم تعريف صارم للجبال أن يطلقوا عليها اسم جبال.

لكن ما هو مؤكد أنه لا وجود لسلسلة جبال تمتد لأميال ولا يمكن عبورها، وكما ستلاحظون لم يتحدث بارك عن سلسلة جبال بل تحدث عن «جبال بعيدة جداً»، ثلاث كلمات ليست كافية للتعبير بدقة عما قصده، ولكي نكون منصفين لا يمكننا لومُه، ففي اليوم الذي تلى تصريحه بشأن هذه الجبال سرق قطاع الطرق حصانه وثيابه وتركوه في مكان مهجور تحت أشعة الشمس الحارقة.

تلك ليست حادثة تساعدك على توضيح ما رأيته من جبال.

ولكن تمسك رينال بما ذكره بارك عن جبالٍ ما في مملكة كونغ وعمل عليها بمفرده، وقام بذلك لسبب بسيط جداً؛ وهو أن هذه المعلومة أكدت نظرية له في جغرافيا الحيوانات وهي: لماذا يتبع نهر النيجر مساراً ملتوياً بشكل محيّر؟ فقد كان مسار نهر النيجر يخالف المسارات الطبيعية التي تسلكها الأنهار على نحو تتمثل فيه بالتدفق نحو أقرب بحر، وبدلاً من ذلك سلك درباً داخلياً ملتوياً بطول 2600 ميل حتى بلغ حدود الصحراء الكبرى قبل أن ينعطف بشكل حاد متجهاً صوب خليج غينيا. وهذا ما أثار حيرة الناس طويلاً. عندما صنع رينال خريطته لم يكن متأكداً إلا من شيء واحد ألا وهو أن نهر النيجر نهر كبير زاعماً معرفتَه بمنبعه ومصبه، واستنتج رينال (الذي لم يكن غبياً في الحقيقة) أن منبع النهر لا بد أن يكون سلسلة جبال طويلة توفر حاجزاً مادياً طبيعياً يحرف مساره نحو الشرق بعيداً عن البحر. لم يكن أول من فكر في ذلك، فقد افترض وجود عدة جبال

ضخمة في الإقليم، وأضيفت إلى خرائط القرن السابع عشر، ولكنّ معظم خرائط أواخر القرن الثامن عشر أزالتها.

لذا، استغل كلمات بارك وضمّها إلى نظريته وناقش فيها أنها: «تثبت وجود حزام من الجبال التي تمتد من الغرب إلى الشرق بين دائرتَي العرض 10 و11 شمالي خط الاستواء من خلال مسارات الأنهار العظيمة وأمور أخرى»[53]. لاحظْ هنا بأنه لم يستعمل كلمة «تشير» أو «تدل» أو «تجعلني أخمن»، بل استخدم على الفور «تثبت».

بكلمات أخرى؛ جمعَ رينال المعلومات وصنعَ سلسلة جبال هائلة، وكان للأمر أن يتوقف عند هذا الحدّ ويعتبر خطأ هامشياً في سلسلة الأخطاء الكارثية في التاريخ، ولكن سار الجميع على خُطا رينال بصفته صانع خرائط ممتازاً، ولم يُرد أي منهم أن يبدو أحمق من خلال إغفال جبال كونغ من خرائطه، وكان أولُ المقلدين من دون تمحيص آرون أرو سميث مع خريطته الجدية التي أطلقها عام 1802، ولم يقتصر على رسم جبال ليس لها وجود بالاستناد إلى ما رسمه رينال، بل جعلها أيضاً تمتد عبر نصف القارة، وأنشأ جزءاً من جبال القمر مشكلاً ما سبق الإشارة إليه ألا وهو سد طبيعي هائل لا يمكن تجاوزه ويمتد عبر نصف قارة أفريقيا (يجدر بالذكر أن كلّ جزء من ذلك الوصف الافتتاحي المبهرج قد أُخذ بشكل مباشر من توصيفات معاصرة للقرن التاسع عشر لهذه الجبال الوهمية).

يُعد عمل أرو سميث مثالاً رائعاً لمدرسة في الخرائط الأفريقية تتبع نهج «غطها واترك المنتصف فارغاً»؛ كان سيكافَأ على اعترافه بحدود معرفته لو أنه لم يرسم خطاً فاصلاً كبيراً من الصخور الوهمية عبر القارة بأكملها كمحرر يشطب تشبيهاً لا فائدة منه.

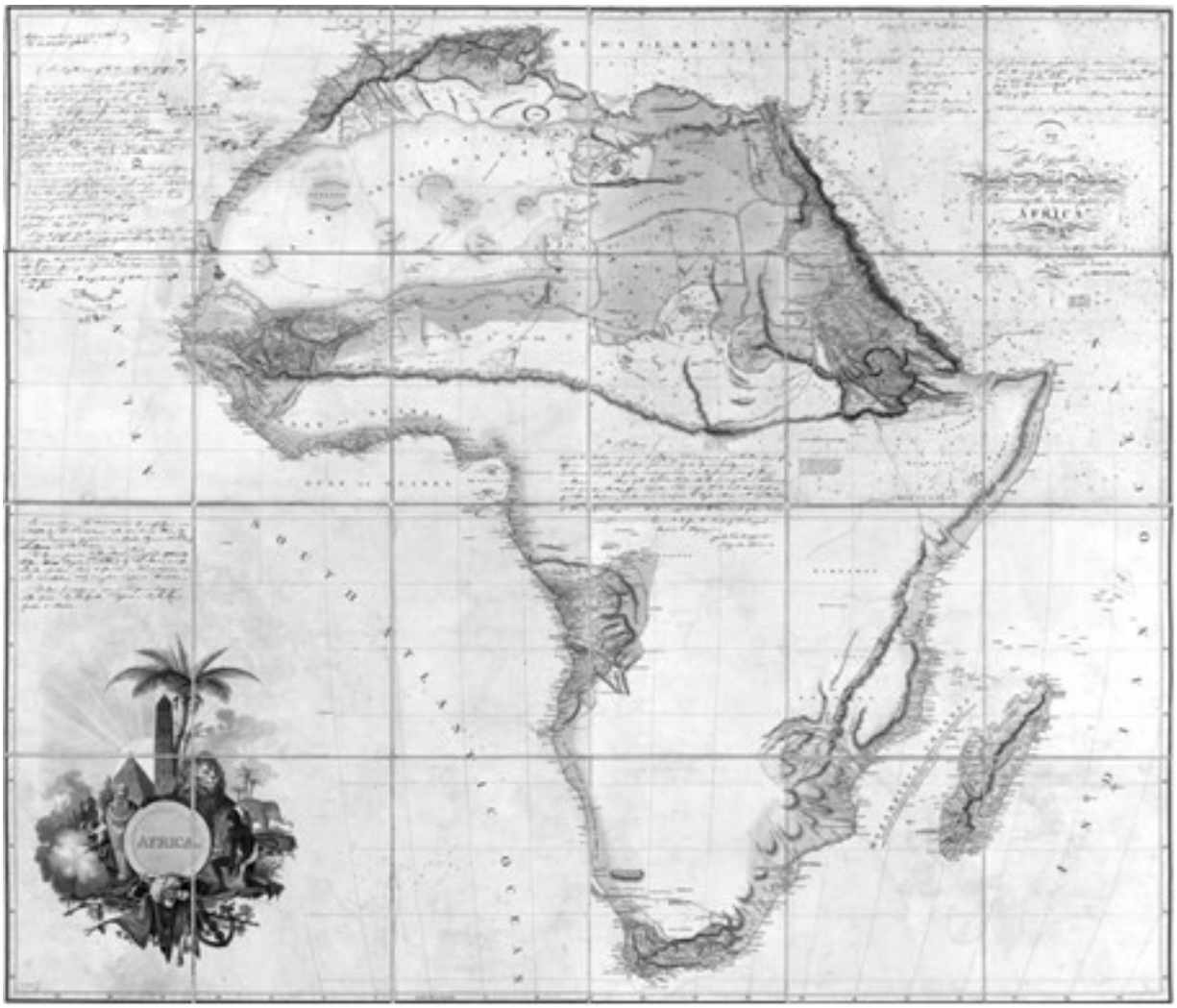

خريطة آرون أروسميث، حيث تلتقي جبال كونغ مع جبال القمر وأشياء أخرى في منتصف أفريقيا. (أروسميث، آرون، أفريقيا: للجنة وأعضاء الاتحاد البريطاني الذين يكتشفون الأجزاء الداخلية من أفريقيا تم صنع هذه الخريطة بإذنهم مع كامل الاحترام. لندن: آ. أروسميث، 1802. مكتبة الكونغرس. https://www.loc.gov/item/2011585265/).

دعونا الآن نتكلم عن جون كاري صانع الخرائط الوحيد الذي قد تكون سمعته أفضل من رينال، الذي أضاف أيضاً جبال كونغ إلى خرائطه مما جعل من سلسلة الجبال هذه تندرج ضمن فئة «المعلومات التي يعرفها الأشخاص الأذكياء». ومع دعم كلّ من كاري ورينال لجبال كونغ أصبح من المؤكد أن الجميع سيحذون حذوَهما.

وكما فعل أرو سميث قبله، وصل كاري سلسلة كونغ مع جبال القمر ليخلق كتلة صخرية عبر القارة يستحيل اجتيازها.

أعتقد أنه تجب الإشارة إلى أن جبال القمر لا وجود لها هي الأخرى، لهذه الجبال غير الموجودة تاريخ أطول من جبال كونغ فبعض المراجع تذكر أنها منبع نهر النيل، وقد ورد ذكرُ ذلك في كتاب الجغرافيا لبطليموس سنه 150 ميلادي، وورد ذلك أيضاً بعد ألف عام لدى العلّامة محمد

الإدريسي مؤلفِ علم الجغرافيا. وبخلاف جبال كونغ، كانت جبال القمر مثبَتة بشكل دائم في الخرائط الأولية لأفريقيا منذ عام 1510، إذ إن حقيقة منبع نهر النيل لم تُكشف قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما استطاع رجلان بريطانيان مريضان مشاكسان هما جون هانينغ سبيك وريتشارد فرانسيس بيرتون الإشارة إلى بحيرة فيكتوريا على أنها المنبع الحقيقي للنيل الأبيض ليتقبل الأوروبيون أخيراً فكرة أن جبال القمر غير موجودة بالفعل[54].

طيلة ما بقي من القرن التاسع عشر، تضمنت معظم الخرائط في أفريقيا جبال كونغ و(في كثير من الأحيان) جبال القمر. فلم يراود الشك صناعَ الخرائط قبل نهاية القرن عندما بدؤوا يفكرون في أن هذا الهيكل الواسع الصخري قد لا يكون حجمه أو امتداده كما تشير المعلومات الشائعة. ولكن قبل ذلك كان على المشككين محاربة دليل قوي جداً؛ هو الأشخاص الذين ذهبوا إلى هناك.

فطيلة عقود، ذكرت تقارير المستكشفين إنهم رأوا جبال كونغ أو حتى عبروها. وهذا الأمر يثير الحيرة، لأنهم أضافوا بعض الأشخاص ذوي السمعة الجيدة بأنهم أشخاص عاقلون – مثل هيو كلابيرتون وهو رجل ذو تحملٍ وجلَد كبيرين لدرجة أنه نجا من رحلة قاسية مدتها 133 يوماً مع رفيق سفر بلغ كرهه إياه مبلغاً عظيماً حتى إنهما لم يتكلما ولا مرة خلال هذه الرحلة.

خريطة لأفريقيا صُنعت عام 1849 تُظهر جبال كونغ وجبال القمر، من الأطلس العالمي الجديد الذي يحتوي خرائط لعدة إمبراطوريات وممالك ودول وجمهوريات في العالم كتبه س. أغسطس ميتشل (مكتبة الكونغرس. http://lccn.loc.gov/map46000376. متوافرة أيضاً على موقع غيتي).

لعل أفضل تفسير هو الأبسط: صادف هؤلاء المسافرون بعضَ التلال والجبال المفردة ومرتفعات المنطقة، وافترضوا أن الآخرين جميعهم محقون، وعدّلوا أدلتهم لتناسب النظرية، وعندها نظر الجميع إلى ذلك بمثابة دليل آخر على صحة النظرية. تخيل المستكشفون هذه الجبال لأنها موجودة على الخرائط: أخذ صناع الخرائط كلمات المستكشفين وغذّوا الجيل الجديد من الخرائط فيها، وبهذا صمدت الجبال الخيالية.

يظهر الأمر جلياً وواضحاً بشكل كبير في خطاب الكابتن آر. إف. بيرتون خلال اجتماع الجمعية الملكية الجغرافية في أمسية 26 حزيران سنة 1882[55]. بيرتون مستكشف مشهور ومستشرقٌ ذو لحية كبيرة ولسانٍ طليق في اللغات، ولديه شغف للإيروتيكا الشرقية. في خطابه هذا إلى الجمعية- دافع بقوة عن وجود جبال كونغ فقد أشار بأسف إلى أنها «اختفت بشكل شبه كلي من الخرائط» (وهو ليس بأمر صحيح تماماً – كانت مثبتة على العديد من الخرائط التي تم إنتاجها

حينها، حتى لو أخذ امتداد السلسلة يتقلص بحذر عما كانت عليه في الخرائط القديمة المبالغة). يجب أن نشكر لبيرتون وصفَه المبالغ به الذي تم ذكره سابقاً حين وصف الجبال بأنها «كتل متصاعدة غرانيتية».

وقع بيرتون في الخطأ الكبير ذاته الذي كان رينال ضحيته، إذ إنه وفّر دليلاً سيُفهم على نحو سيئ طيلة ثمانية عقود أخرى. فقد ركّز بشكل كبير جداً على التيارات وأصرّ على أن «ما يثبت وجود سلسلة كهذه هو سلوك تيارات الساحل الذهبي».

وقد اعتمد بيرتون في استنتاجه هذا إلى حدّ كبير على تقارير مستكشفين مثل جون دانكان وكلابيرتون (وقد قيل عن الأخير إنه «عَبَر كامل سلسلة جبال كونغ»)، حتى عندما تترك كلماتهم مجالاً واسعاً للشك، وبالرغم من أن كلابيرتون عنوَن أحد فصول كتابه «فوق جبال كونغ» ليتباهى برحلته، إلا أن الوصف الذي قدمه كان لا يتجاوز وصف «تلال»[56].

وما يُعد أبرز الأمور هو نفي بيرتون لشهادة «مواطن أصلي يعمل دليلاً سياحياً» تكلم معه بنفسه في أثناء زيارته لتلك المنطقة وأشار إلى أنه «سمع عن منطقة كونغ ولكنّه لم يسمع بجبالها «بالرغم من أنه يُفترض أن تقع كونغ أسفل الجبال. حسناً، لماذا تُعير اهتماماً لأحد يعيش في المنطقة ويقول «أجل أعرف تلك المنطقة، ولكن ليست لديّ أدنى فكرة عن وجود سلسلة جبال ضخمة بمحاذاتها».

لم يكن بيرتون وحيداً في موقفه هذا. فكما قال كلٌّ من توماس باسيت وفيليب بورتر – وهما الأكاديميان اللذان أجريا دراسة عن تاريخ كونغ – «هنالك أدلة... على أن الأوروبيين حصلوا على معلومات مباشرة من أفارقة يقولون إنه لا وجود لهذه السلسلة من الجبال، ولكن تم تجاهل هذه المعلومات»[57].

في نهاية المطاف، تُرك الأمر بين يدَي ضابط فرنسي اسمه لوي غوستاف بينغر ليكشف زيف الجبال. ففي عام 1888، سافر إلى تلك المنطقة وفوجئ عندما اكتشف «أنه ما من جبال ولا حتى تلال في الأفق، فلم يكن لسلسلة جبال كونغ التي أشارت إليها جميع الخرائط وجود إلا في مخيلة بعضِ المستكشفين الأغرار»[58].

لكن حتى بعد أن نشر بينغر اكتشافه الصادم بعدم وجود الجبال، ظلت جبال كونغ تظهر على الخرائط لفترة طويلة بعد موته، فظهرت في بعض الخرائط خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، وظهرت في خريطة سنة 1905، حتى إنها ظهرت سنة 1928 في أطلس أوكسفورد المتقدم الذي من الواضح أنه لم يكن متقدماً بما فيه الكفاية ليقوم قسم أفريقيا الغربية بتحديث معلوماته طيلة أربعين سنة. صحيح أن سلسلة الجبال هذه ماتت، لكنّ شبحها لا يزال موجوداً.

بالرغم من أن سلاسل الجبال غير الحقيقية في أفريقيا قد تكون أحد أكثر الأمثلة وضوحاً للعالم بشأن الترهات التي صدّقناها من حولنا، ولكنها ليست الوحيدة بالتأكيد، فالتاريخ مليء بأراضٍ

لا وجود لها وأماكن خيالية.

تعد مملكة بريستير جون إحدى أكثر الممالك غير الموجودة صموداً في مخيلة الناس – وهي أرض يزعم أنها مباركة وغنية بشكل كبير تقع في الشرق، فقد زُعم أن ملكاً مسيحياً حكمها اسمه بريستير جون. لم يرد ذكر اسم بريستير جون على نطاق واسع في الفلكلور، حتى إنه في مطلع القرن العشرين تداول الناس أخباراً زائفة عن رسالة تنسب إليه (يتعهد فيها المشاركة في الحملات الصليبية).

للأسف، فُقِد أثر كاتب هذه الخدعة، ولم تُعرف غايته منها، ولكنّ الرسالة أشعلت إيماناً ثابتاً وطويل الأمد بوجود مملكة أشبه بوحيد قرن متلألئ؛ إذ إنه طيلة خمسة قرون بحث المستكشفون عن هذه الأرض العظيمة التي فُقدت ووضعَها صانعو الخرائط على خرائطهم، حتى إن بعضهم قام بوضع شجرة العائلة التي ينحدر منها بريستير جون.

لقد وضعت هذه المملكة على الخرائط بالرغم من أن أحداً لم يكن واثقاً تماماً من مكان وجودها: وطيلة قرون (حينما تغيرت العادات، وامتلأت الخريطة بأجزاء كثيرة لأراضٍ كانت بالتأكيد غير موجودة) تغير موقع مملكة بريستير جون أكثر من مرة، ففي البدء كانت المملكة في آسيا قبل أن تظهر في مواقع عدة على خريطة أفريقيا قبل أن يستقر موقعها أخيراً في مكان ما مناسب جداً من أثيوبيا بالقرب من جبال القمر التي لا وجود لها، ولم يبدأ الناس بتقبل حقيقية أنها لم توجد قط حتى القرن السابع عشر وكانوا متشككين في تقبلهم للحقيقة المرة.

ما ساعد على ملء الفجوات في الخرائط هو الحكايات التي عاد بها المستكشفون الأوروبيون، التي لم يكن معظمها يُعول عليه. فعلى سبيل المثال، سكن أراضي باتاغونيا (حسب وصف رحلات ماجلان سنة 1520) عِرق من العمالقة. ظلت فكرة العمالقة الباتاغونيين أساساً لحكايات المستكشفين الأوروبيين طيلة سنوات، وظل مقدار طولهم متغيراً مع الوقت: ففي مرحلة ما من أواخر القرن السادس عشر كان طول العمالقة 12 قدماً، وانخفض هذا الطول حتى 9 أقدام مع حلول القرن الثامن عشر.

معظم الآراء اتفقت على أن هؤلاء العمالقة هم سكان الأنيكينك الأصليين الذين لم يكونوا عمالقة في واقع الأمر، بل كانوا طوال القامة فقد بلغ طول بعضهم 180 سنتم، ووُصفوا بالعمالقة مقارنة بالأوروبيين الذي كانوا في ذلك الوقت قصار القامة.

ولا يقتصر مجال المعلومات التي لا يمكن الوثوق بها والتي أدلى بها المستكشفون على ذلك، فقد كان المجال الأكثر رحابة هو الجزر في وسط المحيط لأنه يصعب على أي كان التأكد من حقيقة الأمر، إلى جانب ذلك يتسنى لك أن تطلق على هذه الجزيرة اسمك أو (ما يحدث غالباً) اسم شخص معطاء ثريّ الأمر الذي كان مفيداً جداً.

لعل أكبر مناصري الجزر الزائفة رجلٌ اسمه بينجامين موريل؛ وهو مغامر عاش في القرن التاسع عشر إضافة إلى كونه كذاباً مكرساً لمهنته هذه، وُلد في الولايات المتحدة الأميركية عام 1795. وكما أشار إدوارد بروك هيتشينغ في كتابه الممتاز الأطلس الوهمي (وهو موجز

لـ»الجغرافيا التخمينية»، وأنا أنصح بقراءته إن أعجبك ما ذُكر في هذا الفصل) عُرف موريل بكبير كذابي المحيط الهادئ»[59] بفضل حكايات غير حقيقية عن اكتشافاته التي نشرها في كتاب «قصة أربع رحلات»، وقد تضمنت اكتشافاته غرينلاند الجنوبية الجديدة (غير الموجودة)، وجزيرة باير (وهي أيضاً غير موجودة وسُميت تيمناً باسم رجل ثريّ أراد موريل أن يكرمه)، وجزيرة موريل (التي سميت باسمه وهي الأخرى غير موجودة). وبالرغم من أنها جميعها غير حقيقية، بقي العديد منها على مخططات الملاحة البحرية لأكثر من قرن، وهو أمر لم يساعد أولئك الذين حاولوا أن يجدوا طريقهم في البحر.

من السهل القول إن الجغرافيا غير الصحيحة قد أكل عليها الدهر وشرب، فنحن نستطيع تقبل حقيقة أن الأشخاص الذي عاشوا في الماضي وقعوا في أخطاء لا يُفترض أن يقع بها الأشخاص في أيامنا هذه نظراً لما توفره الأقمار الصناعية من صور وغوغل من خرائط. ولكنّ الواقع يخالف الاستنتاج المنطقي السابق، لأن صدى العديد من الحكايات الخاطئة لا يزال يتردد حتى يومنا هذا، فعلى سبيل المثال سنتحدث عن إحدى المعلومات الخاطئة التي ظهرت على خرائط غوغل– وهي منطقة منعزلة تبعد عن أستراليا عدة آلاف من الأميال اسمها جزر ساندي– حتى سنة 2012 عندما أبحرت باخرة أسترالية بجانب المكان الذي يُفترض به أن يكون جزر ساندي، وأكدت أنها غير موجودة، وأن المياه لا يقل عمقها عن ألف متر، فسارعت شركة غوغل وغيرها من المؤسسات مثل ناشيونال جيوغرافيك إلى إزالتها عن خرائطها.

قد لا يكون صمود الأراضي غير الحقيقية أمراً مدهشاً نظراً لأن الأرض شيء يسعى الناس وراءه بشدة. صحيح أن الأرض تتيح بناء المنازل، ولكنّ الأهم من ذلك أنها تجعل مالكها ثرياً للغاية، وخير مثال على ما أقوله يظهر في قصة جزيرة بيرميجا غير الموجودة التي يُفترض أن تكون في الخليج المكسيكي جنوب ساحل يوكاتان، ظهرت للمرة الأولى على الخرائط في القرن السادس عشر، واختفت بشكل عام من المخططات في أوائل القرن العشرين قبل أن تظهر فجأة عندما أدركت الحكومة المكسيكية أنها تستطيع أن تطالب بقسم كبير جداً من حقول النفط في الخليج في حال وجدتها[60]. ولعدة سنوات، بحثت السفن المكسيكية بشكل غير مثمر عن هذه الجزيرة، ولكن في الوقت الذي وجب فيه على المكسيكيين الاعتراف بعدم وجود الجزيرة، أصر بعضهم على أنها كانت موجودة، حتى إن بعض النواب المكسيكيين اتهموا الاستخبارات الأميركية بإخفاء الجزيرة!

في كثير من الأحيان تستند معتقداتنا الخاطئة بشأن الأراضي التي نعيش عليها على صديقنا القديم «الاستدلال المدفوع»: فبكل بساطة نحن نريد أن يكون المعتقد صحيحاً لأن الأراضي تعني الثروة والقوة و–بالنسبة إلى كثير من الأفراد– المجد والعظمة. ولعل أوضح صورة توضح رغبة الأشخاص في أن يكونوا أول المستكشفين تتمثل في قصة القطب الشمالي.

بدأت هذه المعركة على صفحات الصحف الأميركية سنة 1909، ففي السابع من أيلول عنونت صحيفة النيويورك تايمز بفخر صفحتها الأولى «بيري يكتشف القطب الشمالي بعد ثماني محاولات خلال ثلاث وعشرين سنة» مانحة صفة المكتشف إلى روبيرت إي بيري. لم يكد وهجُ هذا

النصر يخفت حتى أعلنت النيويورك هيرالد بعد خمسة أيام «اكتشاف الدكتور فريدريك أي كوك للقطب الشمالي».

لقد كان ما أوردته نيويورك هيرالد ضربة قاسية لبيري العائد حديثاً من رحلة استكشافية والمتشوق ليعلن للعالم إنجازه العظيم، إلا أن العودة المفاجئة لصديقه القديم ورفيق دربه كوك –الذي مضت على اختفائه سنة فظُن أنه توفي– وإعلانه أنه بلغ القطب الشمالي في عام 1908 جعلته يصرح للنيويورك تايمز نافياً مزاعم كوك ومتهماً إياه بالاحتيال.

في بادئ الأمر، دارت أول معركة إثبات من بلغ القطب في حلبة الرأي العام، ولنبدأ مع الدكتور كوك الذي استفاد من أفضلية أن قصته نُشرت أولاً، فاستقبلته جماهير بهيجة عندما وصل إلى نيويورك، واستطلعت الصحف في جميع أصقاع البلاد رأي قرائها لترى من منهما يصدقون ودائماً ما كان كوك الرابح بفرق كبير.

لكن بيري حرّك حملة علاقات عامة لكشف زيف ادعاء كوك (وقد زعمَت صحيفة هيرالد لتحمي إشاعتها بأن بيري رشَا شاهد عيان واحداً على الأقل)، وبما أن كوك سافر مع حمولة قليلة في أثناء رحلة العودة، فقد ترك العديد من سجلات رحلته الاستكشافية مع أحد معارفه في غرينلاند الذي وعد بأن يوصلها إليه في نيويورك، لكن لسوء حظه كان أحد ركاب السفينة العائدة إلى نيويورك صديقة بيري الذي رفض أن تجلب أياً من أغراض كوك على السفينة.

بعد أن بلغت كوك أخبار عدم وصول الدليل تملكه الحزن، وبعد بضعة أشهر غادر الولايات المتحدة الأميركية إلى أوروبا حيث قضى سنة وكتب كتاباً. كتبت صحيفة التايمز عن أخبار «اختفائه» ووصفته بأعظم محتال في التاريخ والأكثر إشارة للدهشة منذ ظهور البشر سطح الأرض»[61].

(من المحتمل أن قرار التايمز بدعم ادعاء بيري دون تردد مرتبطٌ بأنه دفع لها أربعة آلاف دولار مسبقاً لتغطية أخبار رحلته)

وبدعم من صحيفة قوية ومؤسسة ناشيونال جيوغرافيك التي رعت رحلته الاستكشافية بدأت نسخة بيري من الأحداث تحقق تقدماً على نسخة كوك حتى أصبحت أخيراً القصة المقبولة بشكل عام. وما لبث الكونغرس أن اعترف بشكل رسمي برحلته إلى القطب: ولأنه كان مهندساً مدنياً لأسطول الولايات المتحدة الأميركية رقّي إلى رتبة أدميرال، ومُنح راتباً تقاعدياً بلغ عدة آلاف من الدولارات سنوياً.

منذ مطلع القرن التالي، حصل نقاش بين مؤيدي كلّ من كوك وبيري بشأن أي منهما هو الصادق. هل كان كوك بالفعل محتالاً حاول أن يحرم بيري من نصره المستحق؟ أم أن بيري كان خاسراً لا يتمتع بأية روح رياضية طالباً خدمات ليسرق من دون حق شرفَ الرجل الذي غلبه؟ لم يكن أي منهما يقول الحقيقة، واتضح أنهما كاذبان.

في هذه الأيام، يُجمع الخبراء على أن كلاً من بيري وكوك ظلا بعيدَين عن القطب مسافة لا تقل عن مئة ميل، وزوّر كلٌّ منهما الأدلة. في البدء كان من السهل إثبات عدم صحة ادعاء كوك، لأنه شاع عنه عدم الصدق، وهذا ما ركّز عليه بيري في حملة العلاقات العامة التي شنها، فقد شك كثيرون بادعائه أنه أول من تسلق جبل دينالي (وهو أعلى جبل في أميركا الشمالية وكان يُعرف وقتها باسم جبل مكينلي). وازدادت الشكوك بعد أن ظهرت حقيقة قصّ كوك لصورة رفيق سفره وهو يقف عند «القمة» مزيلاً بوضوح قمة أعلى في الخلفية، إذ إنه تصرف بطريقة مشابهة لما يقوم به بعضهم اليوم عندما يزيلون من صورة ينشرونها على الإنستغرام مطعم ماكدونالدز من زاوية إحدى الصور التي التقطوها بالقرب من منتجع اليوغا المثالي الذي يذهبون إليه.

إلا أن أي شك زال في عام 1910 عندما سارت رحلة استكشافية على الدرب نفسه الذي وصفه كوك، ليتبين أن قمة الصورة أبعد بعشرين ميلاً وأخفض بخمسة عشر ألف. (واليوم تُعرف هذه الصخور رسمياًبـ «القمة المزيفة»)

واتضح أن إحدى حيل كوك المفضلة هي تبديل الصور إذ اكتُشف لاحقاً أن صور القطب الشمالي التي أرسلها كانت في الحقيقة صوراً قديمة التقطها في ألاسكا، وكان من الواضح جداً أن المذكرات التي قدمها دليلاً على رحلاته كانت قد كُتبت بعد عودته، فقد صرّح دليل من الأسكيمو الذي رافقه بأنهم لم يصلوا إلى القطب، وتبين لاحقاً أن تلك الجزيرة التي اكتشفها في أثناء رحلته لم يكن لها وجود، وأتت الضربة القاضية لسمعة كوك عام 1923 عندما أدين وسجن بتهمة تزييف البريد، إذ كان قد خرج من ساحة المنافسة الاستكشافية وانتقل إلى مجال صناعة النفط، مما ضمن أنه سيسجل في تاريخ الأشخاص المحتالين.

فتح ذلك الأبواب واسعة أمام بيري ليتوَّج بلقب المكتشف الحقيقي للقطب، وبدا الطريق معبَّداً أمامه لأن سمعة كوك قد غدت سيئة بشكل كبير وكان العراك بينهما علنياً جداً – وذلك مبني على الاعتقاد الخاطئ بأنه إن كان أحد الطرفين يكذب فالآخر بالطبع يقول الحقيقة – ولذا أصبحت قصته هي المعتمدة على نطاق واسع في القرن العشرين.

إنه لأمر غريب حقاً، ففي ظل شكوك كثيرة حيال صدقه وبمعاينتنا لماضيه فإننا سنرى أن كثيراً من سلوكياته شكّلت تحذيرات واضحة لم يرها أحد؛ أولاً هنالك مذكراته التي قدّمها دليلاً إلى الكونغرس، ولم يستطع أعضاء الكونغرس غض النظر عن مدى نظافتها والتي يفترض أنها كُتبت يوماً من قبل شخص غطت الأوساخ يديه في بيئة قاسية يستحيل فيها الاغتسال، أضف إلى ذلك حقيقة أن بيري رفض أن يفحص أحد ما سجلاته، وحقيقة زعمه اكتشاف جزيرة في أثناء رحلته ثبت لاحقاً عدم وجودها.

لكن لعل أكثر العلامات المثيرة للشك كانت لا معقولية وصفه لرحلته: ما يميز القطب الشمالي هو أنه لا يقع فوق قطعة أرض – بل هو مغطى بالصفائح الجليدية كثيرة الانجراف، وليست هناك معالم كثيرة يمكن الاعتماد عليها في المدى الواسع الأبيض الخالي، ولكي تسير نحو القطب عليك أن تسجل مشاهدات ملاحية بشكل اعتيادي، للتأكد من أنك لم تنحرف عن مسارك، وأن الأرض التي تمشي عليها لم تتحرك بعيداً عن المكان الذي تتوقع وجودها فيه، وقد كان بيري قادراً

على القيام بذلك بالتأكيد – لأنه وعلى عكس كوك كان ملاحاً خبيراً مثل العديد من أعضاء فريقه – ولكنّ الأمر الغريب هو أنه لم يقم بذلك أبداً خلال رحلته نحو هدفه.

لكن حسب وصفه لرحلته استطاع المشي لمسافة تبلغ 500 ميل تقريباً عبر صفائح جليد متحركة وخالية من المعالم المميزة في خط مستقيم مباشرة باتجاه القطب، ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل إنه قبل أسبوع من وصوله إلى القطب، أرسل معظم أعضاء فريقه بعيداً بمن فيهم ملاحون خبراء وغيرهم وكان ذلك أمراً مريباً بعض الشيء، ولكن ما أثار الريبة والغرابة في آن تضاعف سرعته بعد أن أرسل أعضاء فريقه بعيداً لتصل إلى 71 ميلاً في اليوم الواحد، وهو أمر غير طبيعي ويُعتبر مدهشاً بالنسبة إلى شخص فقدَ معظم أصابع قدميه بسبب التثليج في رحلة استكشافية سابقة (وكان الطبيب الذي أنقذ أصابع قدميه المتبقية هو عدوه المستقبلي فريدريك كوك).

في النهاية، سجل بيري مشاهدة ملاحية واحدة، وعاد بعدها بائساً تماماً، ورفض إخبار أحد عن النتيجة وفقاً لما قاله رفيق سفره ماثيو هينسون. ولكن في اليوم التالي، أعلن أنهما كانا في القطب، ووضعا علم الولايات المتحدة في علبة من القصدير ودفناه تحت الجليد، ثم عادا إلى موطنهما. بالرغم من أن النقاش ظل مستمراً طيلة عقود، كان الإجماع على أنهما لم يقتربا من إنجاز كوك مطلقاً وربما كان بيري بعيداً عن هدفه ما بين 60 و100 ميل. في الواقع، لم تصل أول بعثة استكشافية إلى القطب حتى عام 1968 باستخدام عربات الثلج.

لجأ كوك وبيري إلى الخداع ليغطيا فشلهما في تحقيق أهدافهما، في حين أنه قام الجغرافيون المخادعون بذلك على مرّ التاريخ، ولكن بطريقة مختلفة، لأنهم أعدوا أنفسهم للفشل من خلال نسج حكايات لا تتفق والواقع، وهذا ما حدث مع رجل يدعى لويس لاسيتر الذي قاد فريق بحث في الصحراء الأسترالية الوسطى عام 1930 بحثاً عن حاجز كبير في مناطق نائية، حاجز مصنوع من الذهب سيجعلهم أثرى أثرياء الكون.

الأمر الواضح هنا هو أنه لا وجود لحاجز من الذهب بطول تسعة أميال في وسط أستراليا، لقد ادعى لاسيتر رؤيته بأم عينيه، فقد عثر عليه مصادفة عندما كان ضائعاً في الصحراء ربما في عام 1897 أو 1900 أو 1911 (لقد اختلف التاريخ في كلّ مرة رُويت فيه القصة) وقد استمرت الحكاية بذكر أنه لم يتمكن من إعادة تتبع خطواته لأنه أمضى عدة عقود محاولاً جمع الأموال الكافية لإطلاق حملة لإعادة استكشاف المنطقة.

لا يزال الجدل دائراً حول ما إذا كان لاسيتر ببساطة مخطئاً أم أنه كان يتوهم الأمر برمته أم أنه كان مخادعاً عن سابق إصرار وتصميم. من المحتمل أن الإجابات السابقة الثلاثة كانت جميعها صحيحة بنسبة معينة كالعادة. ومع ذلك، عندما حل الكساد الكبير، اقتنع رئيس أحد الاتحادات بحكايته ومنحه الدعم الكامل على أمل أن يكون محقاً فيما قال. لذلك، انطلقت مجموعة من ثمانية مستكشفين مجهزين بالعتاد المناسب مع طائرة وبعض الشاحنات في رحلة البحث عن الذهب.

لكن سرعان ما علم مرافقو لاسيتر أنه لا يمتلك أدنى فكرة عن مكان توجههم، وأنه لم يسبق له أن خطا خطوة واحدة في هذا المكان من قبل، ومع ذلك استمر أفراد المجموعة في مهمتهم،

ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة، وعلقت شاحناتهم في الرمال، وتحطمت طائرتهم، ونُقل الطيّار إلى المستشفى.

في النهاية، اكتشفوا واحداً تلو الآخر أن لاسيتر لا يعدو كونه كاذباً مخادعاً، وتخلّوا عن البعثة الاستكشافية، وتركوا لاسيتر مع بعض الجِمال ورجل يدعى بول؛ وهو صائد للدينغ الأسترالي، ولم يمض وقت طويل حتى قال لاسيتر لبول إنه وجد الحاجز الذهبي، ولكنه رفض أن يخبره أين وجده، وبعد عراك وجيز بالأيدي، رحل بول و(وفقاً لمذكرات لاسيتر) فقد هربت الجمال عندما كان يقضي حاجته.

في السنة التالية، وُجدت رُفات لاسيتر مع مذكراته في الصحراء.

بالرغم من عدم وجود حاجز ذهبي وسط أستراليا، إلا أن مجموعات عدة انطلقت بحثاً عنه طيلة عقود وحتى يومنا هذا، وكل بضع سنوات يدّعي أحدهم عثوره على الحاجز الذهبي الذي لا وجود له في الواقع.

ربما آمن لاسيتر بوجود الحاجز، لأنه من دون هذا الإيمان من الصعب تفسير السبب الكامن وراء إصراره على البحث عنه بعد استسلام الجميع. ربما كان استير مخطئاً كالعديد من أولئك الذين نسجوا حكايات كاذبة عن أراض غير موجودة، ولكنه أصر على معتقده الخاطئ بسبب حماسه أو عاره أو انحياز تأكيدي بسيط[62]، بيْد أنه لم يكن الوحيد الذي فعل ذلك.

في الواقع، تعود إحدى أكثر القصص الجغرافية الصعبة على التصديق إلى رجل لم يكن لديه أي عذر لكذبه، ومع ذلك تصرف بكل ثقة وإصرار كما لو كان ما يقوله يقيناً حقيقياً.

ولكن لكي نروي تلك الحكاية، سنحتاج إلى الخوض في عوالم المخادعين والمحتالين والغشاشين الغامضة حيث سنلتقي بالمخادع الأكبر في العالم – الرجل الذي خدع بلاداً بأكملها من خلال اختلاق بلد جديد.

الفصل الخامس

بيان الاحتيال

عندما وصل المستوطنون الأوائل إلى شواطئ إقليم بوياس في شباط 1823، كانت لديهم فكرة مسبقة واضحة عما يمكن أن يتوقعوا رؤيته في الأرض الجديدة، فعندما رست سفينة هندوراس باكيت بالقرب من بحيرة بلاك ريفر، بدوا في غاية الشوق لحياتهم الجديدة وللثروة الموعودين بها.

كانت أرض بوياس جميلة وخصبة على حدّ سواء، وكان طقسها الدافئ نموذجاً عن مناخ أميركا الوسطى البعيد كلّ البعد عن طقس لندن البارد الذي تركوه قبل شهرين. لقد قيل إن مناخ بوياس يصنع المعجزات فيما يخص صحة الإنسان، ويمكن أيضاً زراعة التربة الخصبة ثلاث مرات في السنة، الأمر الذي يَعِد أي مزارع مقدام ومجدٍّ بثروة مقابل بعض المجهود، وقيل أيضاً إن النهر الذي يتعرج على امتداد الإقليم، ويصب في البحيرة مليءٌ بشذرات الذهب التي يستطيع أي عابر سبيل الحصول عليها ما إن يبحث بعض الشيء بين حبيبات الرمل الجميلة، وقيل أيضاً إن هذا النهر هو محور التجارة الرئيسي في الإقليم، وإن العاصمة سانت جوزيف– وهي مدينة صغيرة لكنها آخذة في النمو، ويقطنها خمسة عشر ألف نسمة– لا تبعد عن البحيرة سوى أميال قليلة، ولم يبخل في وصف أناقة المدينة الهندسية المبنية وفقاً للنمط الأوروبي.

لكن لم يأتِ أي قارب لاستقبال الوافدين الجدد، فأطلق القبطان هيدغكوك قذيفة من أحد مدافع سفينته ليعلم البويرز (الاسم الذي كان يُعرف به سكان بوياس) عن وصولهم، وانتظر بحماس قدوم ممثلي الميناء لاستقباله.

انتظر المستوطنون وطال انتظارهم، لكن أحداً لم يأتِ.

عندما يئس المستوطنون، قرروا التوغل بأنفسهم، وعندها اكتشفوا أنه لا وجود لميناء تجاري، وبعد أن ساروا أميالاً عبر الغابة بحثاً عن العاصمة سانت جوزيف، وجدوها إلا أنها لم تكن وفقاً للصورة التي رُسمت في عقولهم، فلم يكن فيها مصرف ولا دار أوبرا، إضافة إلى أن شوارعها لم تكن واسعة، بل وجدوا سقْطَ متاع وأطلالاً لبعض الأكواخ التي تعود للقرن الماضي.

ظنوا أنهم رسوا في المكان الخاطئ، لذلك تحققوا من خريطة مفصلة للبلاد أعطاهم إياها كاسك بوياس (زعيم دولة بوياس): الجنرال غريغور ماكغريغور بطل الحرب، وسليل النبلاء، والحاكم الملهم لهذه البلاد الجديدة.

ولكن للأسف، كانوا بالتأكيد في المكان الصحيح.

في هذه المرحلة، لم يفهم المستوطنون أن سبب عدم وجود قوارب أو ميناء أو عاصمة لا يكمنُ في أن الجنرال أعطاهم اتجاهاتٍ خاطئةً بل لأنهم لم يتقبلوا حقيقة أنهم خُدعوا، وأنهم أقدموا على مغامرة تستند إلى كذبة فظيعة.

فدولة البوياس ليس لها وجود إلا في عقل غريغور ماكغريغور؛ الرجل الذي استفاد بطريقة ما من مخيلته المهيمنة لجمع ثروة من المستثمرين في لندن، وأقنع المئات من رفاقه الاسكتلنديين ببيع ممتلكاتهم، والتخلي عن منازلهم، واجتياز المحيط (ليس هذا فحسب بل دفعوا له بسخاء شاكرين إياه لأنه خصهم دون غيرهم للتنعم بهذه الحياة الجديدة).

وقد كانت نتيجة هذه النعمة أن معظمهم ماتوا في غضون سنة.

في أيامنا هذه، يتذرع بعض المحتالين الذين يرسلون بريداً إلكترونياً عشوائياً بأن لديهم مرضى يحتاجون إلى علاج، أو ثرواتٍ غامضةً لا يمكنهم استردادها من دون مساعدة الشخص الذي تلقى رسالة البريد الإلكتروني. إن هؤلاء يبدون أطفالاً هواة في عالم الاحتيال عندما نقارنهم بماكغريغور الذي اختلق بلداً بأمه وأبيه.

نحن البشر مهووسون بشتى أنواع المحتالين، سواء نظرنا إليهم بصفتهم مستغلين قساة للضعفاء والسذج أم أبطالاً شعبيين – إذ إنهم يقلبون النظم الظالمة على أنفسها – وفي كلتا الحالتين لا نكف عن المطالبة بالمزيد منهم. ربما يُعزى ذلك إلى ما نشعر به من متعة ونحن نرى الآخرين يقعون في مصيدة الخديعة، ونظن أنفسنا أذكى من أن يصيبنا ما أصابهم، وربما يعزى السبب إلى الطريقة التي يؤكدون بها النظرة السرية حيال البنى الاجتماعية التي تفصل ما بين الذين يملكون كلّ شيء والذين لا يملكون شيئاً، وهي أنهم جميعاً واجهات مزيفة خاوية يستطيع أي منا كسرها، إنهم يمتلكون جرأة كافية لكي يدّعوا أنهم أشخاص مختلفون عما هم عليه فعلياً.

سجل التاريخ اسم ماكغريغور على أنه نظّم بحسب ما وصفته صحيفة الإيكونوميست «أعظم عملية خداع تعتمد على الثقة في التاريخ»[63]. ولكنّ ما يثير الدهشة إن لم نقل الغضب أنه وحتى يومنا هذا لا يستطيع أحد التمييز بين الحقيقة والخداع المتقن من قبل ماكغريغور، وخداع النفس الذي سمح به المستوطنون.

عُرف عن ماكغريغور الطموحُ وامتلاكه لشخصية ساحرة، واعتقاده الراسخ أن القدرَ يخبئ له مستقبلاً عظيماً ومشرفاً. وبالفعل، وفي أكثر من مرة، كان على بعد خطوات قليلة من بلوغ تلك العظمة من خلال الخداع، قبل أن ينحدر إلى الهاوية. سأوضح ما ذكرت سالفاً؛ لو بذل ماكغريغور جهوداً لتحقيق ما زعمه تعادل الجهود التي بذلها لتعزيز ادعائه، لربما ما كان ليجد مكاناً له في هذا الكتاب، ولربما كان سيُذكر في الكتب التي تتحدث عن العظماء من الرواد، ولربما كان سيموت مئات من المستوطنين الذين خصوه بثقتهم في بلدهم بجوار أحبتهم.

في أيامنا هذه، يمكننا أن نفسّر على نحو سهل كيف تمكّن ماكغريغور من إيقاع المستثمرين والمستوطنين في شرك خداعه، فهو لم يفوت فرصة ليتباهى بسيرته الذاتية وأصله، فهو نبيل اسكتلندي، وضابط خدم في فوج المشاة الملكي البريطاني، وكان أحد قادة الكتيبة السابعة والخمسين الأسطورية، وهو الحائز على رتبة الفروسية لخدمته في الجيش البرتغالي، إضافة إلى أن الشعب الفنزويلي يعتبره بطلاً لأنه قاتل في حروب التحرير من المستعمر الإسباني في أميركا الجنوبية، وإن لم يكن كل ما تقدم كافياً فهو رئيس عشيرة ماكغريغور وسليل روب روي.

لا بد أن الإعلانات التي بدأت تظهر في الصحف في أواخر عام 1821 بدت بمثابة فرصة لا يمكن تفويتها، فقد أعلنت عن فرصة شراء أراض في بوياس بسعر بخس بلغ شلناً واحداً للفدان، وكان العرض لفترة محدودة ولعدد محدد من الأشخاص، وأشارت الإعلانات إلى أن هذه الأسعار لن تبقى لفترة طويلة[64]. بعد أن انهارت السلطة الاستعمارية الإسبانية التي استمرت قروناً، تطلع البريطانيون بشغف إلى فرص واستثمارات جديدة في أميركا الجنوبية، ومع حلول صيف عام 1822 لم تقتصر الإعلانات على فرصة الاستثمار في الأرض: بل دعت الإعلاناتُ المستوطنين لبدء حياة جديدة في بوياس، وحجزِ مكان لهم على سفينة هندوراس باكيت «الفسيحة والمريحة جداً». (كما وصفها إعلان في صحيفة التايمز)[65].

بالتزامن مع هذه الإعلانات، أطلق ماكغريغور حملة إعلامية متكاملة، تمثلت بسلسلة من المقابلات الصحفية، وظهر في كثير من المناسبات مع أبناء الطبقة العليا، وافتتح مكاتب لبلده الخيالي في لندن وإدنبرة، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحدّ بل نشر كتاباً حمل العنوان التالي (مخطط لشاطئ البعوضة)، يفترض أن مؤلفه هو توماس ستراينغوايز ك.ج.س الذي وُصف بأنه أول قائد لفوج بوياس، والضابط المرافق لسمو كاسيك بوياس غريغور.

عُرض في الصفحة الأولى من (مخطط شاطئ البعوضة) رسم جميل جداً لغريغور بدا فيه جاهزاً للحياة الملكية، إضافة إلى رسم مثالي لبحيرة بلاك ريفر المحتشدة بالسفن.

غريغور ماكغريغور المتأنق كما ظهر في مخطط شاطئ البعوضة (يعود الفضل للصورة إلى: شركة ألامي)

كان ذلك هو الكتاب الذي وعد المستوطنين بنهر تحتشد فيه شذرات الذهب[66]، وتربة تعطي ثلاثة محاصيل في السنة، إضافة إلى عمال لطفاء من أهل البلد الأصليين، يحبون البريطانيين، ويخضعون لهم، ويعملون طوال السنة مقابل مبلغ مالي زهيد أو حتى مقابل الثياب فقط.

(ومنذ الصفحات الأولى وضّح الكتاب أن تسمية شاطئ البعوضة بهذا الاسم لا يرجع لاكتظاظه بهذه الحشرات – يا لها من فكرة مروعة! – بل بسبب وجود عدة جزر صغيرة تنتشر على مقربة من الشاطئ. لم تكن أي من هذه التفسيرات صحيحة: ففي الواقع ترجع تسمية شاطئ البعوضة، أو خطأ تسميته، إلى شعب مسكيتو الأصلي[67]، ولكن كما سيكتشف المستوطنون قريباً كان البعوض يملأ الشاطئ).

في الحقيقة، كان الكتاب عبارة عن نسخة جامعة من عدة كتب أخرى تتحدث عن المنطقة، وتعرض معلومات قديمة تحتاج إلى تحديث، وما لم يتم نسخه كان خيالياً بحتاً كتبه ماكغريغور بنفسه.

لكن ماكغريغور تجاوز الكتاب وسوّق لبوياس على أنها أكثر من مجرد فرصة لبناء مستعمرة جديدة، عندما قال إنها دولة جاهزة ذات حكومة تعمل بشكل جيد، وتملك بنى مدنية شاملة وحياة نابضة بالثقافة، وأخذ يعرض للناس نسخة عن «بيان موجه لسكان بوياس» الذي أعلن من خلاله قيام دولته – وكانت تلك وثيقة يُفترض أنه وزعها قبل قدومه إلى لندن – يعلن فيه أن ملك شاطئ البعوضة قد منحه منطقة بوياس إلى الأبد.

لقد ابتكر ماكغريغور علَماً للبلاد، ونظام ألقاب فروسية مانحاً إياها إلى حلفاء محتملين في خطته المسماة بـ «تنظيم الصليب الأخضر العسكري»، وطبع «دولارات بوياسية»، وأمّن منها مبالغ كبيرة مما يُسهّل على المستوطنين بدء حياتهم في موطنهم الجديد، وتحدث عن البنية الثلاثية لنظام الحكومة في بوياس، وأقنع موظفاً شاباً– كان من السهل التأثير عليه– من غلاسكو يُدعى أندرو بيكين، الذي كانت لديه أحلامٌ أدبية، أن يكتب قصيدة وأغنية شعبية تُمجد بوياس، وتعطي انطباعاً أنها من نتاج ثقافة بوياس ذاتها، بعدها سيغدو بيكين أحد الأصوات الأساسية التي ستعلن الأخبار الطيبة للمستوطنين الآخرين عن الحياة التي تنتظرهم في سانت جوزيف.

ورقة من فئة الدولار البوياسي طبعها غريغور ماكغريغور في اسكتلندا لأنه ليس هناك مصرف اسمه بنك بوياس (يعود الفضل بالصورة إلى: ألامي).

في حديث تلا جلسةَ شرب نبيذ، أشار ماكغريغور إلى أن بيكين سيصبح رئيس مسرح بوياس القومي، ووعد العديد من المستوطنين بمناصب كبيرة: فوعد أحدهم بأنه سيصبح نائب حاكم سانت جوزيف، ووعد آخر بأنه سيصبح رئيس مصرف بوياس، وبعد أن وعد ماكغريغور صانع الأحذية الأدنبري – جون هيلي – بأنه سيصبح صانعَ الأحذية الرسمي لأميرة بوياس، باع جون متجره وترك عائلته، سعياً وراء ما تبين لاحقاً أنه سراب.

لكن، بالطبع ما وجده المستوطنون هناك كان أقل إثارة؛ فالمنطقة التي رست فيها السفينة، تقع عند الساحل الجنوبي لما يُعرف اليوم بهندوراس والنهاية الغربية لمنطقة ذات اسم معبّر هو غراسياس أي ديوس (الحمدلله).

ويعرف البلاك ريفير اليوم بريو سيكو، والبحيرة بأسماء عديدة منها لاغونا دي إبانز أو لاغونا إبانو[68]. ولا تزال المنطقة حتى يومنا هذا نائيةً إلى حدّ ما، ولا يقطنها كثير من الناس بالرغم من وجود مطار – أشبه بمهبط طائرات عشبي – وبحسب ما صرّحت به شركة لونلي بلانيت، هنالك خدمة طعام جيدة والمنطقة مقصد للساعين وراء السياحة البيئية[69]. ولعل ما وجده راكبو سفينة هندوراس باكيت لم يوحِ بالمستقبل السياحي والمضياف للمنطقة فهم لم يجدوا سوى غابات، وأطلال متفرقة، وناسك أميركي يعيش في كوخ. لم يكن هناك أثر لكل ما زعمه ماكغريغور عن مدينة، وميناء، وتجارة مزدهرة.

ولعل أكثر ما يمكن ملاحظته بالنسبة إلى الأنهار هو قلة شذرات الذهب. أمضت الدفعة الأولى من المستوطنين الذين حملتهم هندوراس باكيت بضعة أسابيع يحاولون فهمَ ما حدث ومكمنِ

خطئهم خلال انتظارهم تواصلَ السلطات البوياسية معهم، حيث عاشوا على الشاطئ في خيم وملاجئ بدائية.

بعد أسابيع عدة، وفي شهر آذار، وصلت سفينة أخرى – اسمها قلعة كينيرسلي – وعندها بدأت الأمور تسوء: فأولاً ازداد عدد المستوطنين من قرابة السبعين إلى أكثر من مئتين، وهذا عنى ازدياد عدد الأفواه التي تحتاج إلى طعام، وعدد الأجساد التي ستمرض، ولكن أسوأ ما في الأمر هو حدوث احتكاك فوري ما بين المجموعتين. كان القادمون الجدد – الذين استمعوا إلى قصص بيكين عن مدى روعة سانت جوزيف طوال الرحلة– سعداء بما وجدوه لدى وصولهم، ولكنهم لم يستطيعوا فهم لماذا لم يأمر الكولونيل هيكتور هال (الذي يُفترض أن يتسلم منصب نائب الحاكم) ببناء مزيد من البيوت أو لماذا لم يأتِ ليرحب بهم.

ربما يعزى السبب إلى أن دفعة المستوطنين الأولى لم يكن بينها أشخاص مؤهَّلون لبناء مدينة من الصفر، فهم مجموعة تتألف من مصرفي، وصائغ، ومرافق لرجل نبيل، وبعض الموظفين المدنيين، وفلاحين، وصانعي أثاث، وكلها مهن ممتازة في حال وجود عاصمة تدبُّ فيها الحياة، ولكن هذه المهارات كانت عديمة الفائدة لبناء مدينة، فأكثرهم مهارةً كان يعجز عن بناء أي شيء يتجاوز حجمه قطعة أثاث. لكن السبب الأساسي هو أن الكولونيل هال أدرك ما لم يدركه معظم المستعمرين بعد؛ أنهم خُدعوا على نحو كبير جداً، فلن تتواصل معهم أية سلطات بوياسية، وأدرك أيضاً أن مغادرة الشاطئ نحو الداخل تعني موتاً حتمياً، وأنه من المستحيل بناء أي شيء دائم بعد أن ابتعدت هندوراس باكيت عن الشاطئ خلال عاصفة حاملة معها لوازمهم، لذا أعطى الأولوية الآن لنجاتهم، وعندما عاد من رحلة استكشافية التي حاول فيها تحديدَ موقع سفينة هندوراس باكيت التي اختفت عن الأنظار، والتواصلَ مع الملك يورك فريدريك أغسطس (الحاكم الشكلي لقبيلة مسكيتو الساكنة في المنطقة، الذي عيّنه البريطانيون وكان بمثابة دمية بين أيديهم، وهو الذي يفترض أنه الذي أعطى ماكغريغور حقوق امتلاك بوياس في بادئ الأمر). شعر بالإحباط عندما علم أن الوافدين الجدد تركوا سفينتهم قلعة كينيرسلي تبحر بعيداً هي الأخرى. أما المستوطنون فلم يكونوا سعيدين لأنه لم يحضر معه سوى برميل صغير من الرام.

بسرعة كبيرة، تدهورت الأوضاع، وهبطت المعنويات بسبب النزاعات حامية الوطيس التي نشبت بين المستوطنين، وفشلت محاولات بناء مزيد من الملاجئ، ولكنّ الأسوأ حصل مع حلول موسم الأمطار – وتكاثر البعوض – فقد تفشّت الأمراض بين المستوطنين التي أوْدت بحياة كثيرين منهم. لم يكن أمام هال من خيار إلا إخفاء حقيقة أنهم خدعوا، خوفاً من رد فعل الناس، وقد انعكس ذلك عليه من خلال عدم الثقة به، وما عزز شك الناس به أنه يختفي لفترات طويلة وفي مهمات غامضة.

وبعد أن يئس صانع الأحذية المسكين جون هيلي من إمكانية رؤية عائلته مجدداً، انتحر مطلِقاً النار على نفسه عندما كان مستلقياً في أرجوحته[70].

في نهاية المطاف، وفي شهر أيار، بعد أشهر عصيبة، اكتشفت سفينةٌ من بيليز مخيمَهم البائس، وكان وصول هذه السفينة جيداً وسيئاً في الوقت نفسه؛ فالسيئ في الأمر أن البلد الذي ظنوا أنهم هاجروا إليه لم يكن له وجود، أما الجيد فهو أنهم سيستطيعون المغادرة. بعد أيام عدة من

المداولات والتماري تبيّن أن الرحيل هو القرار الحكيم، وذلك بعدما عاد هال من آخر رحلاته الاستكشافية الغامضة حاملاً رسالة من الملك فريدريك أغسطس ذكر فيها أن ما من أرض منحها لماكغريغور، وأنه ينظر إلى المستوطنين بصفتهم مغتصبين للأرض.

نُقل هؤلاء المستوطنون على دفعات إلى بيليز بالقوارب، وبما أن بعضهم كان مريضاً، وبعضهم الآخر مرض خلال الرحلة فمن أصل أولئك الـ 270 مستوطناً الذين أتوا على متن السفينتين لم يعد إلى المملكة المتحدة سوى خمسين شخصاً.

عند هذه النقطة، أعتقد أنه من المهم الإشارة إلى أن هذه القصة مألوفة – «سفن محمَّلة بالمستعمرين ترحل من اسكتلندا حاملة معها أحلاماً بجنة جديدة في أميركا الوسطى، ولكنّ هذه الأحلام تنتهي بالإفلاس، والمرض، والموت».

فالقصة التي عرضنا لها للتو لم تكن القصة الوحيدة، إذ إن قبل 125 عاماً انتظر مصير مشابه بضعةَ آلاف من الاسكتلنديين أقنعهم بائع حذِق معسول اللسان بأنه ترك مستعمرة مكتشفَة في داريان عند مضيق بنما[71]. في تلك الحالة لم يكن الأمر احتيالاً كامل الأوصاف، بل محاولة مفرطة بالطموح لتأسيس إمبراطورية اسكتلندية، وإثبات بضع نظريات لها علاقة بالتجارة العالمية، ولكنّ نتيجتَي الرحلتين كانتا متشابهتين؛ انتهى المطاف بنصف المستعمرين موتى، وأفلس العديد منهم، وكانت الحادثة برمتها إذلالاً قومياً للاسكتلنديين ليس بعده إذلال، وكان لهاتين الرحلتين أثرٌ مدمِّر على اقتصادهم، وساعد في دفعهم إلى الاتحاد مع إنكلترا.

ما تقدم يحملنا على طرح السؤال التالي: كيف يمكن الوقوع في الفخ مرتين بعد مرور أكثر من قرن؟

للإجابة عن هذا السؤال علينا إلقاء نظرة على ماكغريغور ذاته، لنفهم الطريقة التي استطاع من خلالها إقناع هؤلاء الأشخاص بوجود بلد لا وجود له، وبإفساد حياتهم من أجله.

لقد أتقن ماكغريغور جيداً فنَّ التملق، وكسب دعم الأشخاص، ولكنه للأسف كان سيئاً جداً في الحفاظ على دعمهم.

في البدء، سأُطلعكم على ما لا أظن أنه سيفاجئكم، فبلد ماكغريغور لم يكن الأمر الوحيد الخيالي، إذ إن قصصَ كثيرٍ من سيرته الذاتية كانت خيالية هي الأخرى. صحيح أنه ينحدر من عشيرة ماكغريغور إلا أنه لم يكن رئيس العشيرة أو سليلاً مباشراً لروب روي، بل كان من الفرع الذي لا يمتلك امتيازات في العشيرة. وصحيح أنه خدم في الجيش البريطاني، إلا أنه لم يشارك في معركة ألبويرا لأنه أُجبر على ترك فوج المشاة الملكي قبل سنة من المعركة بعد ما وُصف بعبارة ملطفة «سوء تفاهم مع ضابط أعلى رتبة»[72]. وصحيح أنه انتُدب لاحقاً إلى الجيش البرتغالي إلا أنه لم يخدم فيه إلا لأشهر قليلة قبل أن يحدث الأمر ذاته الذي حصل في الجيش البريطاني.

إلا أن لقب الفروسية التي مُنح إياه في البرتغال خلال الأشهر القليلة التي خدم فيها في صفوف الجيش البرتغالي، وأمضى معظمها في إزعاج رؤسائه يبقى لغزاً على القراء حلّه. لا بد أنكم استنتجتم أن مشكلة ماكغريغور تكمن في ميله ليكون ذا مكانة ومنصب رفيع إلا أن إمكاناته وجهوده لم تتيحا له ذلك. وكما قال المؤرخ ماثيو براون (الذي كان أكثر تعاطفاً مع ماكغريغور من معظم الكتاب الآخرين) «ماكغريغور رجل متغطرس ومهووس بالمكانة الرفيعة»[73]. تزوج من عائلة عسكرية ثرية، تربطها صلات بذوي الحل والربط، واتبع التقاليد العريقة التي تقتضي ابتياع رتب الجيش وترقياته، إلا أنه ومع كل شريط زاده إلى زيه، كان يصبح أكثر غطرسة وعصياً على الاحتمال. بعد أن طُرد من الجيش عام 1810 ازداد التزامه بنهجه هذا بدل أن يأخذ الوقت الكافي لمراجعة تصرفاته فمنح نفسه لقب الكولونيل، وأخذ يجول مع زوجته في شوارع إدنبرة متباهيين مرتديَين أفخر ملابسهما. وكما كتب عنه أحد أعدائه عام 1820 فقد استمتع بحريته «بحكمة قليلة وتفكير أقل»[74].

فجأة توقف كلّ ذلك سنة 1811، عندما ماتت زوجته ماريا. فبعد أن حُرم من ثروة زوجته، لم يعد باستطاعته تمويل طريقة عيشه الفاخرة. وعندما وجد نفسه من دون مال أو هدف فعل ما فعله كثير من أفراد الجيش البريطاني السابقين: رحل إلى أميركا الجنوبية ليحارب الإسبان، لقد سافر بسرعة قاصداً فنزويلا.

اقترب ماكغريغور من سد الفجوة التي تفصل ما بين صورته وإنجازاته الفعلية في فنزويلا، فمثل كثير من أساتذة الجامعات المتفرغين الذين يأخذون عطلة لمدة سنة، ذهب ماكغريغور في رحلة إلى بلد أجنبي ووجد نفسه هناك، وسرعان ما أصبح مؤتمَناً على أسرار الجنرال الثوري العظيم فرانسيسكو دي ميراندا الذي نظر إليه ماكغريغور بإعجاب كبير: فكان باحثاً كبيراً عن المتعة، ومتمرساً في العلاقات الجنسية، وتشاركا أيضاً حبهما لامتيازات السلطة، ولكن على عكس ماكغريغور كان ميراندا عبقرياً عسكرياً. لم ينسجم ماكغريغور مع ميراندا فحسب بل تزوج للمرة الثانية من امرأة ذات صلات قوية بذوي الشأن: الآنسة دونا جوزيفا أنتونيا أندريا أريستيغويتا يا لوفيرا، وهي ابنة عم التحرري الأسطوري سيمون بوليفار.

لم يكن سجل ماكغريغور العسكري مثالياً في فنزويلا، ولكنّ بالرغم من كلّ شيء، كان جيداً بما فيه الكفاية، وتضمن على الأقل إنجازاً وحيداً استحق من أجله التكريم. في الحقيقة، كان من الممكن أن يكون أفضل بكثير لو أنه لم يصل إلى فنزويلا في الفترة التي مرت خلالها قوى الاستقلال الفنزويلية بفترة عصيبة، ولكن تم الاحتفاء ببطولته لإشرافه على انسحاب مهم من أوكيومير سنة 1816حيث قاد قوة مكونة بشكل أساسي من عبيد تحرروا مؤخراً وحاربوا بشجاعة الأعداء وهو ما اعتُبر عملاً استثنائياً لحامية الجيش، وسمح لجيش الاستقلال بالتجمع مجدداً.

أخيراً، حصد ماكغريغور الاستحسان الذي كان يرغب فيه، ولم يكن مصدره الألقاب المزيفة أو الرشاوى بل الإنجازات المستحقة. ولكن بعد فترة قصيرة، حصل خلاف مأساوي بين ماكغريغور والفنزويليين فتركهم.

منذ ذلك الحين، غدت مسيرته المهنية تزداد جنوناً، لا سيما عندما بدأ بالعمل المستقل. في عام 1817 حاول اجتياح فلوريدا والاستيلاء عليها من الإسبان، إلا أن الأمر انتهى بجيشه عالقاً لستة أشهر على جزيرة صغيرة احتلوها قبل أن يرحل تاركاً جنوده بمفردهم. وقاد أيضاً هجوماً كارثياً على قناة داريان – في المكان ذاته الذي أُذلت فيه اسكتلندا في القرن الماضي، وهذا ما استند إليه ماكغريغور بالتحديد خلال جهوده لجمع أفراد جيشه، فقد زعم أن أحد أسلافه ذهب في تلك الرحلة الاستكشافية المنكوبة، وصوّر الأمر على أنه فرصة لاسترداد شرف الأمة. لكن الرياح لم تجرِ بما تشتهي سفنه، ففي بورتوبيلو طوّقته القوات الإسبانية عندما كان نائماً، وانتهى به المطاف قافزاً من نافذة غرف نومه من دون بنطال وسبح حتى الوصول إلى بر الأمان. لقد صمّم مايكل رافتر الذي خدم في جيش ماكغريغور في داريان، الذي أُعدم أخوه بعد أن استعادت إسبانيا السيطرة على بورتوبيلو، على كشفِ النقاب عن حقيقة ماكغريغور، وقد اقتبسنا من سيرته الذاتية ما يختصر شخصية بطلنا بقوله: «فسدت أخلاق ماكغريغور بسبب الازدهار، وسرعان ما غير تفننه وتكبره جوانبَه الجيدة»، وهذا ما نراه وصفاً عادلاً[75]. وفي الكتاب وصفت هذه المغامرة المكروهة ماكغريغور على أنه يصدر الأوامر عن ظهر السفينة حاملاً في يده كأس نبيذ[76]. ووصفت مجلة جامايكا الأمر بكلمات غير جذابة: «بدأ رحلاتِه الاستكشافيةَ بذريعة التصدي للقراصنة قبل أن ينهيها بنهب أصدقائه... يبدو بأن هدف هذا القائد العظيم أصبح الآن عديم الفائدة تماماً وأصبح البطل ذاته لا يستحق أي اهتمام»[77].

طوال هذه الفترة، كان ماكغريغور يصقل ثلاث صفات في شخصيته، ومن خلال النظر إلى الماضي يبدو أنها كانت تحضيراً لمخطط بوياس، فهو امتلك موهبة تجنيد المواطنين لتنفيذ مهامه، وأقنع عشرات الجنود بمغادرة اسكتلندا والالتحاق به في مغامراته عبر المحيط. عملياً، لقد بنى منظومة خيالية، في البدء قام بأول جولة عسكرية لقوات الصليب الأخضر في فلوريدا قبل أن يطلق العنان لموهبته في البروباغندا عندما منح نفسه أعظم الألقاب وأنبلها بعد رحلة استكشافية واحدة، كتب رافتر في (تذكار دائم للضلال المفرد للعقل الإنساني): «كانت لماكغريغور إمكانات لا مثيل لها في إعلان نفسه 'إنكا غرينادا الجديدة'[78]!!».

ولكن أحد تصرفاته بشكل خاص كان غريباً فقد كانت له علاقة بأميركا اللاتينية والكاريبي في ذلك الوقت[79].

حسناً، كان غريباً إلى حد ما، ولكنه لم يكن أمراً شنيعاً تماماً فمنحُ الشخص نفسَه ألقاباً فاخرة لم يكن أمراً غريباً على زعماء المنطقة، إذ إنه مع سقوط إمبراطوريات، وصعود أخرى ورقصات المامبو، شهدت المنطقة تقلباتٍ دائمةً وكانت لقمة سائغة، فانتشرت الاستثمارات القائمة على المضاربة من أميركا اللاتينية في بورصة لندن مما أدى إلى تشكل فقاعة من شأنها أن تنفجر بعد فترة وجيزة من ذهاب العدد القليل من الناجين من بوياس إلى موطنهم.

يبدو أن الملك جورج فريدريك أعطى ماكغريغور بعض الأراضي (كان الملك جورج يوزع أراضي في كثير من الأحيان، وذلك مقابل الحماية أو الخدمات السياسية) وإن لم تكن الأراضي التي حصل عليها ماكغريغور باهظة الثمن كما ادعى، بالتأكيد لم تكن باهظة الثمن لدرجة أنه يمكنه أن

يحكمها بوصفها دولة جديدة. لكن مع ذلك، تعتبر الإشارة إلى قطعة أرض والقول: «هذه ملكي الآن» بشكل قانوني، وإقناع بعض الناس الموهوبين بالرحيل والاستقرار فيها بالرغم من ارتفاع احتمال موتهم، احتيالاً واسعاً ولا يختلف كثيراً عن كيفية عمل الاستعمار.

إن كان مخطط ماكغريغور الأرعن قد نجح في إقناع عدد كبير من الناس، فذلك لأنه كان انعكاساً للوضع في ذلك الوقت بقدر ما هو انحراف عنه.

لكن ذلك لا يجيب عن السؤال بشكل كامل لأنه كان هناك شك كبير دائر حول ادعاءات ماكغريغور. كانت هناك بالفعل السيرة الذاتية الانتقامية التي كتبها رافتر عن ماكغريغور التي كُتبت قبل سنة واحدة من البدء بخطة بوياس، وهذا ما جعل بعضهم يدركون حقيقة أن ماكغريغور كان كاذباً، ولكن الصحافة استقبلت مغامرة بوياس ذاتها والكتاب التي نشر خصيصاً لدعمها بكثير من ردود الفعل المستغربة. فقد نشرت مجلة لندن الأدبية في الأول من شباط عام 1823 مراجعة عن (مخطط لشاطئ البعوضة)، وطرحت بعض الأسئلة عن الخصائص المميزة المستخدمة في وصفه: «كيف تسير الأنهار أو كيف يمتد مجرى النهر لمئات الأميال متخطياً حدود البلد». وذكرت المجلة أن كثيراً مما كُتب يذكّر: «بقصص القرصنة والمغامرة التي جرت منذ قرنين»[80].

أما الكوارتيرلي فكانت شديدة القسوة في مراجعتها للكتاب وهي معروفة بخلط سياسة المحافظين مع المراجعات الأدبية. يمكننا القول إن مراجعة الكوارتيرلي لكتاب (مخطط لشاطئ البعوضة) في عدد تشرين الأول سنة 1822 لم تكن لطيفة. ولكن لتوضيح الأمر، قبل سنة واحدة فقط، اتهم بيرسي بايشي شيلي الكوارتيرلي أن مراجعتها القاسية لجون كيتس كانت السبب بقتله حرفياً[81]، حتى بعد أخذ الحساسية الشديدة للشعراء الرومانسيين بعين الاعتبار فلا يزال ذلك إنجازاً في مجال النقد السيئ، ويشير إلى أنه لم تتم معاقبة ماكريغور بالقدر الكافي.

إن الشيء الأكثر بروزاً في مراجعة الكوارتيرلي ليس سخريتهم من وصف الكتاب للأرض «تنمو كل الثمار اللذيذة من دون زراعتها، وتهتم الأبقار والأحصنة بنفسها وحيث تجري الخنازير المشوية والشوك مغروسة في ظهورها صارخة (تعالوا كلوني)»، قبل أن يقول المؤلف في النهاية «إن المسألة برمتها [قد تكون] محض خدعة كما تدعى بالعامية»[82].

لكن ما يثير الاهتمام حقاً هو أن الكاتب المجهول الذي نحن بصدده يعلم بدقة ما يتكلم عنه، ويمتلك تفاصيل دقيقة للغاية. وبلغة أكثر عصرية؛ إنه يملك إرادة الوصول ويملك خرائط مرجعية. ويشير بدقة إلى أنه «يجب أن نعلمهم... بأن بوياس هي بلدة سخيفة تتكون من الأكواخ والبيوت المصنوعة من الخشب وتنتمي إلى إسبانيا»، قبل أن يكمل ويكتب بعد صفحات عدة عن تفاصيل الوضع السياسي المحلي، والطبيعة الدقيقة للمعاهدات التي تحكم المنطقة، فقد أبطلت كلها أيَّ حق قد يكون لدى ماكغريغور في امتلاك الأرض. فتوقع أنه «إن كان هناك مستوطنون سذج شنيعون فسيتم اعتبارهم.... محتلين وسيُعامَلون على هذا الأساس». وهو أيضاً يشك في حقيقة وجود مؤلف الكتاب الكابتن ستراينجوايز لأنه ما من دليل في الكتاب يشير إلى أن قدميه وطئتا شاطئ البعوضة. وأخيراً

يسأل إن كان المؤلف هو زعيم العشيرة ماكغريغور؛ الرجل الذي «قفز من نافذة تاركاً وراءه سرواله» قبل بضع سنوات.

فوفقاً لجميع المعايير قد تعتقدون بأن مخططات ماكغريغور للنجاح دُمرت تماماً؛ فما كتب عنه نقدٌ قاسٍ يصعب التعافي منه. ولكن بالرغم من ذلك يبدو أن خطة بوياس لم يكن للانتقاد أن ينال منها. هنا نكون أمام احتمالين: أولهما أن العديد من المستوطنين، لم يكونوا مشتركين في الكوارتيرلي أو لم يكونوا من المتحمسين لقراءتها، وثانيهما أنهم تمنوا جميعاً أن تكون ترهات، وهذه نقطة مهمة جداً يدركها كل المحتالين على مرّ الأزمنة، فرغبة اليائس في الوثوق بالخيال تتيح تصديقه. إذ إنه بالرغم من كل ما جرى، ظل أفراد مجموعة من المستوطنين المخدوعين يصرون على نحو لافت على أن ماكغريغور بريء مما يُنسب إليه، ويلقون باللوم على الكولونيل هال، ويعتقدون أن ماكغريغور لم يعِد أحداً بتلك الأشياء المجنونة، فالخطأ يقع على عاتق الخيال المفرط لأشخاص مثل بيكين. (لم يكن ذلك الدفاع جيداً بما فيه الكفاية، فبالرغم من احتمالية أن المستوطنين قد أقنعوا أنفسهم بتصديق أشياء أكثر مما أخبرهم ماكغريغور، إلا أنه يصعب غض النظر عن التفاصيل المضللة بشكل واضح التي طبعها ماكغريغور مثل أن المستثمرين يمكنهم إثبات ملكيتهم للأراضي من خلال تقديم صكوك الملكية لمكتب التسجيل في العاصمة سانت جوزيف في بوياس)».

لكن لم يكن ضحايا خطة ماكغريغور الوحيدين الذين أرادوا أن يكون الأمر حقيقياً بشكل يائس. فعلى الرغم من جميع العناصر الواضحة للخدعة يبقى السؤال الأساسي لقصة ماكغريغور: إلى أية درجة كان محتالاً؟ وما هي كمية الأشياء التي كان يصدّقها بالفعل؟ خاصة عندما تأخذ بعين الاعتبار ما حدث بعد أن كُشفت خدعته وأصبح محط سخرية الجميع، إلا أنه ببساطة تابع حياته وكأن شيئاً لم يكن.

لم يظهر أي دليل على أنه نادم لأن أشخاصاً ماتوا لا لشيء إلا لأنهم وثقوا به، فقد رفض القبول بالقصص التي رواها الناجون لصحيفة مورنينغ هيرالد التي قاضاها بتهمة الافتراء بعد نشرها مقالات ذُكرت فيها قصص نسبتها للناجين، ولكن لم يعرف إن كان سيربح الدعوى لأنه خسرها قبل البت فيها بسبب فراره إلى فرنسا، محاولاً القيام بنسخة جديدة ومنقحة من خديعة بوياس.

في عام 1825، انهارت سوق الأوراق المالية في لندن، بعد انفجار فقاعة أميركا اللاتينية، وكانت أحد أسبابها الرئيسة قضية بوياس. فقد أفلس ستون مصرفاً، وكان على مصرف إنكلترا الاستعانة بالفرنسيين لدعمه، وترددت أصداء انفجار الفقاعة في أنحاء العالم من خلال الآثار التي خلفتها.

وقتها كان ماكغريغور في فرنسا يكتب دستور بوياس، ويجند مجموعة جديدة من المستوطنين، ولم تتنبه السلطات الفرنسية لما كان يقوم به، إلا عندما وصلها عدد غير عادي من طلبات جوازات السفر لأشخاص أرادوا السفر إلى بلد لم يكن له وجود على أية خريطة، عندها قُبض على ماكغريغور بتهمة الاحتيال، ولكن محاكمته فشلت.

لاحقاً، سيمضي ماكغريغور أكثر من عقد وهو يحاول أن ينطلق بخطة بوياس بعد أن تبخرت أية فرصة لنجاح هذه الخدعة. عرضت تامار فرانكيل أستاذة القانون في جامعة بوسطن،

للمحات موجزة عن حياة المحتالين في كتابها أحجية سلسلة بونزي. ولم تكن الصفات التي ذكرتها مفاجئة: فالمحتالون يفتقرون للتعاطف وهم نرجسيون وجشعون يبررون أفعالهم لأنفسهم، وعندما يُقبض عليهم ينكرون كل شيء، ويبعدون أصابع الاتهام عنهم، ويلومون أي شخص، متجنبين تحمل المسؤولية. وعادة ما يبررون أفعالهم بأنهم ببساطة يعكسون تصرفات من حولهم بقولهم: كل من حولي منحرف أيضاً، ويستحق الضحايا ما لحق بهم لأنهم طماعون وفاسدون، فكما يقول المثل «لا يمكنك خداع رجل صادق». (وذلك غير صحيح. بإمكانك بالتأكيد أن تفعل ذلك. فبعض الأشخاص الصادقين سذّجٌ للغاية).

لكن ما تقدم ليس كل ما ذكرته فرانكيل التي تابعت تقول:» المحتالون مدمنون على الأحلام غير الواقعية والطموحات الكبيرة»[83]. وعندما تقارن فرانكيل بين المحتالين الممثلين تقول: «يمثل المحتالون الشخصية التي طالما حلموا أن يكونوها»[84].

لقد حلم ماكغريغور ببلاد غير واقعية أكثر من غيره من المحتالين، ولكن المرتكزات كانت ذاتها، لم تتغير. إن إيمان المحتالين بخططهم لا ينفع في تبرير أفعالهم، بل هو جزء من السبب الذي يحمل الناس على عدم تصديقهم، وفي ذلك تقول فرانكيل: «إن إيمانهم بخططهم يجعلهم يصدقونها»[85].

أما اليوم، فبفضل عقود من الأفلام والمسلسلات التي تحصد النجاح من خلال تصوير الحيل المثالية، تكوّنت لدينا الفكرة التي مفادها أنه يجب على كل الحيل أن تكون معقدة ومليئة بالمنعطفات والتقاطعات غير المتوقعة الأمر الذي يعزز حبكتها. لذلك، قد يكون من الجدير معرفة أصل كلمة «محتال»: (محتال تعني «كون» باللغة الإنكليزية) إذ إن كلمة «كون» أصبحت اليوم كلمة شائعة، ولكن أصلها محدد جداً، فهي أتت من عبارة (رجل الثقة – كونفيدنس مان) واستُخدمت في البداية لوصف شخص واحد؛ شاب اسمه ويليام ثومبسون.

ثومبسون محتال نيويوركي، ظهر في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر، وكانت حيلته في غاية البساطة فقد استغل لباقته وأناقته ولسانه المعسول ليبني خديعة على الشكل الآتي: كان يذهب ويتحدث إلى غرباء في الشارع، وبعد محادثة لطيفة مع أحدهم يسأله: «هل تثق بي بما يكفي لتعيرني ساعتك حتى يوم غد؟»[86].

كان الناس يُصعقون بطلبه غير المتوقع، وقد أعطاه كثيرون منهم ساعاتهم، ولم يروا وجهه مجدداً.

قد يكون ثومبسون أول شخص حصد لقب المحتال، ولكن بالطبع وُجد المحتالون منذ أن وجد السذج. لعل محتال أميركا الأول والأسطوري هو توم بيل الذي عاش في النصف الأول من القرن الثامن عشر. لقد طُرد توم من هارفارد بسبب سجل طويل من «التصرفات الوقحة»، لذلك استخدم معرفته بالإشارات الاجتماعية لنخبة أميركا الغنية ليشق طريقه بالغش عبر المستعمرة لسنوات عدة، مستغلاً من دون رحمة الاعتقاد الشائع بأن من يكون مهندماً، ويتصرف تصرفات الطبقات العليا، لا يمكن أن يكون نصاباً. (وقد يعود هذا اللقب إلى الغشاش الذي سرق قميصاً ومنديلاً

من بينجامين فرانكلين بعد أن استطاع خداع الناس بكلامه ليدخل إلى بيت فرانكلين متنكراً بزي معلم اسمه ويليام لويد. تلك ليست بخدعة مبتكرة تماماً، وها أنذا أشعر بالانزعاج لأن صفحات عديدة من هذا الكتاب مرت ولم أتحدث فيها عن فرانكلين).

إن أردتم أن تقرؤوا مثالاً عن خدعة معقدة كانت عواقبها وخيمة فخدعة جون دي فالوا سانت ريمي هي ما أنتم بحاجة إلى قراءته. لقد استثمرت الكونتيسة دي لا موتي؛ وهي طفيلية اجتماعية فرنسية محتالة لقبَها الذي منحته لنفسها، وصداقتها التي كانت من نتاج بنات أفكارها ليس إلا مع ماري أنطوانيت لتنفذ خدعة اشترت بها قلادة ماسية لا تُقدر بثمن بمال مقترض، واقتضت الخدعة أن تستعين ببائعة هوى لتنتحل شخصية الملكة خلال لقاء مع الكاردينال الكاثوليكي (الذي كانت جون على علاقة معه أيضاً).

جون دي فالوا سانت ريمي أو التي لقَّبت نفسها الكونتيسة

دي لا موتي (يعود الفضل بالصورة إلى: غيتي)

كانت الخطة على وشك النجاح، لكنها فشلت عندما علمت الملكة بأمرها. خلال المحاكمة أدينت جون، ولم تكن عقوبتها أفضل من العقوبة التي أنزلتها الثورة بماري أنطوانيت: وجهت المحاكمة اهتمامَ الشعب على إسراف العائلة المالكة فتحولت ماري أنطوانيت من ملكة غير محبوبة

إلى ملكة مكروهة. وساعد كل ذلك في إشعال نيران الثورة الفرنسية بعد بضع سنوات، التي أخذت لماري موعداً مع المقصلة.

لكن إن كان حافز كل هؤلاء المحتالين هو المال والثروة بشكل كبير، فإن حافز أحد أكثر المحتالين إثارة للاهتمام كان شيئاً مختلفاً.

في خريف عام 1951 بدأت هذه الحكاية في مدينة إدماندستون الكندية، حين أمسكت ماري سير صحيفة، ودُهشت عندما قرأت مقالاً يعرض قصة بطولة ابنها جوزيف في الحرب.

لقد ذُكر في المقال أن الدكتور جوزيف سي سير أنقذ حياة أحد جنود الجيش الكوري الجنوبي الجرحى في أثناء خدمته مع القوات البحرية الكندية في الحرب الكورية، الذي نُقل في قارب صغير، وهو في الرمق الأخير، إلا أن الدكتور جوزيف سير أنقذه من خلال إجرائه لعملية جراحية استغرقت طوال الليل في غرفة عملية فقيرة التجهيزات على متن سفينة تواجه عاصفة شديدة إذ إنه تمكن من إزالة رصاصة من مكان بجوار القلب. احتفى مكتب الصحافة العسكري الكندي بفخر ببطولة الدكتور سير ومهاراته لأنهم شعروا بسعادة غامرة لدى سماع بعض الأخبار الطيبة من الحرب.

كان السبب وراء دهشة ماري هو ثقتها التامة بأن ابنها لم يكن في القوات البحرية الكندية، وبالتأكيد لم يكن في مكان ما في كوريا. في الحقيقة، كان يمارس مهامه الطبية على بعد أربعين ميلاً، ولكن رأت أنه من الأفضل التأكد من الأمر.

جوزيف رجل هادئ وطيب القلب يتحدث لغتين بطلاقة لأن أمه تتكلم الإنكليزية وأباه يتكلم الفرنسية[87]. لعله أمر غير مفاجئ أن ينتهي المطاف بجوزيف يمارس الطب في مجتمع صغير ثنائي اللغة هو نيو برونسويك في غراند فولز/غراند سول المتوضع بالقرب من الحدود، حيث كان يجلس بهدوء عندما بدأت الاتصالات الهاتفية تسأله إن كان على سفينة في كوريا.

في البدء، لم يعِر الأمر أهمية، واعتبره مجرد تشابه أسماء بسيط، لكن فرضيته هذه لم تلبث أن تداعت، عندما تبيّن أن ما من أحد في كندا يدعى جوزيف سي سير غيره. ثم تذكر أن العديد من شهاداته الطبية وغيرها من الوثائق التعريفية قد فُقدت في الشتاء الماضي، وعندما فكّر في الأمر أدرك من الذي أخذها، لقد كان الأخ جون وهو راهب محلي كان صديقاً مقرباً منه قبل أن يختفي بشكل غامض.

بالطبع لم يكن الشخص الذي صادفه جوزيف سير الأخ جون بل منتحلاً لاسمه وصفته، ولم يكن أيضاً عالم الأحياء والباحث في السرطان الدكتور سيسيل هامان، ولم يكن أيضاً الدكتور روبيرت لينتلون الفرنسي أخصائي علم النفس الذي درّس في ستانفورد الذي انتحل شخصيته قبل أن يكون الدكتور هامان وسير.

في الحقيقة، كان الأخ جون أميركياً اسمه فرديناند والدو ديمارا وهو رجل كان على وشك أن يخلده التاريخ بوصفه أعظم محتال. ما يميز ديمارا عن سائر المحتالين الأسطوريين أن دافعه لم

يكن المال، بالرغم من أنه أصدر شيكات من دون رصيد، ولكنه لم يستخدم مهاراته قط في الحصول على كميات كبيرة من النقود أو ليعيش حياة باذخة. كان موهوباً في الهندسة الاجتماعية، وفي إقناع الناس من مختلف المهن بأن يعينوه بالاستناد إلى ثقتهم به، وكان بإمكانه استخدام هذه الموهبة ليحقق غايات مروعة، ولكنه استخدمها بشكل خاص ليشق طريقه عبر الخداع، ويقوم بسلسلة من الأعمال الصالحة في الخدمة العامة، وبمضي السنوات أصبح طبيباً، ونائب عميد في الجامعة، وطالب حقوق، وحارساً في سجن، ومعلماً وراهباً، حتى إنه ترأس قسم الفلسفة في إحدى الجامعات.

لم يخدع ديمارا الناس ليسرق أموالهم. بل خدع الناس ليمنحوه احترامهم، وربما ليحترم هو نفسه أيضاً. ما يميز ديمارا أنه لم يكن جيداً في خداع الناس للحصول على عمل ما فقط، بل غالباً ما كان يجيد القيام به بشكل مفاجئ أيضاً. فقد كان متعلماً سريعاً ذا ذاكرة رهيبة، وقد تمكن من إقناع جامعة كاثوليكية في بنسيلفانيا منتحلاً شخصية الدكتور فرينش أن تعينه عميداً لكلية الفلسفة الجديدة حيث سيتابع مسيرته ويدرّس علم النفس في جامعة كاثوليكية أخرى (وكان سره كما قال هو أن يقرأ ما سيعلّمه قبل الدرس – «الطريقة المثلى لتعلم أي شيء هو أن تدرّسه»[88]) بالطبع كان هنالك عمله المنقذ للأرواح على ظهر السفينة كايوغا في أثناء انتحاله شخصية الدكتور سير التي استطاع النجاح بتأديتها من خلال قراءة كتاب عن الجراحة بسرعة قبل أن يجري العملية.

كانت لمواهبه المدهشة أن تخدمه بشكل ممتاز لو وظّفها باسمه الحقيقي، وكان سيصيب قدراً كبيراً من الشهرة، لكن يبدو أن ديمارا لم يكن يشعر بالراحة عندما يعمل باسمه الحقيقي، فقد سعى لإيجاد مكان له في هذا العالم، ويبدو أنه وجد في تحوله إلى شخص آخر – وبالأخص إلى شخص يفتقر ديمارا إلى أوراقه الثبوتية – طريقاً مختصراً يخترق الضجر والإحباط اللذين يرافقان السير في الطريق البطيء للحياة.

لقد وجد أن الاستقرار أمر صعب، فلم يكن واثقاً تماماً أية شخصية أراد أن يكون، فقد عاد إلى مجال التعليم مراراً وتكراراً؛ وتطوع في الخدمات العسكرية وتركها عدة مرات منتحلاً أسماء وصفات عديدة، ويبدو أن جهوده الكبيرة لتنفيذ الأوامر الدينية تحت اسمه أو أسماء مستعارة كانت بدافع رغبة صادقة في التطوير الروحي، فقد كان انتقاله من مهنة إلى أخرى نسخة مشوهة لما يُقدِم عليه الشبان ممن هم في العشرين من العمر في محاولة منهم لاكتشاف ذواتهم (ملاحظة للقراء الشباب: كان ذلك شيئاً تستطيعون القيام به قبل الانهيار الاقتصادي عام 2008. كان أمراً خلاباً بالفعل).

في عام 1951، وبعد اكتشاف حقيقة أنه لم يكن الدكتور جوزيف سير، أصبحت قصته على كل شفة ولسان في أميركا الشمالية، وفي عام 1952 وافق على إجراء مقابلة مطولة مع مجلة لايف روى فيها القصة من وجهة نظره– والتي لا يعول عليها على الأرجح– التي أعلن في نهايتها عن رغبته في الظهور في الحياة والتصرف على حقيقته. وهذه الرغبة سيعيد التعبير عنها في عام 1956 [89]، عندما تم القبض عليه بعد فشله بوصفه بينجامين دبليو جونز وهو حارس سجن في تكساس؛ انتهى عمله هذا عندما تعرّف إليه أحد السجناء بسبب نسخة قديمة من مجلة لايف. لم تستمر خطة الاستقرار باسمه الحقيقي سوى بضعة أشهر قبل أن يصبح فجأة مارتين غودغارت؛ وهو أستاذ في

مدرسة للمحتاجين تتوضع على جزيرة نائية في ماين. وبعد أن قُبض عليه هناك، روى قصته مجدداً للكاتب روبرت كريشتون مصراً هذه المرة على أنه بالتأكيد سيمشي على الصراط المستقيم، إلا أنه عاد بعد فترة لينتحل شخصية غودغارت مجدداً معلِّماً أطفال الإسكيمو في نقطة بارو في ألاسكا وهي أقصى نقطة في شمال الولايات المتحدة الأميركية – وأبعد مكان يمكن تخيله، وكأنه يحاول الهرب أسرع ما يمكن من ماضيه. كانت الأمور تسير على ما يرام حتى بعد أن تعرف إليه صياد من خلال مجلة لايف، بعد ذلك سعى لأن يكون مهندس جسور في المكسيك، ومأمور سجن في كوبا حيث حقق نجاحاً محدوداً.

لاحقاً، سيحوّل كريشتون قصة ديمارا إلى كتاب لاقى رواجاً كبيراً حمل عنوان المحتال العظيم، الذي أصبح لاحقاً فيلماً أدى فيه توني كورتيس دور البطولة، لم يكن ديمارا سعيداً بذلك، وأبدى تململه لأن الفيلم جافى الحقيقة.

في تلك المرحلة، وبعد أن ذاعت شهرة ديمارا لم يعد قادراً على النجاح في انتحال أية شخصية، ومنذ عام 1960 سجنته سمعتُه السيئة، وأجبرته على العيش في سجنه الذاتي. أخيراً، التحق مجدداً في الكهنوت، وأصبح هذه المرة راهباً باسمه الحقيقي حيث عاش عقدين من حياة طيبة وكريمة في مجتمع محب. عندما توفي سنة 1982 صرّح طبيبه للأسوشيتد برس: «لقد كان أكثر رجل تعيس قابلته في حياتي»[90].

لقد استطاع ديمارا التنقلَ بين الشخصيات، وتولي مناصب ذات مسؤوليات كبيرة بسهولة تامة، لأنه أحسن استغلال الخصائص البنيوية للمجتمع الأميركي حينها، وما سهّل من تطوره هذا هو العدد الكبير من رسائل التوصية من قسيسين عدة وأشخاص بارزين آخرين (وقد تمت كتابتها كلها للرجال الذين انتحل شخصياتهم) وقد وثق الجميع بهذه الرسائل، واعتبروها مثبتة لشخصيته. وبعد أن فتحت تلك الرسائل الباب أمامه، كان يعلم تماماً كيف عليه أن يتصرف ليثبت موقعه أكثر. فكما قال كريشتون في كتابه (المحتال العظيم)، كانت إحدى حكمه الأساسية هي «في كل منظمة هناك قوة لم يستخدمها أحد، تنتظر من يستخدمها، وما من أحد مستبعد عن هذا الدور»[91] وتلك نصيحة قد تصلح لأن تكون أساس كتاب مساعدة ذاتي على مستوى الشركات، يتمحور حول كيفية التقدم في العمل، وتصلح أيضاً لأن تكون ضمن كتاب سيرة ذاتية لمحتال.

يتكيف المحتالون البارعون مع الثقافة التي يعملون ضمنها أضف إلى ذلك أنهم من نتاجها. في الوقت الذي استطاع فيه ديمار إيجاد منافذ له في الولايات المتحدة الأميركية في خمسينيات القرن العشرين، سبقه إلى ذلك فلاديمير غروموف في عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته.

قد لا يبدو الاتحاد السوفياتي في ظل حكم ستالين المكان المناسب ليكسب محتال بارع لقمة عيشه، وبالفعل لو فكر غروموف في أمور تافهة من قبيل «سيتم الحكم عليك بالإعدام وأنت في السادسة والثلاثين من العمر» لكان اختار مهنة أخرى. ولكن إن نُظر إلى الأمر من زاوية «هل استطعت أن تخفف حكم الإعدام عن طريق كتابة مسرحية تدور حول قصة حب رجل بلشفي لامرأة

رأسمالية جميلة تصغره بمقدار النصف، وإرسالها إلى نائب السكرتير العام للاتحاد السوفياتي» فإن الأمور عندها تبدو أفضل قليلاً بالنسبة إلى غروموف.

يكمن دهاء غروموف في أنه أحسن استغلال مناخ الخوف، والقمع، والبيروقراطية، والجمود العقائدي خلال السنوات الأولى من حكم ستالين، وهذا ما نجح فيه إلى حد كبير فقد أظهر نفسه في شخصيات عديدة مثل مهندس ومقاول وجنى من وراء ذلك ثروة لا بأس بها.

لقد أدرك أن سعي بيروقراطية الاتحاد السوفياتي النهم للتوثيق الذي لا يشبع، ترك للنظام قدرة ضئيلة جداً على التحقق من صحة المعلومات الموثقة. لذا عوضاً عن تجنب أن يُكتشف، فضّل أن يغرق النظام بالمعلومات والوثائق فقد سرق الوثائق وزوّرها بحماس متسرع كي يستطيع التنقل ما بين الوظائف، واستطاع أن يحرف أي سؤال قد يواجهه عن طريق الاستئنافات المناسبة للعقيدة البلشفية، وبعد أن أقنع أحدهم بتقبل شخصيته، استغل القوة المهيبة لمكانة ستالين وأوامره ليتأكد من أن أحداً لن يزعجه أو يشك به، وهي حلقة تغذية استرجاعية مثالية من الهراء فرضتها الثقافة الفاشستية التي كان من المفترض أن تسحق أي نوع من الاضطهاد.

فكما قال المؤرخ غولفو أليكسوبولس: «لم يتفادَ السلطات بل اندفع نحوها مغرقاً إياها بسيل من أوراق توظيف مزيفة ومطالباً بحقوق غير صحيحة، كل ذلك في ظل امتعاض شديد من السلطات البيروقراطية»[92].

كان أسلوب عمله تقديم أوراق أعمال مزيفة مستعيناً بمستندات مزيفة وذلك من أجل الحصول على موعد مع أحد المسؤولين في المناصب الكبيرة في مجال صناعات الدولة، وكان يفضل أن يكون ذلك في مناطق بعيدة من الاتحاد السوفياتي المترامي الأطراف، ساعياً إلى عمل أعلى أجراً. ففي الوقت الذي أدرك فيه منجم الفحم في فلاديفوستوك أن كبير مهندسيه لم يحضر، كان غروموف في مكان آخر يبدأ عملاً آخر.

تحقق الإنجاز الأعظم في تاريخ احتيال غروموف عندما تمكن من تعيين نفسه مهندساً في مصنع تعليب أسماك جديد بالقرب من الحدود بين كازاخستان والصين. ربما لا تظن أن هذا العمل هو الأكثر روعة في العالم، ولكنه كان عملاً مهماً في الاتحاد السوفياتي في ثلاثينيات القرن العشرين. تمكن غروموف من إقناع المفوض أناستاس ميكويان عن طريق الخداع ليرسل مبلغاً ضخماً قدره مليون روبل (كي تكون لديك فكرة عن مقدار هذا المبلغ، كان متوسط الراتب السنوي في تلك الفترة أكثر بقليل من 1500 روبل)[93].

كان مصنع كازا لتعليب الأسماك في أفضل حالاته، ولكن لسوء الحظ، كان المكان الذي بدأ فيه غروموف بالتدهور، وذلك عندما ارتكب خطأ كلاسيكياً حين تخلى عن أساليبه المجربة الموثوقة المتمثلة في الهروب قبل أن يشك فيه أحد. هذه المرة كان غروموف يحقق إنجازات جيدة لدرجة أنه قرر البقاء والاستمرار في هويته المزيفة والادعاء أنه مهندس، ربما لأنه أراد أن يفعل ما فعله ديمارا ويؤسس شيئاً هناك كي يصبح الإنسان الذي كان يتظاهر بأنه إياه، وربما يعزى ذلك إلى أن السلطة والمال سيطرا على تفكيره وعطّلاه. يقول أليكوبولوس: «ربما لم يعد غروموف دجالاً في سنة 1934

ليس لأنه استوعب أكاذيبه أو صدقها، بل لأنه رأى أنه لا يختلف عمن يعملون حوله في مشاريع الإنشاءات الضخمة في غلافريبا». بكلمات أخرى؛ إذا كان الجميع يزيفون هوياتهم، فلماذا لا يفعل هو ذلك؟ ولكن رغبته في الاستقرار في مكانه الذي اكتشفه حديثاً لم تكن مطابقة للواقع القاسي حيث لم يكن يمتلك مهارات فعلية في الهندسة أو تعليب الأسماك. كانت تكتيكات غروموف فعالة على المدى القصير، عندما كان يكثر من التنقل، وكان يواجه أي شخص يشك فيه ويقول عنه إنه «عدو للستالينية»... ولكن عندما استقر لفترة طويلة جداً في مكان واحد، لم تعد هذه الطريقة مجدية بل جلبت له مجموعة من الناس الذين يكنّون ضغينة هائلة ضده.

لكنه تمكن من الهرب، حتى بعد إلقاء القبض عليه والحكم عليه بالإعدام، فقد هرب مرة أخيرة محولاً طاقاته الإبداعية التي غذت أوامر عمله الخيالية والرسائل والفواتير إلى نوع تقليدي أكثر من الخيال.

ربما لم تكن مسرحيته (الحب والوطن الأم) التي أنتجها في السجن رائعة. في الواقع، عندما نقلها المدعي العام إلى رئيس اتحاد الكتاب المسرحيين للحصول على رأي احترافي حول المزايا الأدبية لغروموف، حصلت على نقد من شأنه أن يخيف أي مؤلف، فكيف إذا كان ذلك الشخص يعتمد على مخطوطة واحدة لإنقاذه من الإعدام، كتب الرجل في اتحاد الكتاب «إن قدرة كتابة غروموف المسرحية منخفضة للغاية» و«العمل ليست له قيمة أيدولوجية أو فنية وليست له أهمية» أعتقد أننا نستطيع القول إن جون كيتس ما كان ليتقبل مراجعة كهذه.

مع ذلك، نجحت الخطة بأعجوبة، إذ خُفضت عقوبته من الإعدام إلى الحبس لعشر سنوات مع الأشغال الشاقة. حتى يومنا هذا، لم يُعرف ما الذي أقنع مسؤولاً سوفيتياً رفيعاً بإنقاذ حياة غروموف على أساس مسرحية تصورُ مسؤولاً سوفيتياً كبيراً على أنه إنسان وسيم، وشخصية بطولية، يقيم علاقة مع فتاة تبلغ الثالثة والعشرين من العمر، ويحولها إلى الاشتراكية عن طريق قوته الأيدولوجية والجنسية. حسناً، أعتقد أن هذا السر سيبقى واحداً من ألغاز التاريخ التي لن يُماط اللثام عنها.

إن كانت القدرة على العثور على الثغرات في المجتمع واستغلالها من دون رحمة هي علامة على مخادع كبير، فإن نجم قصتنا الأخيرة سيكون أحد أعظم المخادعين على الإطلاق. ففي الوقت الذي احتال فيه غريغور ماكغريغور على أوسع نطاق إليكم حكاية جرأة امرأة تتطابق مع غريغور خطوة بخطوة، لكنها عملت في ناحية أخرى من التفصيل. ففي الوقت الذي تطلبت فيه عملية احتيال ماكغريغور أن يخترع دولة بأكملها، فإن قصة تيريز هامبريت تدور حول خزنة مغلقة. إذ تمكنت هذه الفتاة الريفية ذات الخيال الجامح التي جرّبت الفقر في بداياتها من العيش لعقدين كاملين حياة ترف في الحقبة الرائعة لباريس.

قيل إن الخزنة تحتوي على مجموعة من السندات التي تقدَّر قيمتها بما يقارب مئة مليون فرنك. يفترض أن مصدر هذه السندات رجل أميركي غامض يدعى روبرت هنري كرافورد، أنقذت تيريز حياته في قطار قبل عدة سنوات عندما أصيب بنوبة قلبية. وتعبيراً عن امتنانه، تعهد بمكافأتها بسخاء وهو الوعد الذي دوّنه في وصيته وكان قد غيّره قبل وفاته بفترة وجيزة حتى ورثت مبلغاً كبيراً من ثروته الضخمة.

على أساس هذه الثروة المفترَضة، تمكنت تيريز من اقتراض الأموال بحرية على نحو توقع فيه المقرضون عوائد ضخمة. لم تكن عملية احتيال معقدة فهي مجرد نسخة قديمة من جملة «ستكون الأموال في بريدك قريباً». بالطبع، لا تعمل الحيلة إلا لمرة واحدة لأن ساعي البريد يظهر خالي الوفاض في نهاية المطاف.

لقد أدركت تيريز هامبريت ذلك جيداً لأنه كان لها تاريخ كبير في اختراع المتبرعين الأثرياء قبل أن يتم اكتشافها في النهاية.

منذ أن كانت طفلة صغيرة، كان الخط الفاصل بين حياتها الحقيقية والخيالية ضبابياً وغير موجود تقريباً. وقد ورثت هذا عن والدها أوغست درينار وهو حالم غريب الأطوار مثير للشفقة إلى حدّ ما، الذي زعم أنه ينحدر من طبقة النبلاء، وأمضى سنوات عمره الأخيرة مصراً على ذلك، فغرق في الدَّيْن، وكان يدعي أن الوثائق التي تثبت كلامه موجودة في صندوق قديم مقفل. أُجبرت تيريز درينار على إدارة شؤون الأسرة بسبب غياب تفكير والدها، وقد حولت تخيلاته إلى مصدر دخل عملي وإن كان مؤقتاً. كانت مبدعة فقد كانت تدين لكل التجار في منطقة تولوز الكبرى، وقد وعدتهم بأنهم سيتلقون أموالهم بعد أن ترث ميراثاً غير موجود أو بعد حفل خيالي من أحد أبناء عائلة ثرية تعمل في الشحن. لقد كتبت هيلاري سبيرلينغ في سيرة حياتها قائلة: «تعاملت تيريز طوال حياتها مع المال على أنه وهم: ثقة أو حيلة تدعي أنها تتقنها»[94]. إلا أنه كان من المحتم أن تنتهي خدع عائلة درينار، ولكن بعد أن طُردوا من منزلهم، لم يمر وقت طويل قبل أن يعودوا بفضل خيال تيريز الواسع.

تيريز ها-مبرت

كانت هذه المرة تنفذ أحد أكبر أوهامها التي وقفت فيها بقضيتها: قصر شاتو دي ماركوت: قصر كبير بعيد عن الساحل حيث كانت تحلم منذ فترة طويلة بالسكن فيه، لم يكن ذلك القصر موجوداً، ولكن ذلك لم يمنع تيريز من الحديث عنه وكأنه حقيقي تماماً، قال أحد زملائها: «كانت تكذب طوال الوقت»[95].

فقد كانت مُقنعة عند وصفها لذلك القصر الفخم، وأرضيته الرخامية، وحدائقه المورقة ويبدو أن كثيراً من الناس اقتنعوا أن ما تقوله حقيقة، بمن فيهم والد زوجها المستقبلي غوستاف هامبرت السيناتور الفرنسي والنجم الصاعد في مجال السياسة.

لم يوافق هامبرت على تزويج ابنه فريدريك لتيريز فحسب، بل وافق على تزويج ابنته أليس من إيميل أخ تيريز، وذلك في حفل زواج مزدوج.

يبقى السبب الذي حمل سياسياً طموحاً (غير ثري) على ربط عائلته بمجموعة من الأشخاص غريبي الأطوار والفقراء لغزاً حتى تعتقد أنه ربما فعل ذلك نظراً لوجود احتمال بحصولهم على منزل كبير. إضافة إلى ذلك هناك تفصيل أيضاً؛ فقد كان العرسان الجدد أقرباء إذ كانت زوجة هامبرت هي عمة تيريز.

بفضل صلات تيريز السياسية الجديدة، عادت إلى اللعبة وبمساعدة السيناتور بدأت باقتراض الأموال بضمان قصرها الخيالي فضلاً عن مزرعة خيالية للفلين في البرتغال، لكن سرعان ما أرادت المزيد، وهكذا في سنة 1883، ظهر روبرت هنري كرافورد مع مئة مليون فرنك. كان من شأن الوعد بهذا الميراث والمال الذي يمكن أن تقترضه مقدماً أن يحافظ على استمرار عائلة هامبرت لبضع سنوات، ولكن تيريز أدت دورها الرئيسي هنا (ربما بالتعاون مع زوجها وأبيه).

إذا كان الضعف البريطاني الذي استغله ماكغريغور هو الميل إلى الخيال الاستعماري، وإذا كان الضعف الأميركي الذي استغله ديمارا هو تقديس الأوراق الاعتمادية والتنازل عن السلطة الفردية، وإذا كان الضعف السوفياتي الذي استغله غروموف هو الأيديولوجية والبيروقراطية القمعية، فإن الضعف الفرنسي الذي استغلته هامبرت كان النظام القانوني السيئ فقد كانت المحاكم الفرنسية في ذلك الوقت سيئة السمعة لبطئها وطريقتها التي اتبعتها في ارتباطها الأسطوري بمفاهيم العدالة. في هذا السياق، توصلت تيريز إلى خطة لتمديد خدعتها، وقد كانت خطة بسيطة وخادعة للغاية لدرجة أنني أشعر بالدهشة الكاملة.

لقد رفعت تيريز دعوى ضد نفسها.

أو بتعبير أدق؛ فقد ادعت أن لكرافورد ولدين، وأنهما ينافسانها على الوصية. لم يكن الهدف من ذلك أن يفوز أي منهما، بل ألا يفوز أحد على الإطلاق، فكان يتم استئناف كل حكم ويُطعن به، ثم تبدأ جولة أخرى، وذلك في ظل العمل السلحفاتي للمحاكم الفرنسية. لم يكن الأخوان كرافورد بحاجة إلى الوجود، بل قاما بتقديم الدعوى من خلال أحد أفضل محامي باريس عن طريق رسالة، وهما في الجهة الأخرى من المحيط. كان الشيء الوحيد المهم هو أن يتم تأجيل القضية إلى أجل غير مسمى

مما يمكن من مرور سنة أخرى يتم من خلالها منع تيريز من الميراث الذي رأت دائماً أنها على شفا الاستحواذ عليه، والذي اقترضت مبالغ ضخمة من المال عليه من مجموعة من المقرضين.

طوال ذلك الوقت، بموجب الأمر الصارم للمحكمة، يجب أن تكون المستندات الفعلية مغلقة في مكان آمن بعيداً عن تيريز ولا يمكنها رؤيتها.

تمكنت عائلة هامبرت من الاستمرار في هذا الأمر طيلة عشرين عاماً فقد عاشوا لعقدين من الزمن أروع حياة ممكنة في باريس. عاشت تيريز وزوجها في إحدى أفخم الشقق في شارع دي لا غراندي ارمي، وكانت حفلاتهم أسطورية وحضرتها أعظم الشخصيات من الممثلة سارة بيرنهاردنت إلى رئيس الجمهورية. لقد كانت تيريز الفتاة الريفية الطموحة التي أتت من عائلة فقيرة واحدة من أكثر النساء نفوذاً في فرنسا.

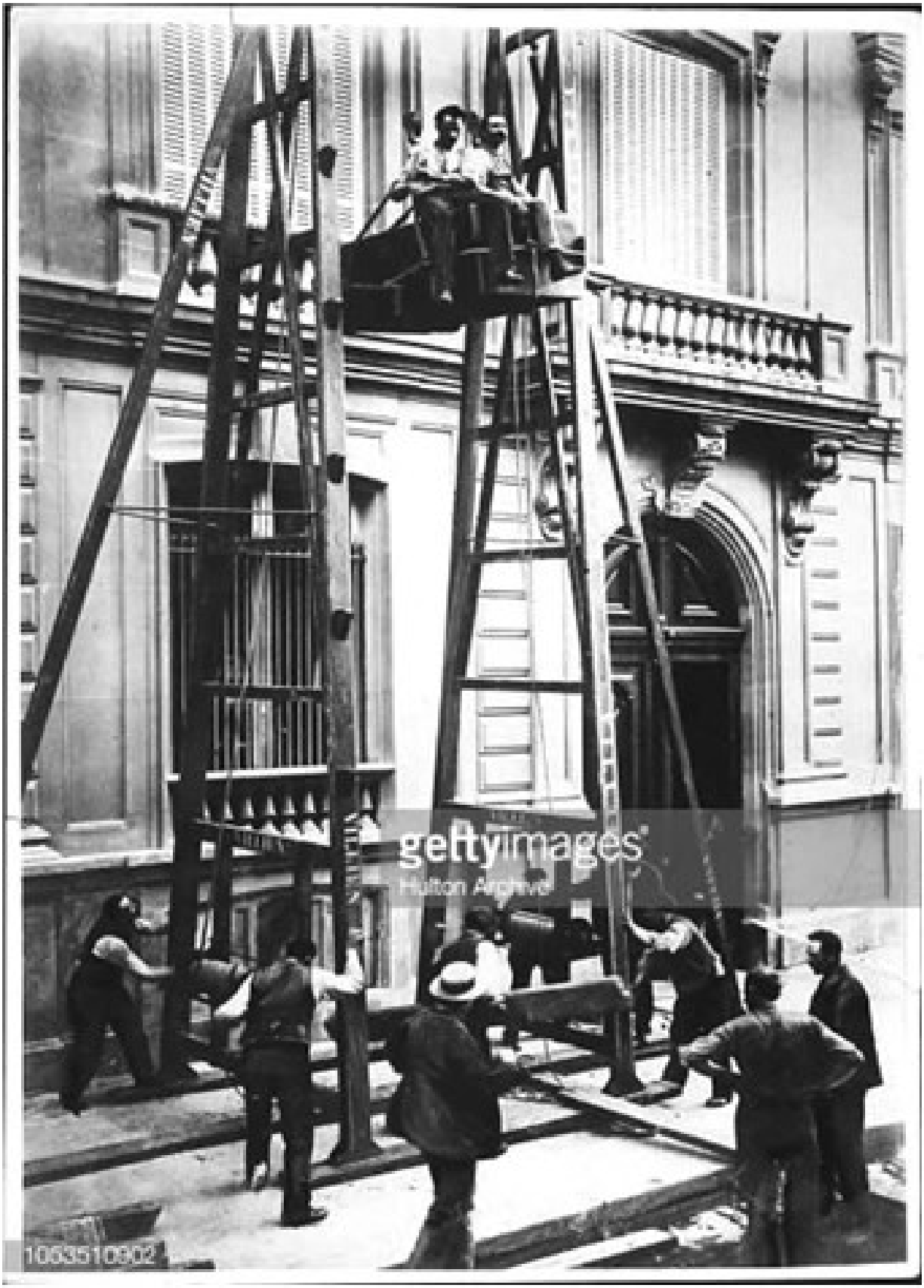
gettyimages
Hulton Archive
1063510902

الخزنة الأسطورية تُنقل من منزل مدام هامبرت الباريسي

ولم يكن بإمكان أحد دائني تيريز عندما يشعر بالقلق من المبالغ الضخمة التي منحها إياها القيام بشيء لأن معظم أصحاب النفوذ الذين كان بإمكان الدائنين اللجوء إليهم كانوا يستمتعون بحضور حفلات تيريز. كان فشل مخطط تيريز مفاجئاً وناتجاً عن خطأ بسيط وغير معهود، وتمثل ذلك باختراعها عنواناً وهمياً للأخوين كرافورد عندما طُلب إليها تقديم عنوان لهما في نيويورك، معتقدةً أن أحداً لن يكلف نفسه عناء التحقق من صحة الأمر، والعلم أنه ما من أحد من عائلة كرافورد يعيش في برودواي في الشارع رقم 1302، ولكن مع وجود ملايين الفرنكات المتعلقة بالقضية والدائنين المستائين أكثر وأكثر، بدأت الحواجز بالزوال تدريجياً، وشكت المحكمة بصحة الأمر وطلبت فحص الوصية.

في التاسع من أيار سنة 1902، اجتمع حشد يبلغ عدده الآلاف في شارع دي لا غراندي ارمي ليشاهدوا عملية إخراج الخزنة من شقة هامبرت وعملية فتحها. بعد جهود، فتحها الحداد باستخدام مطرقة، وحاولت الحشود إلقاء نظرة ليروا الثروات الموجودة في الداخل. ولكن لدهشتهم، لم يروا سوى صحيفة قديمة، وقرش إيطالي، وزر سروال[96].

تمكنت تيريز من استثمار القطعة المعدنية، والزر، والصحيفة في عقود من الحياة المترفة لأنها كانت تمتلك موهبة غريزية لاستغلال ضعف البشر والأنظمة التي أنشؤوها.

كتبت صديقتها مجهولة الاسم تحت اسم مدام سين: «يوضح المقياس الكبير الذي عملت عليه تيريز حجم عبقريتها، فلو ادعت أنها تملك ميراثاً لا يزيد على 4 أو 6 ملايين، ما كانت لتستطيع العيش في أحسن الأحوال على هذا المستوى، وما كانت لتتمكن من استدانة إلا بضعة آلاف وبصعوبة كبرى، ولكنها بدلاً من ذلك ادعت امتلاكها لمئات ملايين الفرنكات! فقد كان مبلغ كبير كهذا سيعمي أبصار الجميع عن الحقيقة، ويجعلهم يُبدون كبير إعجابهم به كما هو الحال مع هرم خوفو الذي لم يسبق لأي منهم أن رآه»[97].

الفصل السادس

إنك تربكني

إن كان هناك شيء واحد يُجمع عليه الناس بشأن السياسيين فهو أنهم كاذبون. يكذبون بشأن أعظم الأمور وأدقها، ويكذبون بشأن كل الأمور التي تقع ما بين أعظم الأمور وأدقها، ودائماً ما تضعهم التقارير التي تتناول المهن الأقل موثوقيةً في القاع، أسفل سماسرة العقارات وحتى في رتبة أقل من الصحفيين، وتنطبق عليهم الدعابة التي تقول:» إنك تستطيع معرفة أن السياسي يكذب ما إن تتحرك شفتاه».

لكن في الحقيقة، معظم السياسيين لا يكذبون بالقدر الذي تعتقده. أعلم أن هذا يبدو غير قابل للتصديق وخصوصاً بعد الأخذ بعين الاعتبار الأحداث الأخيرة التي تلف العالم بالغموض، ولكن ثق بي فالتحقق من الحقائق التي يقولها السياسيون هو عملي. في الحقيقة، إن الكذب يشكّل جزءاً ضئيلاً من الحياة اليومية للسياسيين، وهو أقل بكثير مما جعلتك النمطية تعتقده.

أنا لا أقول إن السياسيين نبلاء وشرفاء ويستحقون الثقة، وإنهم التزموا بلا أنانية بإخبار الحقيقة دائماً. من الواضح أن هذا سخيف، ولكن ليس أكثر سخفاً من الاعتقاد القائل إن السياسيين ليسوا إلا أفاعي تتلوى في حفرة من الغش والخداع. في الحقيقة، إن كنت تعتقد أن السياسة ما هي إلا مهنة إخبار الأكاذيب المقنعة، فأنت تمتلك وجهة نظر محرّفة حول الطريقة التي نُحكم بها.

ما من شك في أن السياسيين يكذبون. تماماً كما يحصل في المجتمعات البشرية الكبيرة. ففي العادة، يكذب عدد قليل منهم، يستخدمون الكذب بمثابة ملجأ أول بدلاً من استخدامه بمثابة خطة احتياطية أخيرة يائسة، وغالباً ما يبدون مستمتعين بالكذب. تستطيع الإتيان بسهولة بأمثلة عديدة عن سياسيين من هذا الصنف حالاً، وهناك احتمال كبير أن تختار عدة أسماء على الأقل من الأسماء التي أُفكّر فيها.

لكن أغلبهم يكذب من وقت إلى آخر فقط هذا إن كذبوا أصلاً، وعندما يفعلون ذلك، فغالباً ما تكون الأسباب هي نفسها الأسباب الغبية الأساسية التي تدفع الجميع للكذب مثل الإفلات من محادثة غريبة أو لإخفاء حقيقة أننا نبرع في أعمالنا أو لنخبئ أننا نمارس الجنس مع شخص لا نريد أن نعترف أننا نمارس معه الجنس لأي سبب كان.

هناك سبب منطقي جعل من جملة «ليست المشكلة في الجريمة بل في التستر عليها» قالباً سائداً، ويكمن هذا السبب في أن ما يطيح بالسياسيين هو الأكاذيب التي يتفوهون بها في كثير من الأوقات، لمنع الناس من كشف الأمور التي تُحرجهم. (يقال إن أصل هذه الجملة يعود إلى فضيحة ووترغيت التي سنناقشها بإيجاز بعد قليل، التي تفيد أنه حيث هناك تستر هناك أيضاً أطنان من الجرائم).

حسناً، لماذا نربط في عقولنا بين الكذب والسياسيين؟ المشكلة هنا مزدوجة. القضية الأولى هي أنه بالرغم من أن العمل في السياسة لا يجذب بالضرورة نسبةً أعلى من الكاذبين تفوق الأعمال الأخرى (ليست هناك أبحاث تتناول هذا الشأن، وآمل أن يُجري أحد ما بعضها) إلا أنه بالتأكيد يقدم لمن يميلون إلى الكذب فرصةً واسعةً ليمارسوا آفتهم بطريقة علَنية جداً. لن تكون القضية على هذا الحال لو كنت تعمل في شركة صغيرة للخدمات الزراعية في كمبريا.

تُقدم للسياسي فرصة للكذب بشأن ستة أمور قبل الإفطار، والأهم من ذلك، من المحتمل أن تكون لديهم رغبة في الكذب وجمهور متقبل للأكاذيب. هناك دائماً شخص ما يرغب في سماع التضليل المريح أو المثير للغضب الذي يقول إننا مقبلون على عصر جديد مجيد، أو إن هناك شخصاً آخر نستطيع لومه على مشاكلنا، أو إن العالم ليس معقداً ورمادياً بل هو بسيط وفيه كلا اللونين الأبيض والأسود. (إن اعتقدت أن هذا السطر الأخير يتحدث عن الناس الآخرين ولا يتحدث عنك، فعلى الأغلب أنه يتحدث عنك).

أما القضية الثانية فهي عندما تكون سياسياً تصبح جميع الأمور مهمة.

في البداية، هذا يعني أنه عندما تتم مصادفة أحد القرارات الحاسمة التي يجب علينا جميعاً اتخاذها والاختيار بين الطريق النزيه وغير النزيه، فغالباً ما يعاني السياسيون من عقبات إذا ما قرروا أن يكونوا نزهاء. إذا نسيت أن تجيب على بريد إلكتروني يخص الخدمات الزراعية الكمبيرية، فقد تعلق بعض الخراف في آمبيلسايد. هذه أخبار سيئة بالنسبة إلى راعي الخراف وقد تسبب في خسارة شركتك لبعض الأعمال، بالطبع سيجب عليك إرسال اعتذار إلى جميع أعضاء الفريق تقول فيه: «آسف لأني خذلت الفريق». ولكن على الأرجح ستبقى التحفيزات مستمرةً، رغم اعترافك وتعرضك للتوبيخ. في المقابل، إذا نسيت أن تجيب على بريد إلكتروني وكنت وزيراً للداخلية مسؤولاً عن جوازات السفر وإدارة الحدود، عندها قد يعلق مئة وأربعون ألف مصوت غاضب في مطار غاتويك، وستعدّ صحيفة الديلي ميل عدتها لتثير موجة غضب عارمة ضدك، ولن ينتهي الأمر بإرسال بريد إلكتروني تقول فيه: «مرحباً، الإنسان خطّاء بطبعه، أتمنى أن نتجاوز هذا الخطأ». كلنا نقول إننا نأمل أن يكون السياسيون أكثر نزاهةً، ولكنّنا لم نُظهر كثيراً من الإشارات على جاهزيتنا لمكافأتهم عندما تتضمن نزاهتهم القول: «أجل، لقد أفسدت هذا الأمر، تعلّمت كثيراً من خطئي، وسأُحسن العمل في المرة القادمة». وقد يعني ذلك أنه عندما يكذب السياسيون، تموت أعداد هائلة من البشر في بعض الأحيان. بالطبع تميل مثل هذه الأمور لأن تعلق في أذهاننا لبعض الوقت.

لقد رافق الكذب السياسةَ منذ أن وُجدت (إن التاريخ الذي ظهرت فيه السياسة غير معروف بدقة، ولكن يمكننا القول إن ذلك كان منذ وقت طويل). لنأخذ مثالاً على هذا، من أكثر الكاذبين المعروفين في التاريخ رجل يدعى تيتوس أوتيس، الذي حملَ إنكلترا واسكتلندا لتحاربا الكاثوليكية بشكل هستيري وذلك عام 1678 ولثلاث سنوات على أساس أكاذيب واضحة بجلاء.

الآن، من المهم أن نؤكد على عدم طبيعية ذلك. فخلل معظم تاريخنا، كان من الصعب جداً جعل البريطانيين يدخلون في عِداء هستيري مع الكاثوليكية، بنفس صعوبة جعل كلب يهلع من ذيله، ولكن من المعروف أن أعظم الأشخاص المؤثرين في البلاد كانوا مستعبَدين من قبل رجل نُصب كاهناً ادعى زوراً أنّه حاصل على شهادة من جامعة كامبريدج، ثم تهرب طوال عقد من العديد من تهم القسَم الكاذب والمثلية.

وُصف ذات مرة بأنّه «أكثر الأشخاص غباءً وجهلاً، وغير قادر على التحسن». نشأ أوتيس ولداً مملاً وغير سعيد، في كنف والده العنيف، وفُصل ذات مرة من المدرسة بسبب إضاعته لرسوم تعليمه. حاول الدراسة في كلّيتين في جامعة كامبريدج، ولكنّه لم يتخرج، واكتسب خلال فترة دراسته في كامبريدج سمعةً بأنّه غبي، ومِثلي، ومتعصب.

في عام 1677، قرر أوتيس أن الوقت مناسب للتحول إلى الكاثوليكية بعد الفترة الوجيزة التي أمضاها كاهناً في البحرية الملكية والتي انتهت بسرعة عندما اتُّهم بالمثلية وبعد هروبه من السجن الذي دخله بتهمة اللواط مرتين على الأقل. في الوقت نفسه، صادق عالم نظرية المؤامرة المعادي للكاثوليكية المجنون إسرائيل تونغ. هذا الدمج الخاطئ وغير الطبيعي من التأثيرات، سيعدّ أوتيس بشكل مثالي لأكبر مساهماته في التاريخ: الادعاء المزيف بوجود خطة كاثوليكية لاغتيال الملك تشارلز الثاني.

تضمن هذا كتابةَ منشور من 68 صفحة تملؤه المزاعم الهمجية للحبكات وأسماء أكثر من مئة من المتآمرين، ووضعه في منزل زميلهما المعادي للكاثوليكية ريتشارد باكير حيث «اكتشفه» تونغ بسرعة عن طريق المصادفة في اليوم التالي. لا، هذا ليس منطقياً، لمَ قد يكون هذا المنشور هنا؟ لماذا قد يكتب الكاثوليك خطتهم ويتركونها عن طريق الخطأ في منزل شخص يكرههم. انظر، لا يجب أن تكون نظريات المؤامرة متسقة منطقياً، أليس كذلك؟

أرسل تونغ أحدهم إلى الملك ليخبره بالخطة ويحذره منها. من الجدير بالملاحظة أن تشارلز الثاني لم يصدّقها مطلقاً، واعتقد أنها غير منطقية. ولكن لا يمكننا قول المثل عن وزراء تشارلز وأعضاء البرلمان الذين صدّقوها تماماً. استُدعي أوتيس ليشهد أمام المجلس القضائي الخاص لتُفحص أقواله في ارتياب بالرغم من تجاوزهم لتشارلز نفسه، قرر السياسيون أنه يقول الحقيقة. كلما واجه أوتيس عقبةً في روايته، كان حله ببساطة أن يخترع حبكةً جديدةً، ويتهم المزيد من الأشخاص. لقد أخبر كبار الشخصيات المجتمعين ما أرادوا سماعه تماماً، ولم يبدُ أن حقيقة عدم اتساق ادعاءاته مهم جداً. في نقطة ما، أمسكه الملك يكذب كذبةً وقحةً وجعلهم يعتقلونه. رفض البرلمان ذلك، ولم يكتفوا بإطلاق سراحه فحسب بل أعطوه منزلاً ومرتباً شهرياً أيضاً. من بين جميع الأشخاص الذين اتهمهم بالتآمر لقتل الملك: الملكة (برتغالية كاثوليكية، لم تكن مشهورةً في

إنكلترا)، وساموبل بيبيس المحبوب، ومعلمه الذي فصله قبل عدة سنوات. كانت النتيجة حصول هيستيريا شاملة.

اعتُقل عشرات الكاثوليك المرموقين وحوكموا، أُعدم اثنان وعشرون شخصاً، وطُرد الكاثوليك من لندن. راكمت الصحافة والعامة المخاوف وساهما بإضافة اختراعاتهما الخاصة في حين انتشر الرعب من الحبكات الكاثوليكية والشخصيات المريبة مثل النار في الهشيم. مرت عدة سنوات قبل أن تخمد نار هذه الهيستيريا، وقبل أن يُنظر إلى أوتيس بعين الشك، ويُطلب إليه مغادرة البيت الذي منحته إياه الحكومة، وقد شعر الجميع بالإحراج بشأن الأمر برمّته.

كيف استطاع شخص بهذه السمعة المريعة والقصة غير المتناسقة وتصرفاته المجنونة مثل أوتيس أن يتحكم بالرواية السياسية لبلد بأكملها طيلة سنوات في حين لم يصدقه الشخص الذي يُفترض أنه المستهدف بالاغتيال؟ مثل العديد من نظريات المؤامرة الحديثة، يتم اللعب على وتر كثرة الأشخاص الذين يريدون التصديق وهذا يعني أن التضاربات وعدم الاتساق لن يضرا بالمؤامرة. لكن كان هناك أوتيس أيضاً، رجل غير جذاب وفظ، يبدو أن له تأثيراً على مستمعيه. لتبسيط ذلك؛ كان كاذباً موهوباً، وكان ممتعاً حتى عندما لم يكن منطقياً. أو بحسب تعبير الكاتب جون بولوك: «اشتملت شخصيته المقرفة على نوع من الجهد الهزلي. لم يكن بإمكانه المزاح فحسب، بل استطاع أن يجعل الأحداث غير المتوقعة عندما تحدث موائمة لقصته. لم يكن لسانه الفظ يفتقر إلى نوع من الطرافة. عندما يظهر، تستطيع أن تثق بأنه ستكون هناك طرافة».

لا تستطيع التحدث عن كذب السياسيين من دون أن تذكر ووترغيت، ولكنّني أشعر أن هذا الأمر تمت تغطيته بما فيه الكفاية بفضل العديد من أفلام هوليوود التي تناولت هذا الموضوع. أعتقد أنك تعرف القصة جيداً، أقصد إن لم تكن تعرفها، فابحث عنها، إنها خدعة. مع ذلك، هناك بعض الجوانب التي تستحق مراجعتها. يرجح أن ثاني أكثر الأمور تشويقاً بشأن ووترغيت هو أنه كيف كان الجميع على مقربة شديدة من الإفلات بفعلتهم، غطّت مقالات الواشنطن بوست التي أدت الدور الرئيسي في كشف القصة كلها الأمرَ عبر نشر قصص لا تُحدث أثراً مزلزلاً، وربما كان الأمر سيذهب باتجاه آخر بسهولة، فقد اعتبروا الاكتشافات السابقة بديهيات وعدّلوا مقياس النزاهة الداخلي الخاص بهم، ولم تتضخم القصص لتغطي الفضيحة التي هزت العالم والتي آلت إليها الأمور.

أكثر الأمور المثيرة للاهتمام هو مقدار سوئهم المذهل في الكذب.

أقصد أنهم كانوا مريعين، غير كفوئين بشكل هائل. بدايةً، أنت تعرف الحقيقة المشهورة الأساسية؛ وهي أن نيكسون سجل كل المحادثات في المكتب الرئاسي حيث تكلموا عن الأشياء السيئة التي كانوا يفعلونها. لم يكن نيكسون الرئيس الأول الذي يتنصت على محادثاته الشخصية–فقد سبقه فرانكلين ديلانو روزفلت–ولكنّه كان أول من فعل ذلك بشكل روتيني، وهذا غريب إذا ما أخذنا باعتبارنا أنه على الأرجح يناقش أموراً أسوأ بكثير من أغلب الأمور التي يناقشها العاملون الآخرون في ذلك المكتب (ربما لم يكن الأمر كذلك، ولكن أنّى لنا أن نعرف؟). أكثر التفسيرات المنطقية المعطاة لسلوكه حتى وقتنا هذا تأتي من برنامج دكتور هو وتفيد أنه كان يفعل ذلك ليجابه الكائنات

الفضائية التي تمحو الذاكرة، تجعلنا هذه الحقيقة نشعر أنّ الأمر كانت فيه درجة غباء عالية ولا يمكن تعليله.

لكن الأمور المهمة قيلت في الدقائق الثماني عشرة والنصف التي لا نملكها. ذلك هو الوقت الكلي الذي مُحي عن طريق الخطأ من التسجيلات التي تغطي محادثة بين نيكسون ورئيس فريقه هالدمان خلال صباح العشرين من أيار عام 1972 بعد ثلاثة أيام من اقتحام مكاتب ووترغيت، وبما أن التسجيلات التي لم تُمح كانت كافية لإدانة نيكسون، يمكن للمرء أن يفترض أن الجزء الممحوّ احتوى شيئاً مشابهاً للحوار الآتي:

نيكسون: هل تستطيع اطلاعي على مستجدات الجرائم التي نرتكبها؟

هالدمان: أوه، أجل.... الجرائم.

نيكسون: ما هو وضع الجرائم؟ تلك الجرائم التي أمرتك بأن تقترفها. أخبرني عنها.

هالدمان: الجرائم.. (غير مسموع) قد حدثت، لقد قمنا بها، كما طلبت بالضبط.

نيكسون: حسناً، هذا جيد، أنا سعيد بشأن الجرائم، تلك الجرائم التي قلت لك أن تقوم بها بشكل واضح والتي وافقت على القيام بها. من الجيد أن الجرائم قد حدثت. (غير مسموع) يا لها من متعة! أنا أحب هذه الجرائم.

هالدمان: حسناً، لقد اكتشفوا أمرها، هذا سيئ.

نيكسون: أوه، لا، يجب علينا الآن ارتكاب المزيد من الجرائم لنمنع الناس من اكتشاف الجرائم السابقة.

هالدمان: أجل، حسناً، سنرتكب المزيد منها. هذا مفهوم. هيا لنرتكب المزيد من الجرائم معاً حالاً.

نيكسون: حسناً، هذا جيد. شكراً لك على مشاركتي في ارتكاب الجرائم. (غير مسموع) أكره الشيوعيين. يا إلهي أحتاج إلى شرب الكحول.

أفضل جزء من عملية إخفاء فضيحة ووترغيت هو المحاولات السيئة جداً التي أُجريت لشرح سبب محو التسجيلات. اعترفت سكرتيرة نيكسون روز ماري وودز علناً بمحو التسجيلات عن طريق الخطأ. قالت إنها كانت تنسخ الأشرطة عندما تمت مقاطعتها بسبب مكالمة هاتفية. وعندما همت بإمساك الهاتف ضغطت بالخطأ على زر التسجيل في آلة التسجيل، وأبقت قدمها على الدوّاسة مما جعل التسجيل يتخطّى خمس دقائق من التسجيل وهي المدة التي استمرت فيها المحادثة. لنتجاهل قليلاً حقيقة أن هذا لا يفسر الدقائق الثلاث عشرة المفقودة، وأنّ الجزء الممحوّ لم يكن مستمراً، ولكن كان عدة أجزاء من عدة مقاطع وأنّ نوع آلة التسجيل تلك لم تكن تعمل بهذا الشكل[98].

لنركز بدلاً من ذلك على حقيقة أن أحدهم قرر أن فكرة جعلِ السيدة وودز تشرح ما الذي فعلته لتمحو الأشرطة للمصورين الصحافيين فكرةٌ جيدة، لتوضح مقدار الصدق والمنطقية في قصتها.

ترقبوا قيام روز ماري وودز بالإجابة على مكالمة هاتفية بشكل طبيعيّ جداً وهي تُبقي قدمها على الدواسة لفترة خمس دقائق:

صورة تمطط روز ماري وودز (التقطها جيرالد آر فورد، مؤسسة المكتبات والمتاحف، النطاق العام).

سُميت هذه الصورة «تمطط روز ماري» من قبل الصحافة، ومن المنطق القول إنه وبفضل كل أعمال التحقيق البطولية التي أجراها وودورد وبيرنستين كانت تلك الصورة كصورة امرأة في منتصف العمر تمد نفسها بأقصى ما تستطيع لتحاول الوصول إلى الهاتف والدواسة في الوقت نفسه، جعل ذلك الشارع الأميركي يفكر: «اممم، هناك شيء خاطئ هنا».

هناك وقت تصدر خلاله أكاذيب السياسيين وحدها حقّاً، وهو عندما يريد أحدهم خوض الحرب. أُشعل عدد كبير من الحروب بسبب تحريض الحوادث التي يتبن أنها أقل شأناً مما تمّ تسجيله. فقد قدمت حادثة خليج توكن الثاني المبررات للحرب الفيتنامية وقد تبين أنها تضمنت هجوماً زائفاً على قارب أميركي. كان للحرب الأميركية الإسبانية عام 1898 محرضٌ رئيسي وهو غرق الفرقاطة الأميركية مين في هافانا، إذ سرعان ما لامت الصحافة الأميركية الإسبان، بالرغم من أنه اعتُقد في البداية أنها مجرد حادثة، وأشارت معظم التحقيقات التالية أن سببها الأكثر احتمالاً

هو اشتعال النيران في الفحم. وبالطبع هناك تلك القصة التي تقول إن العراق يملك أسلحة الدمار الشامل التي يمكن نشرها خلال 45 دقيقة.

تأتي محاولات اختلاق الأسباب السخيفة لإشعال الحروب في مقدمة صف العار، يجب أن تكون أزمة قناة السويس في المقدمة أيضاً. في الوقت الذي كُتب فيه هذا الكتاب، كانت كلمتا «قناة السويس» تحظيان بوقْع بلاغيّ في المملكة المتحدة بفضل انتشارهما بكثرة في عبارات مثل: (هذه أسوأ أزمة منذ أزمة قناة السويس). لا يتحمل الوضع الحالي للسياسيين البريطانيين أيةَ حادثة مشابهة لحادثة قناة السويس (لسبب واحد هو أنها تضمنت العمل المشترك مع الفرنسيين)، ولكنها تستحق أن تُذكر بإيجاز لنلاحظ كيف تمّ التلاعب بالأزمة، وكيف تُركت أمة كاملة مهانة، وكيف انتهى المطاف باستقالة أحد الوزراء من دون أن يعرف الناس كمية الهراء التي تضمنتها القصة؟

باختصار: في عام 1956، فترة انتهاء الإمبراطوريات، لم تكن بريطانيا تتعامل جيداً مع الانفصال. وبدلاً من أن تمضي الوقت بالعمل على الأمور المتعلقة بما بعد الانفصال، قررت بريطانيا الدخول في الحرب.

وبما أنها انسحبت مؤخراً من مصر، كان البريطانيون منزعجين من استلام عبد الناصر للسلطة من خلال انقلاب وتأميمه لقناة السويس؛ وهي الممر التجاري المهم بين البحر الأحمر والبحر المتوسط الذي كان قبل تأميمه مملوكاً بالمناصفة من قبل بريطانيا وفرنسا.

لكن السؤال الذي طرح نفسه هو ما الذي سيفعلونه بشأن الموضوع؟ في بريطانيا، كان رئيس الوزراء أنتوني إيدن يُحث لاتخاذ موقف متشدد، خصوصاً من قبل الصحافة، وبالتحديد حثّت صحيفة التايمز– التي من المحتمل أنها تذكر دعمها السيئ للهدنة السابقة للحرب العالمية الثانية– إيدن على التصرف بقسوة. كانت تُحاك قصة مشابهة في فرنسا، ولكن لم يكن واضحاً ما إذا كان النشاط العسكري سيجدي أو سيكون مرغوباً فيه من قبل سائر الدول. ربما كانت أفعال عبد الناصر مزعجة، ولكن لم يكن من الواضح أنها غير قانونية. فقد دُفع لأصحاب الأسهم في شركة القناة تبعاً لأسعار السوق. ولكن التوتر بقي طيلة أشهر.

لكن الأمور تغيرت في نهاية تشرين الأول عندما هاجم الإسرائيليون مصر. بالطبع رفع هذا من احتمالية نشوب حرب كبرى في كامل الشرق الأوسط، تحركت الكتائب البريطانية والفرنسية بسرعة لتدخل بصفتها محافظة على السلام ولتفصل بين الجيشين المصري والإسرائيلي، وهذا سيعني تحكم بريطانيا وفرنسا بالقناة أيضاً بمحض المصادفة.

لم يستطع بعض الأشخاص إلا أن يجدوا هذا الأمر ملائماً بعض الشيء.

بدأ الرأي يتبدل في بريطانيا. في الوقت الذي كانت فيه الحرب تحظى بالتأييد، بدأ الموقف الذي كان له الكثير من الدعم سابقاً من قبل المجموعة السياسية يحظى بنقد متزايد، تغير مزاج الصحافة، وبدأت صحيفة التايمز تدعو إلى الحذر في حين خرجت صحيفة مانشستر غارديان عن صمتها وكتبت عن خداع ما يحصل. كانت الاستجابة الخارجية أسوأ، استنكار من كل أنحاء العالم، وألمّت الكارثة العميقة بخطة إيدن عندما جاء رفض الولايات المتحدة الأميركية الفظ، وهددت

بعقوبة اقتصادية إن استمرت الحرب. أجل، رفضت أميركا الحرب في الشرق الأوسط. كانت الوقت مختلفاً حينها.

كانت نتيجة سوء تقدير قدرة بريطانيا على فرض إرادتها على العالم في مرحلة ما بعد الإمبراطوريات انسحاباً مهيناً بعد عدة أسابيع. أكد إيدن للبرلمان أن المملكة المتحدة لم تكن على دراية بأمر الغزو الإسرائيلي، ولكن سلطته كانت قد زالت، وصحته تتدهور، فاستقال في كانون الثاني عام 1957.

في الحقيقة، لقد حصل كل هذا من دون أن يعلم الناس بالقصة الكاملة بالرغم من الشكوك. لم يُفصح عن ذلك إلا بعد عقود، عندما كُشف أخيراً أن بريطانيا لم تعلم بأمر الغزو فحسب، بل خططت له أيضاً. كان إنكار إيدن هراءً كاملاً. في الواقع، خططت كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بشكل سري لكلّ مرحلة من مراحل الحرب مقدماً: الغزو الإسرائيلي واستجابة الحفاظ على السلام. قُررتْ كل هذه المراحل قبل أسبوع في اجتماع سري في فرنسا حيث رسمت هذه الأطراف الثلاثة وثيقةً تحدد تماماً الدور الذي سيؤديه كلّ منها في هذه المسرحية السياسية العالمية. دمرت بريطانيا نسختها من الوثيقة لسوء الحظ من أجل سمعة إيدن التاريخية. أما إسرائيل فقد احتفظت بنسختها بسبب عدم ثقتها بأنّ هاتين الدولتين الأوروبيتين ستحافظان على جانبهما من الصفقة.

فسّر هذا أيضاً سبب التحول غير المتوقع على صفحات التايمز، أُطلع محررهم الأساسي من قبل الحكومة على خطة الحرب قبل أن تحدث. لذلك حولوا توجههم بعد أن أدركوا أن هذا فكرة مريعة. بالطبع، لم يفكروا فعلاً في إخبار حقيقة أنهم يعرفون أن الحرب تقوم على كذبة.

لم تزدهر قلة الحقائق في بدايات الحرب فحسب، لأنه معلوم أن الحرب لا تنتج معلومات موثوقة: إن دخان الحرب يعني أن العديد من التفاصيل القادمة من أرض المعركة غير موثوقة في أفضل الأحوال. بل هناك أكثر من ذلك، تشكل الحرب أرضاً خصبةً لنمو الشائعات، والخرافات، والحملات المُغرضة لتغذية الأكاذيب الوحشية والخارجة عن السيطرة.

يمكن أن ترى ذلك في كل التقارير القادمة من معارك الحرب العالمية الأولى والتي أزعجت هنري لويس مينكن الذي تحدثنا عنه سابقاً. بالرغم من أن تقديراته التي قالت إن 99 بالمئة من تقارير الحرب العالمية الأولى مجرد هراء هي تقريباً مجرد مبالغات في التقدير، إلا أن تلك الصراعات غير المسبوقة أثارت سيلاً من القصص غير الحقيقية بالكامل.

هناك قصة تمّ تناقلها عن ضابط كندي صلبته القوات الألمانية بالقرب من أبرس وثُبّت بواسطة الحراب المغروزة في يديه وقدميه. تنوعت التفاصيل: فقيل في التايمز إنه ثُبِّت إلى جدار، وقيل في التورنتو ستار إنه رُبط بشجرة، أما في المورنينغ بوست فقد قيل إنه عُلّق بباب. بينما انتشرت الشائعات، تطورت القصة من عملية صلب واحدة إلى عمليتين، ثمّ إلى حوادث صلب متعددة. أثارت الشائعات الانزعاج في شوارع لندن، وأثارت أيضاً الأسئلة في مجلس العموم، تضمنت هذه الأسئلة سؤالاً أضاف مزيداً من التفاصيل إلى الجريمة، وزعموا أن الألمان أزالوا تمثالاً للسيد المسيح عن صليب كبير في إحدى القرى وثبّتوا مكانه الضابط وهو حي على الصليب.

هل كان الكندي المصلوب حقيقياً؟ بالتأكيد لم تكن هناك أية تقارير موثقة في ذلك الوقت، ولكن هذا لم يمنع الحلفاء من تحويل القصة إلى قصة إعلامية مغرضة خصبة. أعطت التحقيقات اللاحقة مرشحين محتمَلين لهوية الجندي، ولكن لم يتم التحقق من أيّ منها.

لا تساوي هذه القصة شيئاً أمام الخدعة الأهم في الحرب العالمية الأولى؛ ألا وهي قصة معامل الجثث الألمانية. ليس من الواضح أين بدأت بالضبط (يُزعم غالباً أنها من اختلاق جهاز الاستخبارات البريطاني، وربما يكون هذا صحيحاً، ولكن قد يكون هذا أيضاً مجرد خرافة)، وتغيرت التفاصيل بشكل منتظم. كانت القصة الأساسية نفسها دائماً: وهي أن الألمان ينقلون موتاهم من الخطوط الأمامية في حاملات الجثث إلى أحد المعامل حيث تُعالج الجثث، وتُغلى لتعطي كل أنواع المنتجات مثل الصابون، والمتفجرات، والأسمدة. كان لهذا المعمل اسم حتّى: «المنشأة العظيمة لاستغلال الجثث» أو «kadaververwertungsanstalt» كما سمته إحدى مقالات صحيفة التايمز.

يرجع أكثر الأصول منطقيةً إلى رئيس جهاز الاستخبارات البريطاني العميد الركن جون تشارتريز الذي قيل إنه تباهى باختراع القصة على العشاء في نيويورك في عام 1925 لينفي بسرعة ذلك عندما عاد إلى بريطانيا، ربما لأنّه أُبلغ عنه أنه يثرثر بشأن القصة أو ربما بسبب كون التقرير بحد ذاته غير صحيح.

لم تكن قصص الحرب العالمية الأولى الكئيبة أولى الفظائع التي أنتجتها الحرب بالرغم من أن لها تاريخاً أقدم بكثير. في نيسان عام 1782، في فترة قريبة من نهاية الحرب الثورية الأميركية، ظهر مقال صادم في ملحق بوسطن أنديبناندنت كرونيكل. ذكر المقال الاكتشاف المرعب للكابتن ساموبل غيريش من ميليشيا نيو انغلند: ثمانية صناديق كبيرة صودرت في أثناء نقلها إلى حاكم كندا. وبعد الفحص، اكتُشف أن الصناديق احتوت حمولات مريعة أسوأ مما يمكن تخيله: أكثر من ألف فروة رأس بشرية.

روى الكابتن غيريش كيف أُخذت على مدى ثلاث سنوات من الضحايا الأميركيين المنكوبين من قبل مجموعة من هنود سينيكا بناءً على أوامر الحكومة البريطانية. كان من المفروض إرسال الصناديق عبر كندا إلى الملك جورج بمثابة هدية لرفع روحه المعنوية.

تتبعت الصحيفة أصل كل فروة رأس بتفصيل مريع وقاسٍ، كانت 359 منها تعود إلى مزارعين قُتلوا في حقولهم أو في منازلهم، و18 منها معلّمة بشكل خاص لإظهار أن أصحابها قد أُحرقوا أحياء، و43 منها تعود إلى جنود أميركيين أُطلق الرصاص عليهم خلال المعارك، و88 تعود لنساء. وذكر المقال أن عدداً كبيراً جداً منها أُخذ من الأطفال: 193 من الصبيان و211 من الفتيات، والأسوأ من هذا وذاك، أن 29 منها تعود لرضّع.

كان المقال فظيعاً ومريعاً، حذت الصحف من لندن إلى نيويورك وفيلادلفيا حذوه وطبعت نسخها الخاصة على مدى الشهور التالية. سبّب هذا المقال ذعراً في بريطانيا في حين ازداد الاحتقان الشعبي في أميركا ضد بريطانيا بسبب طلبها لمثل هذه الجرائم المريعة.

هناك أمر مهم فيما يخص هذا المقال، بالطبع خمنّت بالفعل ماهيته، لم يكن هذا المقال حقيقياً، لم يكن أيُّ جزء منه حقيقياً. لم يكن هناك شخص يدعى كابتن غيريش، وبالتأكيد لم تكن هناك صناديق شنيعة تحتوي فروات رؤوس بشرية في طريقها إلى الملك جورج المتعطش للدماء.

في الحقيقة، لم يكن المقال مزيفاً، بل الصحيفة بحد ذاتها كانت مزيفة أو على الأقل لم يكن العدد الذي نتحدث عنه موجوداً. لنكون أكثر تحديداً، كانت صحيفة بوسطن أنديبناندنت كرونيكل حقيقية، وكان اسمها الكامل بوسطن أنديبناندنت كرونيكل أند يونيفرسل أدفرتايزر، لأنّ صحف القرن الثامن عشر لم تكن علامات تجارية، ولكنّ الملحق كان مفبركاً منذ البداية حتى النهاية. فقد كان مقال الفروات في الصفحة الأولى مجرد خيال، وأيضاً رسالة بطل الحرب جون بول التي تلتها، وأيضاً الإعلانات التي تتناول «قطعة الأرض الكبيرة» و«الحديقة الملائمة» المعروضَتين للبيع والتي ملأت الفراغ في أسفل الصفحة الثانية.

كان الأمر كلّه تزييفاً أُنجز باحترافية عالية. لم تكن أصوله المخادعة لتظهر لك ما لم تكن تنظر عن كثب، أو ما لم تكن مهووساً بطباعة القرن الثامن عشر. لو كنت كذلك – إضافة إلى كونك شاكراً أنك وُلدت قبل عدة قرون من اختراع كوميك سانس–لكان من المحتمل أن تلاحظ أن نوعية الأحرف المستخدمة لطباعة الصحيفة لم تكن أميركية أو بريطانية، بل كانت في الواقع فرنسية.

هذا لأنّ الصحيفة لم تُطبع في بوسطن بل طُبعت في باسي التي تعتبر مجتمعاً مثالياً سياحياً يتمتع بمنتجعات لطيفة ويقع في ضواحي باريس. لم تكن للكاتب علاقةٌ بالأنديبناندنت كرونيكل ولم يقطن في أميركا لسنوات. لم يكن الشخص الذي زيّف الصحيفة سوى سفير الولايات المتحدة في فرنسا – المؤسس الأول والعلّامة، كاشف التزييف المستقبلي، ومهووس طباعة القرن الثامن عشر بينجامين فرانكلن.

أجل، إنه هو مجدداً.

ما الذي دفع فرانكلين رجل العلم والكتابة وأكثر شخصيات عصره تبجيلاً إلى اختلاق هذه الخدعة الهائلة؟ الجواب العملي بسيط جداً، كان تجييشاً إعلامياً ضد بريطانيا. في الوقت التي طرح فيه فرانكلين خدعته لم تكن الحرب الثورية قد انتهت، مضى على النصر الفرنسي الأميركي الحاسم ستة أشهر، وبدأ الحديث عن هدنة باريس للتو. في الواقع، لم توزع خدعة فرانكلين في أميركا، ولكنّه أرسلها إلى حلفائه في بريطانيا وإسبانيا وهولندا. كان هدفه الذي نجح فيه هو زرع بذور القصة في الصحافة البريطانية آملاً أن يوجه الرأي العام نحو دفع التعويضات لأميركا بسبب الوحشية التي سببتها بريطانيا.

لكن بالرغم من أن هذا هو السبب المباشر الواقعي، فقد كان هنالك سبب أعمق، وأعتقد أنه إجابة أكثر إرضاءً لسبب قيامه بهذه الخدعة، وهو على النحو الآتي: أحبّ بينجامين فرانكلين الكذب، ولم يستطع الحصول على القدر المرُضي منه. أحبّه منذ سنوات مراهقته حتى الأيام الأخيرة قبل موته عن عمر ناهز الرابعة والثمانين. لم يكف فرانكلين عن الكذب وكان ذلك يشعره بالبهجة. في بعض الأحيان فعل ذلك لأسباب سياسية، وفي أحيان أخرى لتحقيق مكاسب مالية، وفي غيرهما من الأحيان للمتعة الشخصية، وغالباً ما فعل ذلك فقط ليثير فرحاً ناتجاً عن إحداث الفوضى. قد

تسبب تضليل الآخرين بعواقبَ أعظم ولكنّ فرانكلين يُعتبر أحد أكثر منتجي الأكاذيب مهارةً وابتكاراً في التاريخ.

بدأ عمله في الخداع مذ كان مراهقاً عام 1722 عندما منعه أخوه الأكبر جيمس من الكتابة في صحيفة «نيو إنغلند كورانت» التي نشرها جيمس. كان بينجامين منزعجاً لحرمانه من قواه الإبداعية، ففعل ما قد يفعله أي مغامر في السادسة عشرة من عمره: اخترع أرملةً في أواسط العمر تُدعى سايلنس دوغود وقدّم المقالات تحت اسمها. نشر جيمس فرانكلين أربعة عشر مقالاً منها، وجذبت السيدة دوغود متابعةً جيدة تضمنت عدة عروض للزواج.

وبما أن أولى غاراته الغادرة تكللت بالنجاح الباهر، تابع فرانكلين ببهجة من حيث توقفت سايلنس دوغود. نشر صحيفته الخاصة في فيلادلفيا بحلول عام 1730، بنسلفانيا غازيت طبع فيها بيانات خيالية بالكامل تتناول محاكمات الساحرات، في الواقع، لم تكن هناك أية محاكمات للساحرات في أميركا لعدة قرون. خلال ثلاثينيات القرن الثامن عشر، لاقى فرانكلين نجاحاً تجارياً ضخماً من خلال نشر تقويم ريتشاردز بور، وكان يكتبه بقلم شخصية غير موجودة، وشن من خلال هذا التقويم حملة طويلة الأمد وذات عائد مرتفع ضد ناشر التقويم المنافس تيتان ليدز. انتهت تلك الحملة بتوقع ريتشاردز بور موت منافسه، وإعلانه الخاطئ في السنة التالية أن التوقع كان صحيحاً وأنّ ليدز قد مات بالفعل. نتفهم أن ليدز الحي تضايق بسبب هذا وبالتحديد عندما أصرّ فرانكلين على متابعة القول إنه ميت، وإنّ الشخص الذي لا يزال ينشر التقويم في مكانه لا بد أن يكون شبحه. عندما مات ليدز بالفعل بعد عدة سنوات عام 1738، هنّأ فرنكلين الشبح لأنه قرر أخيراً أن يتخلى عن المهزلة. ثم نشر رسالة مزيفة من ليدز زعم أنها أُمليت عليه من السماء.

يجبر هذا النوع من الإشارات العالية المستوى أكثر الكاذبين تفانياً على التقاعد شاعرين بالنصر، ولكنّ فرانكلين لم يكن قد انتهى من الكذب. ففي عام 1747، تمكن من نشر بيانات خيالية بالكامل عن محاكمة في بوسطن في صحيفة لندن، تمتعت القصة برسالة من الحركة النسوية ونهاية ملتوية رائعة، استطاعت هذه القصة تحقيق المكافئ اللغوي لكلمة «انتشار هائل» الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر (والذي تحدثنا عنه سابقاً). سنعطيك فكرة عن مقدار الجهد الذي بذله فرانكلين في أضعف حيله، في عام 1755، طبع فصلاً مزيفاً كاملاً وأدخله إلى الإنجيل، فعل ذلك ببساطة ليربح جدالاً كان يجريه مع سيدة بريطانية غنية.

ليس من الواضح بالضبط كم كان فرانكلين جدّياً في توقعه أن يصدق الناس أغلب خدعه.

ففي النهاية، لم يكن الشخص الوحيد الذي ينشر قصصاً خيالية تحت اسم مستعار في ذلك الوقت. قاد ظهور الصحافة المطبوعة إلى دفق هائل لما نسميه المحتوى، وحاول الناس استيعاب حقيقة أن بعض ما يُطبع يمكن أن يكون صحيحاً وقد يكون بعضها الآخر مختلَقاً.

قبل عدة سنوات من اختراع فرانكلين لسايلنس دوغود في عام 1722، نشر دانييل ديفو (روبنسون كروزو)؛ وهي رواية بريطانية خيالية، وقد كُتبت على نمط السير الذاتية الحقيقية. وفي الوقت نفسه تقريباً، كان جوناثان سويفت مشغولاً باختراع أسلوب ساخر حديث. هل كانت نية فرانكلين الخداع في الواقع؟ أم أنه جرّب ببساطة نوعاً أدبياً جديداً كانت حدوده الأخلاقية مشوشة

بعض الشيء؟ يعتبر الخط الفاصل بين الخداع والمحاكاة الساخرة ضبابياً حتى في الوقت الراهن، إن القاسم المشترك بين جميع حيل فرانكلين هو أنها منافذ لحسه الفكاهي الساخر والشديد النشاط. ببساطة، لم يكن فرانكلين مخادعاً عادياً. طبقاً لإحدى القصص غير المؤكدة، يُقال إن توماس جيفرسون شرح للناس لماذا لم يُطلب إلى فرانكلين أن يكتب بيان الاستقلال: «السبب أنه لم يكن ليصيغه من دون وضع فكاهة فيه». أعتقد أنني أتكلم بلسان العديد من الأشخاص عندما أقول إنه عار حقيقي أن التاريخ قد رفض بيان الاستقلال البديل الأكثر إضحاكاً الذي كان بينجامين فرانكلين سيكتبه.

لا تسئ فهمي. يعتبر البيان عملاً متماسكاً بوضعه الحالي، ولكنّه ليس هزلياً. لا أعتقد أن هناك ضيراً لو أُدخل بعض الهزل فيه لترطيب الأجواء.

في الوقت الذي كانت فيه معظم خدعه تسعى وراء الإمتاع (متعته الشخصية على الأقل، وربما متعة الآخرين)، إلا أن هذا القول لا ينطبق على مقال الفروات. فعند كتابته لذلك المقال كان الغضب يتفوق على نيته الساخرة. في تلك المرحلة من مسيرته المهنية، كان يعرف تماماً مقدار التصديق الذي سيحصده المقال، وعرف تماماً كيف يزرع مقالاً خاطئاً في صحافة بلد بطريقة تجعل المقال ينتشر عالمياً، ويُنسخ من صحيفة إلى أخرى، وينتقل من دولة إلى أخرى. كانت خدعة مدروسة لتحقق في النهاية أهدافاً دبلوماسية قذرة. لقد أُنجزت بإتقان، فقد كان رقم الإصدار على الصحيفة هو نفسه رقم الإصدار الذي صدر قبل شهر، وقد حمل المقال اسم محرر الصحيفة الحقيقي، وبدت الصحيفة نسخة طبق الأصل تقريباً في الشكل المضمون عن بوسطن أنديبناندنت كرونيكل الحقيقية (ولكن على غرار المزورين عبر التاريخ، لم يستطع فرانكلين مقاومة فرصة إجراء تحسين طفيف على الشيء الذي كان عليه أن يقلده، استخدم خطاً داكناً أنيقاً ولكنه مناسب لرواية القصص، كان عليه أن يصنعه خصيصاً لصحيفة باسي الخاصة به). عندما أرسل الصحيفة إلى جون آدامز، قام بتنفيذ الخدعة القديمة التي تقتضي بالتظاهر بأنّه يشك في أنها مزيفة بالرغم من أنه هو الذي صنعها قبل عدة ساعات[99].

ولكن بالرغم من أن هدف التضليل الإعلامي لفرانكلين كان البريطانيين، إلا أن المقال انتهى بجرح مجموعة مختلفة تماماً من الضحايا، وهي الأميركيون الأصليون، فقد أنشأ حولهم ما يمكن وصفه فقط بأنّه كذبة عنصرية شاملة. في بحثه الدموي عن تفاصيل تعطي مقاله إحساساً جاذباً للاهتمام، كرر فرانكلين كذبةً وضخّمها وزخرفها حول الأمم المحلية صبغت الانطباعات المتعلقة بهم طيلة العقود التالية.

لنكن واضحين، لقد حدث قطع فروات الرؤوس خلال الحرب الأميركية، ومارسه السكان الأصليون قبل وصول المستعمرين الأوروبيين بوقت طويل. ولكن منذ أوائل الحرب الثورية، رفع الدمج الكبير للخوف مع الشائعات والدعايات المضللة من مقدار حصوله ليصبح خطراً دائماً أكبر بكثير من معدل حدوثه الفعلي. أصبح حكاية شعبية ووحشاً عالمياً دائم التربص. عنت الهمسات والشائعات أن القصص الخاطئة عن المذابح وقطعِ فروات الرؤوس الجماعي من قبل الهنود المدعومين من قبل البريطانيين الذين أعلنوا عن منح الجوائز مقابل إحضار فروات رؤوس

الأمريكيين البيض كانت شائعة الحدوث، إحدى هذه الخدع وُضعت في بيان الاستقلال. (لو وُضعت الفكاهات فيه بدلاً منها لكان أفضل حتماً). في الواقع، لم تكن هذه الجرائم حِكراً على الهنود. ففي الواقع مارسها العديد من الأطراف خلال الحرب، فقد عرضت القوات الثورية جوائز كبيرة بشكل متكرر على فروات رؤوس الهنود. بالطبع، قبل تركيب فرانكلين لجريدته المزيفة بعدة أسابيع، يُحتمل أن أفظع ويلات الحرب حدثت في غندينهاتن، أوهايو، عندما جمعت القوات الثورية أكثر من 90 رجلاً وامرأةً وطفلاً من الهنود غير المسلحين وحبستهم في الحظائر قبل أن تضربهم حتى الموت بالمطارق ثم سلخت فروات رؤوسهم.

ربما لو بقيت كذبة فرانكلين حيث كان مقدراً لها، في صحافة لندن الربيعية لعام 1782، لصارت مجرد حاشية للتاريخ في يومنا هذا. ولكن بدلاً من ذلك، امتدت حياتها لما بعد توقيع معاهدة السلام الأخير في عام 1783. هذه هي مشكلة الأكاذيب المقنعة، حالما تنشر المعلومات المغلوطة في العالم، لا تختفي ببساطة بعد أن تنجز العمل الذي أُريد منها، فالأكاذيب مثل الأموات الأحياء: ترفض الموت وتسعى للحصول على دماغك.

هذا ما حصل مع خدعة فرانكلين التي شقّت طريقها إلى الحياة مجدداً بعد أكثر من عقدين من مماته. في ظل محاربة الولايات المتحدة الأمريكية لبريطانيا مجدداً في حرب عام 1812 مع بعض القبائل المحلية التي أخذت جانب بريطانيا، فجأةً بُعث المقال إلى الحياة بطريقة ما. وكان وقْعه أكبر بكثير هذه المرة.

عندما نشر فرانكلين مقاله للمرة الأولى التقطته ثماني صحف، ولكن في دورة المقال الثانية بين عامي 1806 و1814 نشرت أكثر من 27 صحيفة مختلفة نسخاً منه، تراوح موقع اثنتين منها بين كارولاينا الجنوبية وفيرمونت خلال فترة سبعة شهور من العام 1813. ترسبت هذه الأسطورة في وعي الشارع الأميركي مضيفةً إلى تصوراته عن الهنود الوحشيين عديمي الرحمة. بالرغم من أنه في النهاية عرف العامة أن فرانكلين اعترف بأنها خدعة في رسائله، إلا أن تكرارها على أنها حقيقة استمر في بعض الأحيان حتى أيامنا هذه. لا يمكننا أبداً معرفة مقدار تأثير هذه المغالطة الهائلة والقابلة للتذكر على المعاملة الوحشية التي تلاقاها الهنود طيلة القرون التالية، ولكن ما من شك في أن تأثيرها كان كبيراً.

حسناً، إذا كنت تعتقد أن الأخبار المزيفة هي ظاهرة حديثة، ربما عليك إعادة التفكير في الأمر.

الفصل السابع

تصرفات عجيبة

أينما وُجد مال يمكن الحصول عليه، سيوجد شخص يرغب في تزوير الحقيقة للحصول عليه. هذا ليس مفاجئاً حقاً. لقد بنينا عالماً للمال أهمية كبيرة فيه، فالمال يتيح لك العيش، ويُشبع رغباتك، ويعطيك السلطة إذا حصلت على ما يكفي منه. عندما تحوز على قدر كافٍ من المال والسلطة، يمكنك البدء بإجبار الآخرين على فعل ما تريدهم أن يفعلوا، وتغيير العالم من حولك. في نقطة محددة، تنمو هذه السلطة وتكبر إلى درجة أنها تبدو وكأنها تعطيك القدرة على شحذ الواقع ليناسب رغباتك. لن تحتاج بعدها إلى الحقيقة من أجل الحصول على المال، لأن المال سيزوّر الحقيقة من أجلك. إذا عاملك الجميع وكأنّك أعظم رجال الأعمال على الأرض فهذا يعني أنك كذلك تقريباً. تُتاح لك الفرص الممنوعة على الآخرين، بإمكانك التهرب من الفشل الذي قد يدمر شخصاً آخر. يمكنك أن تتصرف كغاتسبي إذا أردت. لو ظنّت تيريز هامبرت أن المال ما هو إلا وهم أو «خدعة سحرية يجب أن تجيدها» فلن تكون مخطئة بالكامل.

في الحقيقة، يجب عليك أن تزيف الواقع حتى تحققه.

سيبحث هذا الفصل في الطرق المختلفة التي اتبعها الناس لتزييف واقعهم خلال سعيهم وراء المال على مرّ التاريخ، حتى حققوا ما يريدونه في النهاية بشكل مؤقت.

من الجدير بالملاحظة الدور الكبير الذي يؤديه الإدراك المتأخر في كل هذا. في مجال الأعمال لا يتم التسامح مع مبدأ «زيّف واقعك حتى تحققه» بل عادةً ما يُدرّس بوصفه درساً مهماً في مجال ريادة الأعمال، إضافة إلى النوادر البطولية للجرأة المغرورة المتشاركة بين نوع الأشخاص الذين يفضلون موقع لينكدإن من بين كل شبكات التواصل الاجتماعي. على سبيل المثال: بدأت شركة مايكروسوفت عندما اتصل بيل غيتس برئيس الشركة التي صنعت الحاسوب الشخصي الرائد، وأخبره مدعياً أنه وبول ألان شريكه كتبا برنامجاً للحاسوب. تأثر الرئيس إيد روبرتس فطلب إليهما القدوم وعرضه. كان العرض رائعاً، إلا أن ادعاء غيتس لم يكن صحيحاً ولو بأقل درجة من درجات الصحة. فهما لم يمتلكا منتجاً منتهياً حتى إنهما لم يكونا قد بدأا به حتى، لقد كُتب البرنامج في الواقع خلال الشهرين اللذين فصلا بين المكالمة الهاتفية والعرض. وبما أنهما لا يملكان حاسوب

ألتير لاختبار البرنامج، فإنه لم تكن لديهما أدنى فكرة عما إذا كان برنامجهما سيعمل حتى يوم العرض[100].

ليس هذا مثالنا الوحيد، حتى وإن حددنا العينة بالشركات التقنية الأميركية المسيطرة عالمياً. عندما كشف ستيف جوبز عن جهاز الآي فون عام 2007 واعداً بجهاز ثوري وسحري من شأنه نقل الهاتف الذي نعرفه إلى مستوى آخر، كانت لديه مشكلة صغيرة؛ لم تكن شركة آبل قادرة بعد على إنتاج جهاز آي فون يعمل فعلياً. ظلّت نماذجهم التجريبية تنهار، وتتوقف عن العمل، وتفصل المكالمات. عندما عرض جوبز الآي فون أمام الجمهور في موسكون سنتر في سان فرانسيسكو مظهراً تنقلاً عادياً بين التطبيقات في عرض ماكر لقدرة الجهاز على التنقل بين الألعاب ولإفادته اتبع في الواقع «طريقاً ذهبياً» ثابتاً ومحدداً؛ أي سلسلة محددة من الأفعال التي نجحت بالعمل بمشقة والتي حددها مهندسو الشركة على أنها التسلسل الوحيد الذي قد يعمل الهاتف فعلياً من خلاله دون أن يتعطل[101].

بالطبع، إن السبب الذي جعل من غيتس وجوبز يحتلان موقعهما في المقررات الدراسية في مدارس ريادة الأعمال حول العالم هو الحقيقة البسيطة التي تقول إنهما زيفا الأمر حتى وصلا إليه أخيراً. أطلقا أحكاماً معتمدة على تخمين قدراتهما على الإيفاء بوعودهما، وتبينت دقتها الكاملة. أثبتت شركة مايكروسوفت الناشئة همتهما على البرمجة وجاهزيتها للسيطرة على سوق الحوسبة، وأصلحت أبل مشاكل ذاكرة الآي فون من خلال شريحة جديدة مصنعة خصيصاً. ملاحظة مهمة جداً للمحامين الذين يقرؤون هذا: لا أقول إن بيل غيتس وستيف جوبز كانا محتالَين أو نصابَين أو أي شيء من هذا القبيل. كانا جيدين فيما فعلاه! كُتب هذا الكتاب باستخدام برنامج وورد على جهاز ماكبوك برو! شكراً لكما أيها الرجلان.

لكنّ الفكرة هي أن هذا كله استرجاع للماضي: لا تستطيع اكتشاف ما إذا كان التاريخ سيصنفك تحت اسم «مزور» أو «مبتكر». إضافة إلى أنه لا يؤمن لك دليلاً مفيداً لتتصرف تبعاً له الآن. «انطلق وارتكب الأشياء الوسخة لأنّك مستقبلاً ستصبح ناجحاً، وستصبح هذه الأشياء مجرد خدع ممتعة»، هذا المبدأ غير مقبول بشكل عام بوصفه فعلاً أخلاقياً مشروعاً في أي دين من أديان العالم الرئيسة، ما عدا الرأسمالية، وهو أيضاً يعتمد بشكل كبير على نجاحك بتبرير كل الأمور التي اقترفتها من قبل.

بالطبع، يظهر الوجه الآخر لهذا عندما يطلق الناس تخمينات غير دقيقة لقدراتهم على الإيفاء بوعودهم. في هذه الحالة تحصل على ثيرانوز بدلاً من أن تحصل على ميكروسوفت أو آبل؛ أي إنك تحصل على شركة تقنية حيوية خيالية تُقدر قيمتها بعشرة مليارات دولار مبنية على نوع ثوري جديد من اختبارات الدم، تبين لاحقاً أنها لا تستطيع اختبار الدم بشكل جيد. كان ذلك مثالاً قانونياً على تزييف الواقع وعدم تحقيقه، ثم تزييفه أكثر، لينتهي المطاف بمواجهة تهم الاحتيال. ولكن قبل السقوط النهائي، احتُفل بشكل واسع بالشركة ومؤسستها اليافعة إليزابيث هولمز من قبل الإعلام على أنهما من الرواد الأوائل، نُشرت صورها على أغلفة لمجلات وقُورنت بستيف جوبز، يبدو أن هذه المقارنة كانت مبنية على ارتداء هولمز كنزات سوداء بياقات مدورة على أمل أن

يقارنها الناس بستيف جوبز (بدلاً عن التحدث بالأمر بتفصيل أكثر سأقول لكم أن تقرؤوا مقال «باد بلد» الذي كتبه جون كاريرو، وهو الصحافي الذي فضح ثيرانوز للمرة الأولى عام 2015، لأنّ هذا المقال صادم فعلاً).

لتوضيح ذلك بطريقة مختلفة، لو أمضى غريغور ماكغريغور وقتاً أقل في تصميم رسوم ميداليات الشرف ووقتاً أكبر في تجنيد الأشخاص الذين يتمتعون بالمهارات المطلوبة لبناء بلد في وسط الغابات، هل كان سيظهر في هذا الكتاب؟ ربما كان سينجو من هذا الكتاب، وربما كان سيُحتفى به بوصفه رائداً بطلاً، وكنا سنسمي أشياءً باسمه، وستسبب الكتب التي تقول إنه ربما كان مخادعاً خلافات دبلوماسية مع حكومة بوياس، وسيكتب الصحفيون أعمدةً غاضبة لإدانة طلاب الجامعات الذي قدّموا التماسات لإزالة تماثيله.

نستطيع أن نرى كيف يمكن أن تكون هذه الهوامش عن طريق مراقبة قضية وايتاكير رايت.

كان رايت النموذج الكامل للصناعي الفيكتوري الفاحش الثراء، رجلاً عصامياً، ارتقى بنفسه من الفقر، وامتدت أعماله ومصالحه عبر القارات، وتم الحديث عن ثروته بشكل واسع مبهر. عندما أقول «واسع مبهر» فأنا أقصد ذلك بالفعل. كان لديه كل شيء: ممتلكات على اتساع البلاد، قصر في أرقى أجزاء لندن، يخت هائل الحجم كان يتسابق مع يخت صديقه القيصر ويليام الثاني. ولكن أهم ممتلكاته كان ويتلي بارك؛ وهي سلسلة من البحيرات الاصطناعية، في واحدة منها كان هناك شيء يبدو وكأنّه خارج من روايات الخيال العلمي، وهو غرفة للتدخين تحت الماء، قبة زجاجية بارتفاع 18 قدماً بأرضيات من الموزاييك في قعر البحيرة، يتم الدخول إليها عبر نفق طوله 350 قدماً، سمحت هذه الغرفة لضيوف رايت بتدخين السجائر والشرب والرقص ومشاهدة الأسماك تسبح في مياه البحيرة فوقهم. وصفتها صحافة ذلك الوقت بـ «الغرفة الخيالية المغمورة»، ووصفها رايت بـ «الكهف الكريستالي»، كان يتم تنفيس الدخان من خلال فم تمثال لنيبتون موضوع على السطح، ويُنظف زجاج القبة من قبل فريق من الغواصين.

دعني أقلها مرة ثانية: غرفة تدخين تحت الماء. إن لم تكن لديك غرفة تدخين تحت الماء، فهل تستطيع القول إنّك نجحت فعلاً؟

ولكن المشكلة هي أن إمبراطورية أعمال رايت كلها مبنية على الأكاذيب.

كان رايت بريطانياً، ولكنّه حصل على ثروته في أميركا في البدء ثم في أستراليا وكندا. هاجر مع عائلته إلى أونتاريو بعد إفلاس أعمال الطباعة التي أوجدها مع أخيه في هاليفاكس بعد سنة، كان ذلك طعماً مبكراً للفشل، صمم رايت على عدم تذوقه مرةً أخرى. في بدايات سبعينيات القرن التاسع عشر انتقل إلى فيلادلفيا عندما كانت أعماله تزدهر في كل مكان. في البداية، كان نجاحه المالي شرعياً بالكامل، إلا أنه كان مدعوماً من قبل مزيج من الإيمان بالنفس الكبير، والأساليب الساحرة والفصيحة، وبعض الشهادات المزورة، بالرغم من أنه ترك المدرسة عندما كان في الخامسة عشرة من عمره إلا أنه أضاف جملة «الحائز على الماجيستر» بعد اسمه وادعى أنه

درس الجيولوجيا في جامعة هيديلبيرغ المرموقة. بدا أنه مصمم على أن الجهود التي تحول دون التحقق من هذه الشهادات ستنجح.

أصبح رايت مهووساً بعمل المناجم، وقرر أنه كان المستقبل. كانت لديه موهبة حقيقية في تخمين نوعية المعادن الثمينة، فذهب شمالاً للانضمام إلى السعي المحموم وراء المعادن الثمينة. بدأ في مدينة التنقيب عن الفضة ليدفيل التي كانت تُرى كتيار جارف من آلاف المنقبين في السنوات السابقة، وكان تنقيبهم ينتج ملايين الدولارات في السنة. كانت مكاناً موحشاً وخطراً (لاحظ أوسكار وايلد الذي زارها بعد عدة سنوات أن متوسط قطر عضلات الأذرع هنا أكبر من قطر وسطه)، وكانت ملوثة بالثروة الفاحشة والعديد من الأشخاص الذي كانوا متلهفين للحصول على بعض من هذه الثروة.

في البداية، سلك رايت الطريق الذي سلكه العديد من الأشخاص الآخرين: حياة الحفر المضنية والبحث عن دليل على وجود الثروات. ولكنّه سرعان ما وقع في شراك رجل يُدعى جورج دي روبرتس وهو مختص تنقيب مشهور كانت تدور شكوك حول أخلاقه، كان متورطاً في فضيحة تنقيب حصلت قبل عقد من الزمن (خدعة الماس العظيمة عام 1872، عندما زرع منقبان يدعيان فيليب أرنولد وجون سليكات الألماس غير المقطوع في أرض بور ليقنعا المستثمرين بأنّ الأرض تحتوي على ثروة كبيرة يجب أن تُستخرج). يبدو أن المبدأ العام للفكرة أبهر روبرتس ورايت لأنّه طريق أسهل بكثير للنجاح المالي من التنقيب بشكل فعلي، بدلاً من أن تعاني من اكتشاف آثار الفضة الثمينة كل ما عليك فعله هو إقناع المستثمرين المغرورين بأنّك اكتشفت آثاراً غنيةً من الفضة وقبول نقودهم بكل امتنان. بحلول الوقت الذي يدركون فيه أن ما اشتروه ليس إلا حفرةً في الأرض، ستكون قد مضيت قُدماً بالقوة والتأثير والحصانة ضد العواقب التي يمكن للمال أن يشتريها لك.

بجميع الأحوال، لم يكن مصدر ثراء ليدفيل وسهولة قابليتها للاستغلال الفضةَ، بل كان شعبها وتعطشه للحصول على الثراء السريع.

في الحال وجد رايت تركيبةً ستساعده جيداً في حياته: استخدام شخصيته الساحرة لإقناع شخص ما يمتلك شهادات موثوقة وحالة اجتماعية مرموقة بأن ينضم إلى مشروعه، واستخدام سمعتهما وشخصيته المهيبة لإنشاء انطباع بأن دعم مشروعاته شيء مضمون خصوصاً بوجود الإعلام الذي يسهل التلاعب به. كان أول دروعه البشرية عالم الحفريات الأميركي المرموق إدوارد درينكير كوب، وهو شخص يعرف الكثير عن استخراج المعادن من الأرض، ولكنّه يعرف القليل عن قدرة البشر على الكذب. تمكن رايت من إنشاء شركة التنقيب الأولى التي وصلت قيمة أسهمها في البورصة إلى 5 ملايين دولار، وهذا الرقم أكبر مما تساويه بشكل ملحوظ.

ذلك هو النمط الذي رغب رايت في أن تتبعه حياته، الانتقال من مشروع إلى آخر، من دون أن تزعجه فكرة أنه خلّف وراءه مجموعةً من المستثمرين المحبطين. كان يسيطر على الإعلام المطيع، بدت بعض توصيفاتهم له كأنها مأخوذة من رواية ميلز أند بون، فقد كتبت ألباني ريفيو: «إنه رجل كبير وقوي وبارع، تسلب كل جوانب شخصيته أنفاسك وطاقتك وأحلامك». عندما عاد رايت من الولايات المتحدة إلى إنكلترا لينشئ شركة «لندن والعالم» التي ستأخذ موهبته في تحسين

أسهم التنقيب إلى مستويات أعلى، تأكد من أن مجلسه مملوء بعظماء مجتمع لندن، بمن فيهم العديد من نخبة المملكة. وُجّه كل شيء نحو التأكد من أن الضغط الاجتماعي سيمنع أي شخص من طرح العديد من الأسئلة.

لكن لسخرية القدر، لم يكن سقوط رايت الأخير بسبب اكتشاف أحدهم حقيقة أن مناجمه لا تنفع لأن تكون مناجم في الحقيقة. بل سبّبه مشروع نفقي آخر تماماً، فقد قرر رايت بناء نفق.

بعد أن أدرك أنه يحتاج إلى أن ينوع أعماله وخصوصاً أنّ مملكته مبنية على أرض هشة، وبعد أن قدّر أن الشيء الوحيد الذي قد يساعد في دعم شهاداته هو إظهار بعض الاهتمام العام، وجّه أنظاره نحو أعمال البناء المتوقفة في شارع باكر وقطار أنفاق ووترلو. كان الموقع يعاني من مشاكل البناء منذ بدايات تسعينيات القرن التاسع عشر، ويعاني أيضاً من التأخير المتكرر والصعوبات المالية. (أعلم أنه من الصعب تصديق وجود خط قطار أنفاق في لندن يعاني نقصاً في الميزانية ويعاني من عدم انتهاء بنائه في الوقت المحدد). قرر رايت أنه يستطيع المساعدة، فأغدق كثيراً من الأموال على عملية البناء الجارية.

كان ذلك تحولاً، لم يرغب أحد تقريباً في شرائه ولم يكن بمقدور رايت فعل أي شيء لتسريع عملية بناء الخط. قاده الضغط المالي الذي سببه هذا الأمر على باقي إمبراطوريته التجارية إلى نقل الأموال بشكل سلسلة معقدة من القروض بين شركاته مما ضخّم حساباتها في محاولة يائسة أخيرة للحفاظ على وهم أن كل شيء بخير. ولكنها لم تتحمل التحقيقات التي جلبها هذا الأمر، فاعتُقل رايت وحُوكم بتهمة الاحتيال. في عام 1902، أُدين، فانتحر في زنزانة التوقيف في المحكمة بعد دقائق من صدور الحكم.

تسلمت شركة جديدة عملية بناء شارع باكر وسكة حديد واترلو النفقية في السنة نفسها. أنهوا البناء بسرعة ولا يزال صامداً حتى يومنا هذا، إنه خط باركر لو.

قد يكون وايتاكر رايت واحداً من الأمثلة الصارخة للخط الرفيع الفاصل بين العمل الناجح والخداع التام، لكن الاستثمارات التي استغلها ببهجة كانت شائعة على مر التاريخ. في لندن عام 1720، كانت هناك حمى الاستثمار في البحر الجنوبي لدرجة أن مجموعة من المخاطرين استطاعت بيع أسهم موصوفة على أنها «لشركة تحقيق مهمات ذات منافع عظيمة، ولكن أحداً لم يكن يعرف ماهيتها».

بعد عدة أشهر في باريس، أُطلق سراح السجناء من السجن وتزوجوا من العاهرات وشُحنوا إلى لويزيانا، على أساس أنهم يحتاجون بشدة إلى أن يصبحوا مستقرين هناك لأن الجميع يمتلك كثيراً من المال المجمد بسبب حقيقة عبارة عن معجزة اقتصادية على وشك أن تتحقق.

لم يكن وايتاكر رايت الوحيد الذي دخل مجال أعمال السكك الحديدية بناءً على خلفية مريبة. في أربعينيات القرن التاسع عشر، أنفق المتنورون أمثال تشارلز داروين والأختين برونتي وويليام ماكبيس ثاكيراي أموالهم على سكك حديدية جديدة مزيفة، حين كان البرلمان البريطاني يقدم

تصوراً جديداً كل أسبوع تقريباً محدداً فيه أجزاء جديدة لن تبنى من شبكة السكك الحديدية وفي بعض الأحيان لا يمكن أن تبنى أبداً لأسباب علمية.

من السهل الافتراض أن هذه الأنواع من الممارسات التجارية الذكية هي ابتكارات حديثة، وأنّ التعامل مع المتاعب التي تسببها أعمال الخداع هو أمر لم يضر الناس في الماضي، وأنّ قضاء نصف حياتك تشتكي من المهنة السيئة التي تمارسها إلى ممثل الزبائن غير المهتم هو ظاهرة جديدة، أو أن الشخص الذي يشتكي من إحدى الشركات على تويتر يختبر «مشاكل العالم الأول»، وأنّ كذب العاملين في التجارة من دون أن يشعروا بالعار هو شيء حديث.

إذا فكرت في ذلك، أرجوك قابل إيا نصير.

إيا نصير يشبه وايتاكر رايت، لكنّه عاش قبل ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة. إيا نصير تاجر عاش في عام 1750 قبل الميلاد في أور، إحدى أعظم المدن في بلاد الرفدين (ما يسمى الآن بالعراق)، كان تاجراً متنقلاً، يتاجر بكل شيء. ولكن يبدو أن أساس أعماله هو استيراد النحاس من مركز تجاري رئيسي في ديلمون، في منطقة قريبة من خليج العرب.

نعاني جميعاً من بعض الأشياء التي نشعر بالعار بشأنها، ولكن نفضل أن نعتقد أنه إن تذكرنا الناس فسيتذكرون الأشياء الجيدة التي قمنا بها. يمثل إيا نصير الضربة التي تصيب ذلك الأمل، بعد ما يقارب الأربعة آلاف سنة لا يزال اسم إيا نصير واحداً من الأسماء القليلة التي لم يمحها التاريخ، ولكن الشيء الرئيسي الذي نعرفه عن إيا نصير هو أنه كان مخادعاً كبيراً وتاجر نحاس سيئ.

نعلم ذلك، لأنّ علماء الآثار فحصوا منزله المكتشف حيث أرشف مراسلاته (ألواح طينية تحمل رسائل من زبائنه جُلبت هذه الرسائل من قبل وسطاء محترفين). يبدو أنه كان جيداً في الأعمال إضافة إلى أنه قام بالعديد من الأعمال التجارية بالنيابة عن الملك.

لكن مع تقدم الزمن، بدأ يظهر موضوع محدد في رسائل الناس التي أُرسلت إليه، دعني أقولها بشكل فظ، كان الموضوع «ما الذي فعلته بنقودي أيها اللعين عديم الضمير؟».

تلك الألواح الطينية المكتوبة باللغة السومرية التي تعتبر واحدة من أقدم اللغات المكتوبة في التاريخ البشري هي أقدم شكاوى الزبائن المعروفة في العالم.

المتضررون الرئيسون الأربعة الذين نعرفهم هم السادة ناني، وأبيتورام، وآبا، وإيمكوي–سن. بدا من محتويات رسائلهم أنه كانت لديهم مساهمات في رحلات أيا نصير التجارية إلى ديلمون، ووعدهم بالحصول على سبائك نحاسية عالية الجودة في المقابل.

يبدو أن ناني انزعج جداً، عندما أرسل مندوبيه ليأخذوا البضائع، فعرض عليهم إيا نصير حمولة من النحاس السيئ ذي الجودة المنخفضة، واتبع الحيلة القديمة «خذه كما هو أو اتركه هنا»، ورفض إعادة الأموال لناني.

من الجدير بنا قراءة واحدة من رسائل ناني بأكملها لأنّها فعلاً تجعلنا نشعر بقلة ما تغير خلال السنوات الأربعة آلاف الأخيرة في مجال أعمال النصب، والاحتيال بالرغم من صعوبة ترجمة هذه الرسالة من السومرية.

«ذكر أيا نصير أن ناني أرسل الرسالة التالية:

عندما جئت إليّ قلت لي ما يلي: «سأعطي غيميل–سن عندما يأتي سبائك نحاسية جيدة النوعية»، ثم رحلت حينها ولم تفعل ما وعدتني به. وضعت أمام سيت–سين الذي أرسلتُه سبائك سيئة وقلت: «إذا أردت أن تأخذها فخذها، وإذا لم ترد ذلك فارحل!»

من تحسبني لتعامل شخصاً مثلي بهذا الاستخفاف؟ لقد أرسلت مندوبين نبلاء مثلنا ليجمعوا أموالي التي أودعتك إياها، ولكنك عاملتني باستخفاف بإرسالهم خالي الوفاض عدة مرات عبر مناطق الأعداء. هل هناك أحد من بين تجار ديلمون عاملني بهذه الطريقة؟ أنت الوحيد الذي يعامل مندوبيّ باستخفاف! تشعر بحرية التحدث معي بهذا الشكل بسبب كمية زهيدة من الفضة التي أدين لك بها، في حين أنني أعطيت القصر 1080 رطلاً من النحاس نيابةً عنك وأعطاه أومي–أبوم 1080 رطلاً من النحاس أيضاً، عدا عما كتبناه على لوح حجري مغطى ليُحفظ في معبد ساماس.

كيف تعاملت معي بعد تقديمي لكل ذلك النحاس؟ لقد حجبت عني مالي في مناطق العدو، إن أمر إعادة نقودي كاملةً يعود لك الآن.

فلتكن على علم أنه من الآن فصاعداً لن أقبل بأي نحاس منك سوى النحاس العالي الجودة. سأختار من الآن فصاعداً السبائك بشكل فردي في ساحتي وسأفرض عليك حقي في الرفض لأنّك عاملتني بازدراء».

للأسف ليست لدينا أية سجلات لما رد به أيا نصير على هذه الشكاوى فقد أبقى المراسلات المستلمة فقط ولم يُعثر على أية رسائل رد في السجلات الأثرية. هل كانت تلك الإجابات المكافئ السومري لجملة «تقييمك يعني الكثير لنا، نعتذر إن كانت خدماتنا أقل من توقعاتك»؟ أم كانت المكافئ السومري لجملة «من السيئ أنك في هذه الحالة، أيها الفاشل»؟

لا يمكننا أن نجزم، ولكن ربما يمكننا معرفة القليل من خلال رسائل أبيتورام وآبا. يبدو أن أبيتورام كان لديه شيء أفضل من ناني، لذلك كان لديه نفوذ أكبر على إيا نصير، فمن أولى المناورات في رسائله مناورة تهديده بالمطالبة بقروض إيا نصير إذا لم يسلم البضائع إلى مندوبه الغلام الذي يدعى نيغا–نانا.

يبدأ أبيتورام أولى رسائله: «أعطِ الفضة وأرباحها لنيغا–نانا». ثم يكمل مهدداً: «لماذا لم تسلم النحاس؟ إذا لم تسلمه فسأستخدم تعهداتك». وتكمل رسالته التالية على المنوال نفسه فتبدأ الرسالة بجملة: «لماذا لم تعط النحاس لنيغا–نانا؟»، ثم تنتهي بجملة: «أعطِ النحاس لنيغا–نانا». وكأنّ الجملة لم تدخل في وعي متلقيها بعد.

ثمّ ينضم آبا إلى الخلاف: «نحاسي، أعط نيغا–نانا نحاسي، أعطه نحاساً جيداً كي لا يتعب قلبي».

بعد ذلك ينضم إيمكوي–سن ويعيد صياغة الجملة قائلاً: «أعط نيغا–نانا نحاساً جيداً مختوماً...» ثم يشدد عليها مجدداً لتصبح شديدة الوضوح: «كي لا نسبب لك المشاكل أعط النحاس الجيد له».

ثمّ يضيف، بنبرة حزينة يعرفها كل من علق بانتظار خدمات تقنيات الاتصال السريع لساعتين، بالرغم من آلاف السنين التي تفصلنا عن تجار أور: «ألا تعلم كم أنا متعب؟».

هل نجح ذلك مع إيا نصير؟ يبدو أنه نجح بشكل رائع لبعض الوقت، ثم تحطم كما حصل مع رايت.

كما ذكرنا سابقاً، حصلنا على كل هذه الألواح لأنّ بيت إيا نصير اكتُشف خلال الحفريات التي أجراها علماء الآثار في خمسينيات القرن العشرين. ولاحظ عالم الآثار الرئيسي ليونارد وولي شيئاً مثيراً للاهتمام في مسكن الرجل. كان منزلاً كبيراً وفخماً، يتلاءم مع أهمية صاحبه. ولكن مع اقتراب الفترة التي تاجر خلالها الرجل يبدو أن معظم منزله ضُمّ ودُمج بشكل مفاجئ مع بيت جيرانه.

ما الذي استنتجه وولي؟ أُجبر صديقنا بشكل مفاجئ وعاجل على السكن في منزل أصغر وتبني أسلوب حياة مقتصد. بعد سنوات من المراجعات التي دمرت سمعته، لاحقته أخيراً نسخة بلاد الرافدين من شركة بيلب.

تخبرنا قصة أيا نصير أن الأمور الجديدة التي تظهر حولنا حالياً قليلة جداً. منذ بدء الحضارة عانينا من منتهزي الفرص الراغبين في ليّ ذراع كل شخص آخر. منذ أن وُجدت النقود، كان هناك أشخاص تجلت مهارتهم الأساسية في إقناع الأشخاص غير المحظوظين بالتخلي عنه. ومنذ أن وجدت الكتابة، كنا نكتب الرسائل الغاضبة لنسأل عن نحاسنا وسبب عدم تسليمه إلى نيغا–نانا.

إذا أردت أن تحصل على المال فهناك بعض الأعمال الجيدة لتقوم بها بدلاً من أعمال معالجة أمراض الناس. يمتلئ تاريخ الطب بالبائعين الذين يشبهون الأفاعي، الذين يروجون لعلاجات خيالية وخادعة. في بعض الأحيان يكون الدواء من زيت الأفاعي حرفياً، مثل حالة مرهم زيت الأفاعي الخاص بكلارك ستانلي، الذي فُحص في حالة مميزة عام 1916 من قبل مكتب الكيمياء في الولايات المتحدة، ووُجد أنه يحوي صفراً بالمئة من الأفاعي. قبل السيد ستانلي بغرامة تبلغ 20 دولاراً وأورث اللغة الإنجليزية عبارة جديدة بالكامل وهي عبارة «المروّج».

لكنّ ستانلي ليس وحيداً في هذا. فخذ على سبيل المثال الهاداكول؛ السائل الريادي البني ذا الرائحة النفطية الذي صُنف في الأربعينيات والخمسينيات بوصفه علاجاً للعديد من الأمراض، في

حين أن كل ما كان يحتويه في الواقع هو بعض الفيتامينات إضافة إلى ما نسبته 12 بالمئة من الكحول التي تعتبر أكثر تأثيراً على أرقام مبيعاته.

لكن تجارة الأدوية الزائفة أخذت خطوةً أبعد وأكثر غرابةً من خداع السُّذج لشراء عبوات من السائل الذي لن يشفيهم من أي شيء. من أكثر المخادعين المعروفين والناجحين في القرن العشرين «الطبيب» جون آر برينكلي؛ المعروف من قبل معاصريه باسم «طبيب غدة الماعز».

لمَ سميّ باسم طبيب غدة الماعز؟ حسناً، إنه سؤال مثير للاهتمام. أنا سعيد لأنّك سألت. لأنّه نقل خصيات الماعز إلى البشر، لمعالجة العنانة.

لم يكن برينكلي طبيباً بالرغم من استخدامه هذا اللقب. لم يتخرج من أية كلية طبية معروفة بالرغم من أن هذا لم يكن بسبب قلة المحاولة. فلطالما شعر بانجذاب نحو مهنة الطب، وسجّل في عدة كليات طبية، ولكنّ الظروف المالية وحياته الشخصية المعقدة (في نقطة ما، اختطف ابنته وأخذها إلى كندا) أدت إلى عدم إنهاء أي منها.

لكنّه لم يكن ليسمح لشيء صغير كهذا أن يقف في طريق حلمه في ممارسة الطب، لذلك أنشأ غرفة عمليات جراحية في كنساس. في بادئ الأمر، كانت هذه الغرفة جيدة جداً، فقد قام بعمل ممتاز في معالجة ضحايا وباء الإنفلونزا عام 1918. ولكن لم يمضِ كثير من الوقت قبل أن يواجه الحركة التي ستجعله غنياً. عندما قابل مريضاً قلقاً بشأن أدائه الجنسي، انتهى به الأمر بطريقة ما بزرع خصيتين من أحد حيوانات الماعز في كيس الصفن.

من الواضح، أن هذا لم يفد في شيء سوى منح الرجل زوجاً إضافياً من الخصيّ الذي اختفى تدريجياً مع مرور الوقت وجدد من شعوره بالثقة بالنفس. لكنّ العلاج أصبح منتشراً بشكل كبير ومدعوماً بدعايات برينكلي الشديدة وشاءت المصادفة المحضة أن أنجبت زوجة أحد مرضاه الأوائل طفلاً بعد العملية. ويجدر بالذكر هنا أن الطفل كان بشرياً، ولم يكن هجيناً بشرياً–حيوانياً مرعباً.

ربما لم يكن برينكلي طبيباً جيداً، لكنّه كان رجل دعاية رائعاً ورائداً. كان من أوائل من أدركوا قدرات الراديو الحديث نسبياً. أنشأ محطة راديو في كنساس، واستخدمها ليخبر عن علاجاته باطمئنان. وأخيراً، عندما حجبت حكومة كنساس رخصة الراديو، انتقل ببساطة إلى المكسيك وتابع بثه من هناك مستخدماً جهاز إرسال عالي الطاقة.

إضافة إلى أنه حاول الانخراط في عالم السياسة، وكان قاب قوسين أو أدنى من أن يصبح حاكماً لكنساس. فبترشحه لانتخابات عام 1930، كان هناك احتمال بفوزه لولا وجود قاعدة تقول إن اسمه لا يُحتسب إلا إذا كُتب بطريقة واحدة في كل أوراق الاقتراع، مما أدى لاستبعاد آلاف أوراق الاقتراع التي دوّن اسمه عليها.

ويجدر بالذكر أن كثيراً من مرضاه ماتوا لأنّه لم يكن طبيباً جيداً، وساءت أموره عندما قرر مقاضاة أحد منتقدي طرق زرع خصيات الماعز. خسر خسارةً فادحة، وخلال عواصف

الدعاوى التي رُفعت عليه (كان سبب العديد منها القتل عن طريق الخطأ) أعلن إفلاسه.

على مر السنوات، حصل العديد من المخادعين على ثروات، ولكن في الواقع حصل واحد منهم على الأقل على اكتشاف طبي شرعي، وأضاف إلى لغتنا اسماً جديداً يصفه. وهذا الشخص هو الطبيب أنتون ميسمير الذي أصبح حديث فيينا ومن ثم باريس في القرن الثامن عشر بسبب نظرياته الطبية المبتكرة وآثارها الرائعة على أفراد المجتمع الراقي.

كان ميسمير يطور نظرية «مغناطيسية الحيوانات»؛ وهي الاعتقاد بوجود دفق غير مرئي يتخلل كل شيء من المفترض أنه يغمر العالم، ويصل كل الكائنات الحية بالأجرام السماوية. باستخدام هذه النظرية ركيزةً لأعماله الطبية عالج المرضى بالمشورات المميزة التي تضمنت عادةً التحديق إليهم، والتربيت على أكتافهم، وجعلهم يمسكون الهراوات الحديدية. أدى هذا إلى تأثير هائل على المريض فتقاطرت نخبة أوروبا لتلقي علاج ميسمير.

تفاقمت هذه الحالة في باريس عام 1778.

كان الملك لويس السادس عشر منزعجاً بسبب إخلاص زوجته لحركة علاج ميسمير، بعد تصرفها كراعية له وترويجها لأعماله تقاطر أفراد طبقة الأغنياء إلى عياداته. ففعل لويس ما كان سيفعله أي ملك متنور، جمع لجنة من أرقى عقول فرنسا للتحقيق في حقيقة نظرية ميسمير. ووصلت اللجنة إلى نتيجة مفادها أن هذه النظريات كانت مجرد كلام فما كان من ميسمير إلا أن أطلق ساقيه للريح هارباً، إلا أن هذا لم يمنع نظرياته من الاستمرار بعد هروبه، وقد شهدت انتعاشاً وازدهاراً بعد عقود عدة في أميركا.

بالطبع، لم يكن ما اكتشفه ميسمير نظرية الجاذبية الحيوية أو أي شيء من هذا القبيل. كان ما تعثر به في الواقع هو التنويم المغناطيسي، كان سبب تمتع علاجاته بتأثير كبير وسبب استمرار قولنا إننا «نتمسمر» حتى هذه الأيام هو التنويم المغناطيسي في الحقيقة.

لقد اكتشف ميسمير أن العقل البشري عضو شديد الغرابة، وأنّه يسهل خداعه، وبالطبع يمكنه أن يخدع نفسه بنفسه لدرجة إنتاج تأثيرات فيزيائية.

وهذا هو موضوع الفصل التالي. إنه شيء مثير للضحك.

الفصل الثامن

أوهام عادية منتشرة

في المملكة المتحدة، وخلال فترة الإسراع للحاق بعطلة الكرسمس، عام 2018، أُغلقت منشأة للمواصلات تُدعى مطار غاتويك لثلاثة أيام لأن بعض الأشخاص رأوا أضواء في السماء. كان ذلك بالطبع مدمراً لسكان غاتويك، إغلاق ثاني أكبر مطارات لندن تماماً خلال أكثر أوقات السنة اكتظاظاً بالمسافرين لأن أحدهم طيّر طائرة من دون طيار بالقرب منه. ألغيت قرابة الألف رحلة، وقُطعت السبل بمئة وأربعين ألف من المسافرين. لم تكن الأمور لتصبح أسوأ من ذلك بالنسبة إلى تلك الأمة المضطربة التي تمزقها المنازعات السياسية الداخلية وتواجه أكثر الثورات العالمية المؤثرة في ذاكرة العديد من الأشخاص.

من المحتمل أن يكون العديد من القراء قد سمعوا بهذا من قبل.

قد تفكر الآن: «يا إلهي، أشكرك على هذا، يا لها من قصة مغمورة مبهرة نبشها الكاتب من حقول التاريخ العتيق غير المكتشف سابقاً».

بالنظر إلى الماضي، تبدو أحداث تلك الأيام الثلاث، وكأنها خارجة من فيلم تشويق يتحدث عن المطارات. كانت قصة طائرة غاتويك مثل قصص الأشباح في عصر الخوف من التقنيات. أياً يكن وراء الطائرة يبدو وكأنه يمتلك معرفة غريبة، وتكاد تكون خارقة للطبيعة لما كان يحدث، وكأنّه شرير خارق من أشرار الأفلام، استطاع دائماً أن يسبقنا بخطوة. في كل مرة لوحظت فيها الطائرة، كانت تختفي مجدداً قبل أن تتمكن السلطات من تتبعها، وفي كل مرة يغلق المطار ويُفتح مجدداً وكأنّ الأمر فيه شيء من السحر، كانت تلك الأضواء المخيفة تختفي في الدقيقة الأخيرة. امتلأت الصحافة بمقالات عن سلوك الطائرة المستفز تقريباً وتنبيهها لبرج التحكم قبل الاختفاء مجدداً، شاهدها المئات من الأشخاص وبالرغم من وجودنا في العصر الذي يحمل فيه الجميع كاميرا عالية الدقة متصلة بالإنترنت في جيوبهم تمكنت تلك الطائرة من تجنب التقاط صورها بأية وسيلة سوى بعض مقاطع الفيديو غير الموثوقة التي أظهرتها كبقعة رمادية غير قابلة للتمييز في السماء الرمادية الواسعة.

السبب الذي جعلني أذكر ذلك هو أنه بعد عدة أشهر من الحادثة، وعدم اقتراب الشرطة من إلقاء القبض على المجرم، أجرى الضابط المسؤول عن العمليات في مطار غاتويك مقابلةً مع قناة

بي بي سي، حرص على أن ينفي بتعجرف ما وصفته بي بي سي بالنظرية المنتشرة على الإنترنت التي تقول إنه لم تكن هناك طائرة في الأصل[102] (يلمّح تقرير البي بي سي بغرابة إلى حقيقة أن مصدر هذه النظرية الأصلي هو تقرير لهذه القناة مأخوذ من تصريح الشرطة الرسمي الذي تحدث عن «احتمالية عدم وجود نشاط لطائرة فعلية أساساً»)[103].

كان الدليل على وجود الطائرة، حسب كلمات البي بي سي تسجيل الشرطة 130 مشاهدة منفصلة وموثوقة من قبل 115 شخصاً، كانوا جميعاً محترفين ماعدا ستة، من بينهم: ضباط شرطة، وشخصيات أمنية، وأعضاء في برج المراقبة، وطيارون. كان هؤلاء محل ثقة، قال السيد وودروف: «لقد علموا أنهم رأوا طائرة، لذلك أنا أعلم أنهم قد رأوا طائرة»[104].

حسناً.

إنني لا أسعى هنا إلى القول: «من المحتّم أنه لم تكن هناك طائرة من دون طيار، يا أصدقاء». فعلى الأرجح كانت هناك طائرة! فهي شائعة جداً، هذا الفعل يبدو كفعل قد يقوم به شخص ما. كان الأمر على الأغلب من فعل دولة معادية تختبر شيئاً سيئاً وغامضاً أو مصنّعاً لمضادات الطائرات يسعى لجذب بعض الأعمال أو مجرد شخص مغفل.

أريد أن أكون شديد الوضوح بشأن هذا، وإلا يمكنني أن أضمن بشكل كامل أنه وفي اليوم التالي لنشر هذا الكتاب ستكتب كل صحف العالم هذا العنوان: «**اعتقال مشتبه به في حادثة طائرة مطار غاتويك، اعترف بكل شيء، وقدّم أيضاً أدلة تفصيلية توضح أنه كانت هناك طائرة حتماً**». بعد كل شيء هذا كتاب، ولا يمكنك العودة وحذف الأجزاء المحرجة لاحقاً كما يحصل على الإنترنت. دعني أخبرك أن هذا مزعج.

بالرغم من ذلك، أشعر بقليل من الارتياب في كل مرة أقرأ فيها تلك التفسيرات التي تؤكد حتمية وجود الطائرة. ويرجع سبب ذلك إلى أن أحد أكثر أخطاء البشر ثباتاً هو مقدار مبالغتنا بالاعتماد على شهود العيان، وأنّ أقل ما يُقال عن مبدئنا «كلما كثر شهود العيان، قل شهود العين الموثوقون» هو إنه ليس بالضرورة الحالة السائدة.

في «حقل الكذب اللامحدود» الذي تحدث عنه موتيغن، نحن نُخدع من قبل كثير من الأشخاص كما رأينا بالفعل في هذا الكتاب. فالإعلام يخدعنا، وكذلك الخرائط، ويستغبينا المحتالون، ويمزقنا رجال الأعمال، ويحيك لنا رجال السياسة المؤامراتِ، ويقتلنا المخادعون. لكن ما هي المغالطة الدفينة التي تحكم كل هذه الأمور؟ إن كل هذا لا يؤثر بنا، بل ما يؤثر بنا هو ما نفعله نحن بأنفسنا، وذلك الشك المزعج الذي أشعر به عظيم الشأن فعلاً لأنّ حادثة الطائرة تبدو مألوفة.

في المملكة المتحدة، في ربيع عام 1913، رأى الناس أضواء في السماء. كانت المملكة المتحدة مضطربة وعلى حافة منازعات عالمية خطيرة وخائفة من التقنيات الجديدة. تُسمى تلك الحادثة حادثة الرعب من الطائرات الشبحية العظيمة لعام 1913.

في ربيع عام 1913، وصلت تقارير من كل أنحاء بريطانيا وإيرلندا تتحدث عن طائرة غامضة تحوم في السماء منذ عدة أشهر. كانت هناك مئات المشاهدات من آلاف الشهود من أقاصي تلك الجزر. تراوحت مواقع تقارير الطائرة من دوفر في كينت إلى بوفيساند باي في ديفون، ومن سانداي في أوركني إلى غالوي سيتي في إيرلندا، وفي كل مكان بين هذه المناطق، من كيركالدي وليدز ولندن وبورتسماوث، ومن هورنسي وكارنارفون وكرومر وشيبتون ماليت وإلفراكمب وتشاثام، والعديد من المناطق الأخرى[105].

بدأ الأمر في الواقع في شتاء 1912 وكانت له سابقة في عام 1909. كانت حالة القلق العامة تسيطر على المملكة المتحدة في ذلك الوقت، وكان الجميع يعرفون أن الحرب قادمة، وكان الأشخاص المقتنعون بأنّ الحرب قادمة ومن بينهم بعض أقسام الصحافة هم أنفسهم من يفعلون ما بوسعهم لدفع البلاد إلى الحرب. كتب فرانسيس هيرست الذي كان في ذلك الوقت محرر الإيكونوميست في كتابه «المخاوف الستة» لاحقاً في عام 1913 ما يلي: «خلال بضعة أيام تمكنت صحيفة الديلي ميل من الإعلان أنه من شبه المؤكد أن طائرات إحدى القوات أجنبية–من المتوقع أن هذه القوة الأجنبية هي ألمانيا–كانت تقوم برحلات متكررة ومنهجية فوق المملكة المتحدة»[106].

لم يكن ذلك في الواقع مؤكداً. في الحقيقة، لقد امتلك الألمان على الأقل طائرة واحدة في ذلك الوقت، ولكن تقول جميع السجلات التاريخية إنها لم تقترب من المملكة المتحدة. ومن المؤكد أنها لم تقم بمئات الرحلات إلى كل زاوية من الجزر البريطانية والأيرلندية خلال عدة أشهر. من المحتمل أن تكون واحدة أو اثنتان من تلك المشاهدات لطائرة فعلية، في تلك الفترة كنا في بداية عصر الطيران، ولم تكن رحلات الطيران غير معروفة لتلك البلدان الحالمة. ولكن النسبة الكبرى من تلك الأضواء التي شوهدت في السماء من قبل مئات الشهود لا يمكن أن تكون سوى هلوسات جماعية ضخمة على مستوى البلاد.

من الأمور المضحكة المتعلقة بظاهرة الرعب من الطائرات الشبحية عام 1913 أنها لم تكون الوحيدة. لقد كانت هناك حالة ذعر مشابهة وسابقة في المملكة المتحدة في عام 1909، وفي تلك السنة أيضاً كانت هناك هلوسة جماعية مشابهة متعلقة بآلات طائرة في الولايات المتحدة.

نشأ كل هذا بسبب شاب يُدعى والاس تيلينغاست أخبر صحيفة بوسطن هيرالد بأنه اخترع «أول طائرة أثقل من الهواء موثوقة في العالم» وبأنّه طار بها مسافة 300 ميل من وورسيستر في ماساتشوستس إلى نيويورك ثم إلى بوسطن وعاد بها. أُرجعت حقيقة عدم رؤية هذه الرحلة المزعومة إضافة إلى مرحلة الدوران حول تمثال الحرية إلى حقيقة أنها حدثت في الليل. (رفض تيلينغاست إظهارها لأي شخص خلال النهار).

لم تمنع استحالة حدوث ذلك سكان نيو انغلند من تسجيل عدد هائل من المشاهدات لآلة تيلينغاست في السماء خلال الأسابيع التالية وقد سجّلت جميعها في الصحافة بكل تعجرف. بدأ الأمر في 20 كانون الأول عندما قال رجل إنه رأى أضواء طائرة تحوم فوق خليج بوسطن، فذكرت بوسطن غلوب الخبر في صفحتها الأولى تحت عنوان «طائرة غير معروفة تُجري رحلة جوية في

الليل». في اليوم التالي، نشرت بوسطن غلوب تصحيحاً أنّ ما شاهده الرجل لم يكن طائرة بل سفينة، وأنّ تلك الأضواء كانت على الماء وليس في السماء ولكن التصحيح ورد في الصفحة 12 التي لا يطلع عليها إلا قلة.

بحلول 22 كانون الأول، سجّل أكثر من ألفي شخص من منطقة وورسيستر رؤية أضواء فوق رؤوسهم. في اليوم التالي، انتشرت تقارير أكثر عن الطائرة عبر الهاتف، مما أدى إلى نزول ما يقارب خمسين ألف شخص من سكان وورسيستر إلى الشوارع. وفي عشية الكرسمس، كانت هناك 33 مشاهدة منفصلة في مناطق متباعدة مثل نيويورك وفيرمونت ورود آيلند. من المؤكد أن طائرة تيلينغاست المميزة كان لها انتشار واسع.

لم تكن تلك المشاهدات تتعلق بالأضواء فحسب، فقد أكد العديد من الشهود أنهم استطاعوا رؤية هيكل الطائرة، حتى إنهم استطاعوا تمييز رجلين يجلسان فيها. أدى تيلينغاست دوراً في هذه المسرحية حتماً بتصرفه بغموض، وباختفائه لفترة طويلة قبل أن يعود بادياً عليه التعب.

لكن بعدها تغير وضع الصحافة بشكل مفاجئ كما حصل مع مرتكب هجمات الغاز في ماتون الذي تحدثنا عنه سابقاً. بحلول يوم الكرسمس، ذكرت إحدى الصحف أن الأمر كله وهم، وكتبت: «ضرب وباء الرؤية المعدي الذي قلب ماساتشوستس رأساً على عقب المدينةَ في وقت متأخر البارحة». بعد عدة أيام، التفت الصحافة بأكملها بدقة، وهتفت ساخرة ببهجة من سذاجة تصديق هذه الخدعة.

ستكون مندهشاً عندما تعلم أنه لم يظهر أي دليل على أن تيلينغاست كانت لديه طائرة بالفعل.

ما يوضّحه كل هذا بسيط جداً، بالرغم من الأهمية التي نوليها لشهود العيان، والتجارب الشخصية، والتقارير المتعددة المتعلقة بالموضوع نفسه إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون أيّ منها موثوقاً. نحن عرضة للخداع من قبل أنفسنا بشكل لا يُصدق، نحن عرضة للخطأ، ونقبل أن يؤثّر علينا، وخائفون من السباحة عكس التيار. إن ما يحصل هو عبارة عن حلقة مفرغة من ردود الأفعال الكاذبة على مستوى المجتمع. يضيف كل تقرير جديد بعض الثقل إلى فكرة وجوب أن يكون الحدث حقيقياً، فيبدأ الناس بالإدلاء بتلك الأكاذيب الرائعة ولا يرغب أحد في الاعتراف أنه من المحتمل ألا يكون للأمر أساس في الأصل.

هذا لا يقلل الاحتمالات إلى الاعتقاد المغلوط القائل إن الهوس الجماعي الغريب هو حدث شائع الحدوث على مرّ التاريخ. فلنأخذ مثالاً عشوائياً: لماذا أصيب عدة مئات من الأشخاص بوباء الرقص غير المتوقف في مدينة ستراسبورغ عام 1518؟ نعلم كيف بدأت القصة: في أحد أيام شهر تموز من تلك السنة، بدأت إحدى النساء بالرقص في الشارع، ربما فعلت ذلك رغماً عنها. لم تتوقف أو لم تستطع التوقف عن الرقص لعدة أيام. وبمرور الأيام، انضم إليها المزيد من الأشخاص، بدأ الأمر بشخص واحد، ثم بشخصين، ثمّ التحق بهم عدد كبير من الناس الذين وجدوا أنفسهم مجبرين من قبل قوة داخلية غامضة على الرقص بلا توقف. بعد شهر، كان أربعمئة شخص يرقصون. ساء وضع وباء الرقص لدرجة أن السلطات أُجبرت على بناء مسرح للراقصين ليرقصوا فوقه لأنهم لم

يجدوا لا الدافع ولا الخطر ليوقفوا هذا الوباء، لذلك فكّروا في أنه إذا كان كل هؤلاء الأشخاص سيرقصون فليرقصوا في مكان ملائم.

خلال ذروة الهوس، كان خمسة عشر شخصاً يرقصون حتى الموت. قد نستهجن في يومنا هذا ونقول: «لربما كان ذلك بسبب إحدى صيحات الموسيقى» ولكنّ الحدث جرى في القرن السادس عشر، وهذا سابق على مولد كارلي راي جيبسون بنحو 467 سنةً. تشير السجلات إلى أن الموسيقا الرائجة وغيرها لم تكن عاملاً في الرقص. بعد شهر، بدأ طاعون الرقص في ستراسبورغ بالاختفاء، ولكنّ المثير في الأمر هو أنه لم يكن حدثاً منعزلاً. فقد سجّل التاريخ أول هوس بالرقص في القرن السابع وحدث مراراً وتكراراً خلال السبعمئة سنة التالية، قبل أن يصبح أكثر شيوعاً منذ القرن الرابع عشر فصاعداً. على امتداد القارة الأوروبية من هولندا إلى إيطاليا وغالباً في ألمانيا أُخذ الناس بلا سبب بالرغبة غير القابلة للمقاومة في الرقص على نمط رقصة الترانس إلى حدّ الأذى أو الموت. ثم توقف الأمر برمته.

البشر غريبون.

لكنّ نزعتنا تجاه اللاعقلانية المعدية تُظهر نفسها بقوة في مجالات الشائعات والوهم الجماعي. لهذا السبب بالضبط الشيء الذي يتخيله الجميع يمكن أن نكون جميعنا خائفين منه. إن فكرة «المخاوف الأخلاقية» هي اختراع حديث بعض الشيء، ولكنّها كانت موجودة منذ عدة قرون، وتبدو طريقة حدوثها في الماضي مشابهة لما نراه اليوم بشكل مرعب.

في الوقت الراهن، هناك مخاوف مبررة تماماً حول دور المنصات التقنية مثل الواتس آب في نشر الشائعات، وتحفيز العنف في عدة بلاد حول العالم. ولكن من السهل الوقوع في فخ تصديق أنها تسببت في الحدث فقط لأنّها استُخدمت فيه.

انتشر الرعب في بلدة بيريجو الواقعة جنوب غرب فرنسا في نيسان عام 1321. وتحدثت الشائعات عن كشف خطة لتسميم بئر البلدة.

في العصور الوسطى كان تسميم إمدادات المياه يعادل أسلحة الدمار الشامل. كان الموت منتشراً في كل مكان، وبعد سنوات دُمرت القارة بسبب مجاعة عظيمة قتلت عدداً لم يسبق له مثيل. كان البشر قلقين بشكل يسهل فهمه.

استقرت طاحونة النميمة على الشخص الذي يقع عليه اللوم في بيريجو. أمر عمدة المدينة باعتقال كل المصابين بالجزام، وبعد عشرة أيام أحرقهم على الأعمدة، واستولى على ممتلكاتهم وباعها للإقطاعيين.

لكنّ الرعب لم يتوقف في بيريجو. ففي الأيام التالية، اتُهم مرضى الجزام بتسميم بئر في مارتيل على بعد عشرين ميلاً إلى الشرق، وفي ليزلي–سور–تارن على بعد سبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي، وفي باميرس على بعد مئتي ميل تقريباً إلى الجنوب.

أفادت النظرية أن المرضى يحاولون نشر مرضهم، هذا هو رهاب المرض، بالطبع هو كذلك، ولكنّه أيضاً يتعلق بالتحويل والاستبدال السكاني. كتب المحقق بيرنارد غوي: «كان مرضى الجزام يحيكون خطة ضد الصحة العامة، ليُصاب الأشخاص الأصحاء عن طريق شرب تلك المياه أو استخدامها ويصبحوا مرضى بالجزام أو يموتوا أو ليُدمروا من الداخل، وبهذا الشكل سيزداد عدد المصابين بداء الجزام، وسينخفض عدد الأشخاص الأصحاء».

خلال الأشهر التالية، انتشر الرعب من منطقة تولوز إلى كامل فرنسا، وانتقل من شخص إلى آخر ومن بلدة إلى بلدة. وامتد خارج الحدود إلى ما نعرفه اليوم بإسبانيا. في بدايات شهر حزيران خاف الملك جيمس الثاني في أراغون من اختراق خطر أجنبي أراضيه، فأمر بمنع شامل وكامل لدخول مرضى داء الجزام إلى مملكته إلى أن يتمكنوا من كشف ما يحصل. وقرر في نهاية حزيران أن ذلك لم يكن كافياً فاعتقل كل الأجانب.

وبحلول شهر تموز أصدر ملك فرنسا أوامره بالقبض على مرضى الجزام وتعذيبهم، قُتل المئات منهم. في تلك السنة، ارتفعت عائدات دائرة الواردات في تولوز بسبب العائدات المتولدة عن مصادرة ممتلكات هؤلاء المرضى الذين أُعدموا.

لكن بعدها، تحوّلت نظرية المؤامرة خلال فصل الصيف من عام 1321. دخلت هذه المؤامرة التي بدأت كرهاب من المرض والتي انتشرت من شخص إلى آخر عن طريق النميمة مملكة السياسة، وحالما تصبح الشائعة سياسية، سيحاول رجال السلطة تشكيلها لتناسب برامجهم. تعلّق أكثر تغيير مميز في ذلك الصيف بالأشخاص الذين يقع اللوم عليهم. فجأة لم يعد مرضى داء الجزام هم الملامون، بل أصبح اليهود أو المسلمون هم الملامون.

لقد قُتل 160 يهودياً في تشينون.

في النهاية، ومع اقتراب نهاية الصيف، بدأ الناس يشكون في صحة أن أحداً ما كان يسمم الآبار بالأساس. فأمر الملك فيليب بأن يُطلق سراح كل مرضى الجزام المسجونين، ولكن ذلك لم يعد بالفائدة على هؤلاء الذين أُعدموا.

لكنّ الشائعة لم تمت هنا. انتهى الرعب الحالي، إلا أنّ فكرة تسميم البشر للآبار استمرت بالانتشار في أوروبا، كانت تخمد في بعض الأحيان لعدة سنوات، قبل أن تعاود الظهور. في عام 1348، عادت لتثأر في أغلبية مناطق أوروبا حيث اجتاح الطاعون الدبلي القارة، وساد رهاب العدوى من جديد. نتيجة لذلك، أُحرق مئات اليهود في الإمبراطورية الألمانية. من المهم أن نتذكر أن هذا لم يحصل قبل وسائل التواصل الاجتماعي فحسب، إنما حصل قبل عصر وسائل الإعلام المكتوبة أيضاً. أي قبل ثلاثمئة سنة من ظهور أول صحيفة. وقتها كانت أسرع معلومة تسافر بسرعة الحصان.

لكن رغم ذلك، تبدو العديد من العناصر مألوفة. فهذه الشائعة جرى تناقلها من دون أن يكون لها أساس، أو استندت إلى أخبار غير صحيحة إن أردت قول ذلك. انتشرت الفكرة كالنار في الهشيم. تستطيع القول إنها انتشرت بشكل مرعب. عبرت الحدود، وتحوّلت مع الوقت، ونهضت

مراراً وتكراراً، وكانت لها تبعات مرعبة. ظهر الرعب من وجود قوة خارجية شريرة تعبث بالطعام والشراب بشكل متكرر خلال التاريخ ولا تزال واحدة من أكبر أنواع الشائعات التي تنتشر على الفيسبوك حالياً.

بالطبع، إذا كنت ترغب في التحدث عن حملات التشهير عليك أن تناقش أبرز حملات التشهير في التاريخ، ما أقصده هنا هو مطاردات الساحرات. كثيرة هي الأمثلة التي تستطيع الاختيار منها لتوضيح الارتياب من الساحرات الذي استحوذ على أوروبا طيلة قرون، ولكن دعنا نركّز على ملك مطاردة الساحرات.

لم يكن ملك اسكتلندا جيمس السادس، المعروف أيضاً باسم جيمس الأول في إنكلترا وإيرلندا، رجلاً سيئاً تبعاً لمعايير أغلب القادة التاريخيين. كان عاقلاً ومعتدلاً، تمكّن من توحيد مجموعة من البلدان التي تمزقها النزاعات الدينية، لم يبدُ أبداً مقتنعاً بكامل اضطهادات الكاثوليكية التي رافقت مكانة عمله. علاوة على ذلك، كان هناك إنجيل الملك جيمس الذي كُتب بطريقة جيدة.

ولكن كان هناك أمر غريب بشأنه، وهو أنه كان مهووساً تماماً بالساحرات.

لم يكن مهووساً بالساحرات بشكل يجعله يمتلك برنامج «ذا كرافت» بدقة عالية، ويصبغ شعره بالأسود، ويهتم بشدة بنيل غايمان، بل بشكل يجعله «يشرف بشكل شخصي على تعذيبهن».

قدم جيمس مفهوم مطاردات الساحرات في اسكتلندا فأطلق عقوداً من الاضطهاد في الأرض. لم يأمر بأول محاكمة كبيرة فحسب بل كتَب حرفياً كتاباً عن ذلك. بيع الكتاب بأعداد جيدة نظراً لأنّ كاتبه هو الملك اللعين، وساعد بتأجيج الهوس الوطني بالساحرات الذي قاد إلى إعدام كثير من النساء وبعض الرجال لمجرد الاشتباه.

التقط جيمس هوايته المميتة من بلد مجنون بالساحرات بالفعل ألا وهو الدانمارك حيث ذهب ليجلب عروسه الجديدة المراهقة؛ أخت الملك الدانماركي التي تُدعى آني. فشلت جميع محاولات آني بالذهاب إلى اسكتلندا بعد تدبير زواجهما بسبب الطقس السيئ، لذلك ذهب جيمس ليأتي بها، ولكنّه واجه ظروفاً عاصفةً وخطيرة حاصرته هناك. ذهب جيمس إلى الدانمارك في تشرين الأول عام 1589، ولم يعد قبل أيار من العام التالي، تزوجا خلال هذا الوقت، وحظيا بشهر عسل طويل، وزارا المواقع السياحية، وأمضيا وقتهما مع الفلكي العبقري الذي يفرط في معاقرة الخمر تايكو براهي، وبدا أنهما أمضيا وقتاً جيداً عموماً.

ولكن جيمس غالباً ما عانى من بعض الهوس (الهوس المبرَّر بما أن كثيراً من الأشخاص أرادوا اغتياله بالفعل) وعاد إلى اسكتلندا مكتئباً بشدة بعد رحلته المرهِقة. يفكر في سؤال واحد: «لماذا كان الطقس سيئاً طوال الشتاء؟». توصل جيمس إلى الإجابة بطريقة طبيعية: «بسبب الساحرات» بدلاً من أن يتوصل إلى الجواب الأكثر وضوحاً: «لأنّك تعيش في اسكتلندا اللعينة». قال أصدقاؤه الدانماركيون الجدد: «أجل بالطبع، هذا بسبب الساحرات حتماً، إنها أفعالهن التقليدية».

وهكذا بدأت محاكمات نورث بيرويك التي حوكم فيها ما لا يقل عن سبعين شخصاً بسبب النشاطات المتنوعة المتعلقة بالسحر. عُذب المجرمون الرئيسيون بوحشية حتى الاعتراف، وشارك جيمس نفسه بالعديد من جلسات التعذيب. من بين النشاطات المعترف بها والمسجلة في الكتيبات التي نشر فيها جيمس انتصارات مطاردات السحرة (أخبار اسكتلندا): تقبيل الساحر مؤخرة الشيطان، ولعق أعضاء الساحر الحساسة من قبل الشيطان، واستغلال الساحر جنسياً من قبل الشيطان، وإثارة العواصف عن طريق رمي قطة في البحر.

خلال الشهور الستة أو الخمسة التالية، أُعدم نحو 1500 شخص في اسكتلندا لاتهامهم بالسحر. وهذا عدد كبير جداً، ولكنّه يصبح عديم الأهمية عند مقارنته بعدد القتلى في مناطق الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تتحدث الألمانية، حيث قُتل خمسة وعشرون ألف شخص أغلبهم من النساء. بشكل عام يُرجح مقتل خمسين ألف شخص في أوروبا خلال فترة الهوس بالساحرات.

لماذا؟ ما الذي فكّر فيه الجميع بحق الجحيم؟ ظهرت العديد من التفسيرات، تتعلق العديد منها بحقيقة أن القرن السابع عشر كان قرن الفوضى المجنونة بالكامل من النواحي الدينية، والاجتماعية، والسياسية. (يُشار إلى هذه الحالة بـ «الأزمة العامة» بسبب الكمية الهائلة من الهراء التي حدثت في كل مكان)، هل كان الهوس بالساحرات بسبب أزمة اقتصادية؟ أم العصر الجليدي الصغير؟ أم محاولة للإبادة بحسب الجنس؟ أم أنه طريقة ماكرة للتخلص من الأشخاص الذين لا تحبهم؟

(هذه ليست مزحة، إنها نظرية حقيقية أطلقها عالم إنسانيات محترم جداً. مختصرها: يظهر من خلال دراسة المحاكمات الإنجليزية للسحرة أن معظم المتهمين كانوا جيراناً سيئين، وكان الجميع سعداء بصدق برؤيتهم يرحلون).

تفيد إحدى الدراسات الجديدة أن الهوس بالسحرة قد اعتُمد وعُزز من قبل الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية المتنازعة بوصفه تقنية فعالة للترويج. (وهذا اقتباس من إحدى الصحف: «تجلت محاكمات السحرة في أوروبا في تزاحم الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية على حصة من جموع المتدينين في الأجزاء المتنازع عليها طائفياً»). شهدت المناطق التي تتنافس فيها الكاثوليكية والبروتستانتية بطريقة مباشرة كثيراً من محاكمات السحرة، في حين شهدت المناطق التي بقيت الكنيسة الكاثوليكية مسيطرة فيها عدداً أقل.

لكن إن اخترت تفسيراً واحداً فقط للهوس بالسحرة في أوروبا أو قررت أنه في الغالب بسبب كل تلك الأمور، فلن تكون هناك نظرية موحدة لمطاردة السحرة. لأنّ مطاردة السحرة ليست هواية أوروبية فقط. فحسب تعريفك لكلمة «مطاردة» و«سحرة» تستطيع أن تستنتج أن هذا الأمر حدث عملياً خلال التاريخ في كل حضارات العالم.

في النهاية، يعود السبب إلى مشكلة جوهرية يعاني منها البشر، وهي أننا عندما نطّلع على تعقيدات العالم وعلى الإحباط الذي يصيبنا بسبب العيش فيه فإننا نرغب في توجيه أصابع الاتهام إلى مجموعة من الناس المختلفين عنا والقول: «هذا خطؤهم». وإن لم نفعل ذلك بأنفسنا فسيكون

هناك شخص آخر عادةً يقف ليخبرنا باسم الشخص الذي يجب إلقاء اللوم عليه. السحرة هم الاختيار التاريخي الشائع هنا، ولكن يُحتمل أنك تستطيع التفكير في خيارات أخرى شائعة أيضاً مثل: المهاجرين الجدد، واليهود، والشيوعيين، والمتنورين وفي بعض الأحيان هؤلاء الأربعة مجتمعين دفعة واحدة إن كنت محظوظاً.

من الواضح أن هذا يمس المعتقد في جوهره، وليس من المفاجئ أن الدين يمكن أن يشكّل ركيزةً لبعض أشرس أوهامنا. سنختار مثالاً واحداً فقط، في عام 1962، أراد أخوان محتالان أن يجريا خدعة في بوينا في المكسيك. قرّرا أن السكان ساذجون وأنّه يمكن خداعهم عن طريق خدعة تتضمن كنزاً قديماً من حضارة الإنكا وإلهة عائدة. لذلك استخدما امرأة سيئة فقيرة تدعى مجداليا سوليس من بلدة قريبة، أقنعاها بتأدية دور إلهة إنكية متجسدة ستقود طائفة ما. لسوء الحظ، انخرطت سوليس بدورها لدرجة أنها صدقت أنه حقيقي، وكما تفعل الإلهة عادةً، بدأت بطلب تضحيات الدم. قُتل على الأقل أربعة أشخاص لتتمكن سوليس وأتباعها من شرب دمائهم.

نحب أن نعتقد بأنّنا تركنا وحوش مخيلتنا في الماضي، في الأيام الغابرة، عندما كان كل شيء مظلماً قبل أن نصبح عصريين ومنمقين. لكنّ الوحوش شاركتنا الرحلة، لطالما كانت هنا، كل ما في الأمر هو أننا في بعض الأحيان نعطيها وجوهاً جديدةً أو أسماءً جديدةً.

لهذا السبب، على سبيل المثال، انطلقت حملة مطاردة مؤلفة من عشرين رجلاً مسلحاً إلى غابات الصنوبر في نيوجيرسي باحثةً عن وحش حقيقي. كان الوحش في هذه الحالة كما تستطيعون التكهن هو شيطان جيرسي، وهو شخصية شهيرة من قصة شعبية شائعة في المنطقة. يصفه تقرير النيويورك تايمز الذي تناول هذه المطاردة بالتحديد على الشكل التالي: «شبح غامض يوصف بأشكال شتى منها أنه ينفث النار، وأنّ له أجنحة وأنياباً، وأنّه مُشعر ومرعب».

أُبقي الاهتمام بشيطان جيرسي حياً بفعل مجموع النميمة والشائعات، وحفّزه اهتمام الصحافة المستمر. بدأت مطاردة الوحش عام 1929 بسبب مشاهدتين مسجلتين، الأولى: من قبل مزارع وجد خنزيره مقتولاً، وتتبع آثار أقدام لها أربعة أصابع إلى الغابة، والثانية: من قبل طالبَي مدرسة قابلا في الغابة ظهيرة أحد الأيام «وحشاً أشعث وأسود وله وجه يشبه وجه الخنزير ويطلق صرخات مرعبة».

استُدعيت الشرطة، وأُرسلت الكلاب إلى الغابة، لتحاول التقاط رائحة هذا الوحش، وشُكلت الحملة، ودخلت الغابة، ولكنّها لم تعثر على شيء.

لم يعثروا على شيء، لأنه ما من شيء اسمه شيطان جيرسي، ولكن الاعتقاد بوجوده وتدفقِ القصص المستمر ساعدا بإبقائه حياً من خلال حدوث المشاهدات بانتظام خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولا شكّ أنها ستستمر في هذا القرن أيضاً. في الحقيقة، تمتد أسطورة شيطان جيرسي أبعد من هذا، فتبعاً للأسطورة المحلية، بدأ الشيطان بترويع المنطقة في عام 1735 عندما أنجبت امرأة محلية من بورلينغتون في نيوجيرسي تدعى ما ليدز مسخاً بشعاً. لم يكن معروفاً باسم شيطان جيرسي، بل كان معروفاً باسم «شيطان ليدز».

قد يلاحظ من قرأ الكتاب منكم بالترتيب الصحيح من المقدمة حتى الخاتمة شيئاً مألوفاً في بعض جوانب المقطع السابق.

1735، بيرلينغتون، نيوجيرسي، ليدز

هذا صحيح! شيطان جيرسي هو في الأصل خرافة متعلقة بعائلة تيتان ليدز وقد وُلدت في السنة نفسها التي أعلن فيها بينجامين فرانكلن موت تيتان المفاجئ.

أود أن أخبركم هنا أن فرانكلين نفسه هو من بدأ هذه الأسطورة. لكانت تلك نهاية رائعة وواقعية ومبهرة لهذا الكتاب. لسوء الحظ، لا أستطيع ذلك. أعتقد أنه من الممكن أن يكون قد فعل ذلك، ولكنّه على الأرجح لم يفعل ولا يوجد أي دليل على أي من الأمرين. التاريخ ليس نظيفاً إلى هذه الدرجة، لذلك ستدخلون الفصل الأخير محرومين تماماً من استعادة مُرضية لقصة بينجامين فرانكلين. بدلاً من ذلك يرجح أكثر أن فرانكلين ومؤلِّفي تلك الأسطورة كانوا ببساطة يستجيبون للشيء نفسه؛ تلك الافتراءات التي تقول إن دانيال ليدز هو «نذير الشيطان»، التناحر والسياسة المحليين الدينيين اللذين سيصبحان بعد قرنين على هيئة رجال يحملون الأسلحة ويجولون الغابات باحثين عن شيطان لا يوجد إلا في مخيلاتهم.

نظن أننا تركنا وحوشنا في الماضي ولكنّهم يسيرون معنا كل خطوة من الطريق.

الفصل التاسع

نحو مستقبل أكثر صدقاً

في مطلع عام 2018، وقفت بين آثار مدينة مايان في تولوم، ورأيت حيواناً صغيراً ولطيفاً يأكل ببهجة قطعةً من جوز الهند. كان ذلك الحيوان راكون القوطي المعروف أيضاً باسم خنزير الأرض البرازيلي، وهو حيوان من فصيلة الراكون، ولكنه ألطف وأقل شهرة. كنت سعيداً لرؤيتي واحداً من هذه الحيوانات لأنها تخبرنا الكثير عن الحقيقة ومقدار فشلنا في هذا المجال.

هناك شيء مثير للاهتمام حول حيوانات الراكون القوطي (المعروفة باسم خنزير الأرض البرازيلي). الشيء المثير للاهتمام هو أن الراكون القوطي لم يكن معروفاً في الحقيقة باسم خنزير الأرض البرازيلي. أو على الأقل لم يكن كذلك حتى عام 2008 عندما حدث شيء غريب.

في ذلك الوقت، عندما كان طالب من نيويورك يُدعى ديلان بريفيس في عطلة في البرازيل، رأى أحدها، واعتقد أن ما رآه هو خنزير الأرض. وبسبب عدم رغبته في إحراج نفسه بسبب قلة معرفته بالثدييات أجرى من باب المزاح تعديلاً صغيراً على صفحة الويكيبيديا الخاصة بهذه الحيوانات، فأدخل الادعاء القائل بأنها معروفة أيضاً باسم خنازير الأرض البرازيلية كما خمنتم.

على حدّ علمنا، لم يستخدم أي شخص عبارة «خنزير الأرض البرازيلي» قبل تلك اللحظة 11:36 مساءً حسب توقيت البرازيل من يوم 11 تموز عام 2008. لم تكن قد كُتبت على الإنترنت، ولم تكن قد ظهرت في مقال علمي، ولم تكن قد طُبعت في أي كتاب[107].

عادةً، تُكتشف هذه الأعمال التخريبية الصغيرة للويكيبيديا بسرعة، وتُحذف من قبل جيش المحررين المتطوعين اليقظ. لكن بالرغم من حقيقة أن خنازير الأرض لا تعيش في أميركا الجنوبية وأنّ أحداً لم يكتب عبارة «خنازير الأرض البرازيلية» قبل ديلان انسلت هذه المعلومة إلى الإنترنت لسبب ما.

بعدها، لم يمضِ وقت طويل قبل أن يبدأ الناس بتسمية الراكون القوطي «خنزير الأرض البرازيلي» لأنّ ذلك كان موجوداً على الإنترنت ولأن الناس يثقون بالويكيبيديا.

وقد سجّل إيريك راندال في عام 2014 ذلك، بحلول ذلك الوقت عرفت بعض الصحف مثل صحيفة الدايلي ميل وصحيفة تيليغراف وصحيفة الأنديبندنت تلك التسمية وبدأت تستخدمها دون أن تنتقدها[108]. واستخدمتها البي بي سي أيضاً. فقد عنونت إحدى الصحف المحلية في باكينغامشير عندما هرب أحد هذه الحيوانات من مجموعة خاصة[109] «حيوان خنزير الأرض البرازيلي الهارب في مارلو»، وعنونت صحيفة أخرى محلية في وورسيستر ما يلي: «هذا ما يبدو عليه خنزير الأرض» وكان العنوان مكتوباً فوق صورة لحيوان الراكون القوطي الذي لا يبدو شبيهاً بخنزير الأرض[110]. يمكنك أن تجد صوراً لهذه الحيوانات موصوفة على أنها صور لخنزير الأرض البرازيلي في مواقع مثل تايم، وناشونال جيوغرافيك، ووايت سينتيفيك أميركان، حتى إنها تمادت في ذلك لدرجة قلب ترتيب الاسم التقليدي قائلين: «خنزير الأرض البرازيلي المعروف محلياً بالراكون القوطي»[111]. يبدو أنه هناك على الأقل بحث علمي واحد الآن أجرته مجموعة من علماء الحيوانات تستخدم الاسم،[112] ووصلت هذه العبارة المختلَقة بالكاملة إلى كتب صادرة من ناشرَين أكاديميين عالميين على الأقل. الناشر الأول هو منشورات جامعة شيكاغو (القوطي المعروف أيضاً باسم الراكون ذي أنف الخنزير أو الدب اللطيف أو خنزير الأرض البرازيلي)[113] ، والناشر الثاني منشورات كلية كامبريدج مكررة بشكل رائع إلى حد ما خطأ عالم الطبيعة بوفون من القرن الثامن عشر عندما نقد عالم طبيعة آخر لتكراره أخطاء عالم آخر قد نسخ عنه. «كان تكرار الأخطاء إحدى أشهر خصائص التاريخ الطبيعي للقرن الثامن عشر»[114].

طرح كل هذا سؤالاً مهماً: أما يزال هذا الاسم غير صحيح في وقتنا الحالي وهل سيبقى كذلك لاحقاً؟ هل الراكون القوطي معروف باسم خنزير الأرض البرازيلي فعلاً الآن؟ هل تمكنت الكذبة الغبية من تغيير اسم الحيوان لأن المعلومة التي ستكتب على الويكيبيديا ستنتشر في العالم حتى تصبح حقيقية نوعاً ما؟

الإجابة في أغلب الحالات هي: «ربما، لا». لم تعد صفحة القوطي على ويكيبيديا تحتوي على الادعاء القائل إن هذا الحيوان يُعرف أيضاً باسم خنزير الأرض البرازيلي بالاعتماد على عدم وجود دليل كافٍ على كونه منتشر الاستخدام. وعندما أُطلق مقال النيويوركر وحُذف الادعاء عام 2014 بدا أن ذكره تباطأ إلى حد ما (كان هناك ذكر له في مجلة الغارديان عام 2017 ولكنّ ذلك قد يكون مجرد مزحة خاصة[115]). ولكن ليس هناك شك في أن اسم خنزير الأرض البرازيلي موجود الآن، وإذا وافقنا جميعاً على البدء بتسمية القوطي بالاسم الخاطئ كلياً، حينها سيصبح هذا الاسم الخاطئ اسم هذا الحيوان بالفعل.

قد يبدو هذا بمثابة مزحة رخيصة تستهدف الويكيبيديا، ولكنّه ليس كذلك، بالرغم من أنه ليس حادثةً فريدة من نوعها بشأن الموقع. فهناك تلك القضية المؤسفة لجهاز تمليس الشعر الذي يعود الفضل فيه إلى السيدة سي جي واكر؛ رائدة الأعمال الأميركية من أصل أفريقي التي استُبدل اسمها باسم «ايريكا فيلدمان (بوب فيس)». لاحظ مسؤولو الويكيبيديا الحركة التخريبية بسرعة وحذفوا كلمتي «بوب فيس» وتركوا الفضل يُنسب إلى «ايريكا فيلدمان» أيّاً من كانت هذه المرأة.

حُلّت المشكلة منذ زمن طويل في الموقع، ولكن إذا بحثت عن «جهاز تمليس الشعر من ايريكا فيلدمان» اليوم فستجد عدداً كبيراً من المواقع التي ستخبرك بسرور عن مساهمة ايريكا فيلدمان في مجال تصفيف الشعر الأميركي الإفريقي.

هناك أيضاً تلك المرة التي عيّن تقرير تحقيق ليفيسون طالباً من كاليفورنيا يُدعى بيرت ستروب بوصفه واحداً من مؤسسي صحيفة الأنديبندنت لأنّ واحداً من أصدقائه أضاف اسمه إلى الويكيبيديا كنوع من المزاح. سنقلل من أهمية الأمر بعض الشيء[116] إذا قلنا إن الصحافة البريطانية قد تقبلت المزحة بصدر رحب.

خنزير الأرض البرازيلي، يستمتع بتناول وجبة خفيفة في مولام، المكسيك (تصوير توم فيليبس).

في الواقع، تملك الويكيبيديا قائمةً بالمرات التي حصل فيها هذا تحميل اسم «سيتوجينيساس» وهو مصطلح أطلقه راسم الكاريكاتير راندال مونرو، تتضمن هذه القائمة قصصاً ثمينة مثل «أُنتج أول صندوق كرتوني تجاري في إنكلترا عام 1817 من قبل السيد مالكولم ثورنهيل»، (تُنقل هذه المعلومة الآن عبر الإنترنت)، إضافة إلى مرض مختلَق بالكامل يدعى «غلوسوجازنوجي» ظهر بشكل متكرر في العديد من الأبحاث العلمية[117].

قد يتذكر القراء ذوو الذاكرة الطويلة أنّني في مطلع هذا الكتاب كتبت: «أعدكم أنني لن أتبع عادة النسخ من الويكيبيديا واللصق في هذا الكتاب»[118]. أعتذر منكم لأنني كذبت، عليكم تقبل ذلك.

لكن كل ما في الأمر في هذه القضايا كلها هو أن المشكلة هنا ليست في الويكيبيديا وإنما في الناس الذين ينسخون من مصدر واحد مفترضين صحته (وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك بتكرارهم ذلك المصدر على أنه دليل على صحة المصدر الأول وهكذا). ووجدنا أيضاً أكثر من مرة في هذا الكتاب، هذا النوع من النقل الدائري وهو ليس شيئاً محصوراً بعصر الإنترنت، وُجدت التعليقات السيئة معنا منذ اختراع الطباعة وعلى الأغلب قبل ذلك بكثير. يجب أن تنبهنا حقيقة تذمر عالم الطبيعة بوفون حول الموضوع نفسه في أواخر عام 1700 على أن القضية هنا ليست من اختراع جيمي واليس الرائع.

من السهل بالنسبة إلينا إلقاء اللوم على الويكيبيديا (أو التويتر أو الهاتف أو الصحافة المطبوعة) وجعلها سبب المشكلة المنهجية طويلة الأمد في طرق جمعنا وتوزيعنا للمعرفة لأنّ إلقاء اللوم على الأشياء الجديدة أمر سهل وممتع. لكنّ هذا لا يقودنا إلى أي مكان. هذا ما أظهرته التجربة التي أجراها طالب إيرلندي يُدعى شون فيتزجيرالد عام 2009، عندما انتشرت أخبار مفادها أن المؤلف الموسيقي الفرنسي ماوريس جاري قد مات. وبسبب إدراكه أن كل صحفيي العالم سيتجهون إلى صفحة جاري على الويكيبيديا، فبرك فيتزجيرالد اقتباساً رائعاً للموسيقار تستوجب روعته استخدامه: «عندما أموت سيكون هناك لحن أخير من الفالس يُعزف في رأسي وسأكون الوحيد الذي يمكنني سماعه». وأضافه بسرعة إلى صفحته. كُشف هذا الاعتداء الصغير وحُذف بسرعة، ولكن في تلك الفترة الصغيرة التي وُجد فيها استطاع الاقتباس الانتشار في العديد من صحف العالم الرائدة. وعلى العكس من الويكيبيديا، لم تكتشف أيٌّ منها الأمر ولم تحذف الاقتباس، ولكنها اكتشفته بعد ذلك بشهر عندما كتب لها فيتزجيرالد ليخبرها بما فعله. نستنتج من هذا الاختبار أن الويكيبيديا أكثر موثوقية من الصحافة العالمية.

كل ما تفعله الويكيبيديا والإنترنت عموماً هو السماح لنا بإماطة اللثام عن أنواع الأخطاء التي كنا نرتكبها لفترة طويلة من الزمن. يستطيع أي شخص متصل بالإنترنت تجربة ذلك بنفسه، والوصول إلى اللحظة التي دخلت فيها المغالطة القائلة «إن راكون القوطي يُسمى أيضاً خنزير الأرض البرازيلي» العالم. فبالنسبة إلى عصر ما قبل الإنترنت، كان تتبع شيء كهذا يتطلب رسالة دكتوراه كاملة.

هذه مشكلة حقيقة في تاريخنا، فكثيرة هي الأمور التي لا نعرفها، وكثيرة هي الأمور التي نظن أننا نعرفها، ولكننا في الحقيقة لا نعرفها، ونحن أيضاً ولسوء الحظ، لا نعرف ما هي الأمور التي لا نعرفها. خذ على سبيل المثال المصادفة الهائلة التي قادت إلى بدء الحرب العالمية الأولى، حدث اغتيال الدوق فرانز فرديناند من قبل غافريلو برينسيب في سارايفو في 28 حزيران عام 1914 بسبب حقيقة أن برينسيب توقف مصادفة واشترى شطيرة من محل موريتز سكيلير للأطعمة الجاهزة، كان يأكل الشطيرة عندما رأى سيارة الدوق تمر بالقرب منه بعد أن غيرت مسارها المحدد لها سلفاً. اغتنم غافريلو برينسيب الفرصة وكل ما حدث بعد ذلك هو من التاريخ. لو لم يكن برينسيب جائعاً في تلك اللحظة، أو لم يقرر أنه يريد أكل شيء مختلف على الغداء، لما كان في الموقع المناسب لإطلاق تلك الرصاصة القاتلة، وربما ما كانت الحرب لتندلع.

إنّها قصة رائعة عن كيفية تسببِ تفاصيل صغيرة لنتائج كبيرة. إضافة إلى أنها ليست حقيقية بالكامل.

يعود مصدر القصة إلى وثائقي لقناة البي بي سي عام 2003، ذكر قصة الشطيرة التي انتشرت من خلاله كالنار في الهشيم، بالرغم من أن مخرج الوثائقي لا يستطيع تذكر المكان الذي جاؤوا بتفاصيل القصة منه تبعاً للصحافي مايك داش الذي تتبع أصل القصة. الآن تظهر هذه القصة في كل مكان على الإنترنت، وأوردها كتاب للصحفي المحترم في البي بي سي جون سيمبسون، اسم هذا الكتاب (المصادر غير الموثوقة).

هذه ليست بالظاهرة الجديدة. إذا كنت معجباً بالفقاعات المالية، فلربما استغربت عدم ذكري لهوس التوليب الذي حصل عام 1637 عندما عددتُ الفقاعات المالية الأخرى قبل عدة فصول، إنها أشهر الفقاعات المالية في التاريخ، إذ ارتفع سعر التوليب في هولندا كثيراً قبل أن يتدهور تاركاً العديد من مضاربي التوليب مفلسين. أصبح أساس المناقشات المتعلقة بميل البشر إلى الغباء منذ أن ظهرت في كتاب تشارلز ماكاي عام 1841 المسمى «الأوهام الشائعة الخارقة للعادة وجنون الجماهير» (وهو الكتاب الذي أخذت منه عنوان هذا الفصل دون أن أشعر بالعار وأيضاً أخذت منه فكرة هذا الكتاب).

لسوء الحظ، تبين أيضاً أنه مبالغ فيها بشكل كبير، هذا إن لم تكن خاطئة بالكامل، حصل ماكاي على معلوماته من كتيب كتبه معارضو مضاربات التوليب، وفي الحقيقة لم يُدمر أحد من ارتفاع سعر التوليب وانخفاضه.

المشكلة هي أن كثيراً من الأشياء التي نظن أننا نعرفها، يتبين أنها تستند إلى أسس ضعيفة، في الوقت الراهن يخوض العلم «أزمات إعادة التكرار»، إذ إننا نكتشف أن كثيراً من المعلومات التي ظننا أننا وجدناها من المحتمل ألا تكون لها أسس بالمطلق. هذا يقودنا إلى أهم طريقة علمية (ملاحظة لعلماء الاجتماع: أجل، أعلم أنه ليست هناك طريقة علمية واحدة فقط، اسمحوا لي بهذا). لهذا السبب تُعد التجارب العلمية لتسمحَ لأي شخص آخر بتكرارها. لهذا السبب يُدرّب تلامذة المدارس على كتابة محاولاتهم لإثبات صحة نيوتن مع الصيغة التقليدية للأهداف والطرق والنتائج والاستنتاجات.

لكن في أحيان كثيرة تكمن المشكلة، بأن أحداً لا يتعب نفسه فعلياً في إعادة تكرار العديد من التجارب الرئيسة، ويرجع سبب هذا بجزء منه إلى هيكلية العلم التحفيزية، فلا يجب أن يمنح شخص ما الفضل أو المكانة المرموقة اعتماداً على نسخه ما فعله شخص آخر من قبل. إذا أردت أن تتقدم أكاديمياً يجب أن تنتج عملاً جديداً فريداً يوسع معرفتنا.

هذه المشكلة العويصة تواجه علم النفس فقد استنتجت مؤخراً بعض الجهود الحثيثة المبذولة في إعادة تكرار عدة دراسات مرموقة ومستخدمة بشدة نتيجةً مربكة جداً، إذ قيل إن نحو خمسين بالمئة منها لا يمكن إعادتها، ربما حدثت تلك الاكتشافات بمحض المصادفة. الشيء الأكثر إثارةً للاهتمام هو أن الخبراء في هذا المجال يعلمون أي النتائج هي المخادعة، طرح المجربون سوقاً للمراهنات أمام الخبراء غير المرتبطين بالتجربة فقد تمكنوا من وضع رهاناتهم على التجارب التي

يعتقدون أنه يمكن تكرارها وعلى التجارب التي يعتقدون أنه لا يمكن تكرارها. أثبت سوق المراهنات دقته العجيبة وهذه أخبار طيبة لمعجبي الرغبة البشرية في تحصيل الربح السريع، ولكنها ليست كذلك بالنسبة إلى نظام إعادة النظر.

إذا قال أحدكم الآن: «ولكن هذا علم النفس فحسب، إنه ليس علماً حقيقياً حتّى» فسأخبره خبراً ممتعاً: إن تكرار التجارب يحصل في الفيزياء أيضاً، فلتفكر في ذلك بشكل أعمق يا أينشتاين. (من الجدير بالذكر هنا أنه يُعتقد الآن أن نحو عشرين بالمئة من الأبحاث التي نشرها أينشتاين تتضمن أخطاء من نوع ما. في كثير من الأحيان يبدو أنه توصل إلى النتيجة الصحيحة بالرغم من حقيقة أنه استخدم افتراضات خاطئة. أعتقد أن هذا عبقري بالنسبة إليك).

أين يتركنا كل هذا؟ هل تعاني الحقيقة من أزمة؟ هل سنُدمّر بسبب عيشنا في هذه الحياة التي يغمرها ضباب المعلومات غير الصحيحة؟ ألا نشبه ذلك الراكون الذي يقفز بين أطلال حضارة قديمة والذي تشير إليه أصابع السياح قائلةً: «انظري يا دوريس، إنه خنزير الأرض البرازيلي؟».

لا أعتقد ذلك. بالطبع، إننا نسبح في بحر من أنصاف الحقائق وأشباه الأكاذيب لأنّ العالم غبي ومعقد، ما من أحد يعلم بالضبط ما الذي يحدث، وهذه هي تركيبة أدمغتنا. ولكن هذه ليست أزمة، فلطالما كانت الأمور على هذا النحو.

«إن أكثر تجليّات التناقض في حضارتنا تتمثّل بالإجلال الذي نكنّه للحقيقة، والإهمال الذي نمارسه في كلّ ما يتعلّق بها». قد يبدو هذا الاقتباس الذي وضعته في مستهل هذا الكتب لمستكشف القطب الشمالي فيلهلمور ستيفانسون كأنّه ينعي فشلنا ويرتقي بنا نحو الحقيقة. لكنه في الواقع، يسلك الطريق الآخر، قائلاً إنه ربما يجب علينا ألا نكون متفاجئين بفكرة أن الحقيقة نادرة جداً. وهو الذي كتب: «إنه لمن الغباء أن يشخّص الفلاسفة أن العالم مريض بمرض غير قابل للعلاج بسبب انعدام الحقيقة، أليس من المحتمل أنهم لا يستطيعون علاجنا لسبب بسيط وهو أننا لسنا مرضى بالأصل؟».

أعتقد أن هذا أول ما علينا فعله إذا أردنا نقل حياتنا من عالم الكذب إلى عالم الحقيقة، يجب أن نفقد عقولنا. يجب أن نُقدّر أن الكذب سيبقى دائماً معنا، أفضل ما يمكننا عمله هو أن نبقيه قيد الاختبار.

ولكن هناك شيء عملي آخر يمكننا القيام به بصفتنا أفراداً أو مجتمعاً. يجب أن نكافح عوائق العمل، والطريقة المثلى لفعل ذلك هي بذل بعض الجهد في هذا المجال. هذا يعني أن نرغب في مكافأة الأشخاص الذين يتحققون من الأمور (بالطبع سأقول ذلك فأنا أعمل في هذا المجال) ويعني أيضاً أنه على جميع المجموعات المختلفة في مجتمعنا التي تعمل في مجال الحقيقة أن تُحسّن من تعاونها مع بعضها.

يجب أن يتعلم الأكاديميون التحدث إلى الصحافيين، ويجب أن يتعلم الصحافيون التحدث إلى الأكاديميين، وسيكون من المثالي إن لم يتحدثوا إلى بعضهم عن طريق الصحافة.

ويمكننا أيضاً أن نساعد في مكافحة عوائق العمل بأنفسنا، ببساطة، عن طريق بذل جهد صغير في المرة القادمة التي يغرينا فيها نشر شيء رائع على الإنترنت، فالأمر لن يستغرق أكثر من ثوانٍ، تحقق من المصدر، ابحث عنه، وفكّر إن كان يبدو جيداً أكثر من اللازم أو صحيحاً أكثر من اللازم.

بما أننا نتحدث عن الأمر، علينا أيضاً أن نتحقق من أنفسنا، فيمكن لأي واحد منا مهما ظن نفسه ملتزماً بالحقيقة السقوط بسهولة في فخ الغرور وحب الكذب. في الواقع، كلما ازداد إيماننا بأننا صادقون قلّ احتمال أن نكون حذرين من هذه الأنواع من التحيزات. لذلك عندما تتوقف للتحقق من مصدر سيئ ما، اسأل نفسك أيضاً إذا ما كان يثير انحيازك الشخصي، وإذا ما وصلت إليه وأنت في حالة من التشكيك. يمكننا أن نعكس هذا على مستوى المجتمع الأوسع، البشر خطاؤون، ويجب أن نتحسن في الاحتفاء بأولئك المنفتحين على الاعتراف بأخطائهم. أجل، غالباً ما يقول السياسيون أشياءً خاطئةً في البداية، ولكن لنقدم لهم بعض الثناء عندما يصححون لأنفسهم.

كذلك علينا أن نملأ الفراغ المعرفي الموجود. إنها عملية مستمرة بالطبع، يمارسها كل يوم ملايين وملايين العاملين في مختلف المجالات حول العالم، وهم تواقون لزيادة مجموع المعرفة ولو بجزء صغير. ولكن يمكننا أن نفعل المزيد، فكثيرة هي المعلومات الموجودة حالياً والمخبأة في قواعد البيانات أو في تقارير غير منشورة أو خلف جدران النقود. علينا أن نوسع جهودنا لنتيح هذه المعلومات على نطاق أوسع، لأنّه من دونها ستعود المعلومات الخاطئة إلى الظهور لتملأ الفراغ. لا يكفي أن نقطع الأعشاب الضارة من حديقة المعلومات، بل يجب أن نزرع الأزهار أيضاً.

علينا أن نؤمن بأن ذلك سينجح، وأنّه شيء مهم. إن الاستسلام والقول إنه ما من أحد يهتم بشأن الحقيقة بسبب خسارة المرشح الذي تفضله في الانتخابات هو تصرف غير ناضج بعض الشيء. والاعتقاد بأنّ الإنترنت ما هو إلا محرك فاشل ضخم وبأنّه لا يوجد شيء يمكن لأي شخص فعله لترويضه هو بالسوء نفسه تقريباً كما أظهر هذا الكتاب، هذه ليست المرة الأولى في التاريخ التي نشعر فيها بهذه المخاوف، فالشائعات الخارجة عن السيطرة، والخوف من تقنيات التواصل الجديدة، والرعب من الأخبار المزيفة، والخوف من تخمة المعلومات موجود منذ عقود. تخطيناها سابقاً ونستطيع تخطيها الآن طالما أننا لا نرفع أيادينا ونصرخ «لا شيء يهم». أكبر مخاوف فكرة الأخبار الزائفة ليس في حقيقة أن يصدق الناس الأخبار المزيفة، وإنما في حقيقة أن يتوقف الناس عن تصديق الأخبار الحقيقية.

كيف يمكننا فصل الحقائق الصغيرة المملة عن مجموعة الترهات المثيرة اللامعة؟ واجه هذ السؤال الذي نفكر فيه اليوم مواطني إحدى المدن في عام 1780، عندما جاء صديقنا المخادع الطبيب آنتون ميسمير إلى المدينة كما ذكرنا سابقاً، لم يُسعد الملك لويس السادس عشر بأن تسمح ماري أنطوانيت لميسمير بممارسة التنويم المغناطيسي عليها، لذلك جمع نوع من التجريبيين ليختبروا نظريات ميسمير. تضمنت المجموعة أفضل العقول في باريس في ذلك الوقت مثل: أب الكيمياء الحديثة أنتوني لافواسييه، والطبيب الشهير جوزيف إيغناس غويلوتن (الذي سيطرح في العام التالي اختراعاً سيعتاد عليه لويس السادس عشر في النهاية).

قام أعضاء المجموعة بفعل شيء لم يفعله أحد من قبل في التاريخ العلمي على حدّ علمنا خلال سعيهم وراء الحقيقة. أجروا أول تجارب طبية للعلاج الوهمي للعمى. في الحديقة الخلفية لبيت رئيس اللجنة اخترعت اللجنة جزءاً ضخماً بعض الشيء من الطريقة العلمية من خلال استكشاف مفهوم تجربة العمى بطريقة حرفية إذ قادوا أهدافاً معصوبة العيون في الأرجاء وجعلوهم وهم منومون مغناطيسياً يحتضون الأشجار (قبل أن يُغمى عليهم في النهاية). في الخاتمة أثبتوا أن نظريات ميسمير مجرد خدعة من خلال هذه التجربة والتجارب المسيطر عليها الأخرى.

قد تعتقد أنه عندما أرادوا كتابة اكتشافاتهم أغراهم التفاخر بانتصار الحقيقة على الترهات، ولكن بدلاً من ذلك، أصابتهم حالة مختلفة تماماً، كانوا مبتهجين تقريباً بخطأ ميسمير، فقد وجدوه أكثر إبهاراً من الحقيقة البسيطة.

كتب رئيس اللجنة في تقريره: «بعد أن أخذنا كل المعطيات بعين الاعتبار، قد يكون تاريخ أخطاء الجنس البشر أكثر قيمةً وإثارةً من اكتشافاتهم». وتابع مكرراً ملاحظات مونتين التي أشار إليها قبل قرون عدة: «الحقيقة موحدة وضيقة، توجد باستمرار، ولا يبدو أنها تتطلب بذل كثير من الطاقة لمواجهتها من قبل قدرات الأشخاص الخامدين. ولكنّ الأخطاء متغيرة بشكل لانهائي، ليست لها حقيقة، إنها الابتكار الصافي والبسيط للعقول التي اخترعتها. في هذا المجال، تتمتع الروح بالمساحة الكافية لتوسع نفسها ولتعرض كل قدراتها اللا محدودة وكل بذخها وسخافاتها الجميلة والمثيرة للاهتمام».

كشف هذا الكتاب عن جزء ضئيل فقط من تاريخ الأخطاء البشرية. يمكنكم أن تكتبوا مئات النسخ الأخرى منه من دون أن يحصل أي تشابك بينه وبينها.

آمل أننا استطعنا السير على خطا مبتكر الكشف عن الخداع، وأصبحنا متأهبين كما كان لحالة بشرية من التخبط بين تدافع الحقائق والخيال، يبدو أن الرائد في البحث عن الحقيقة سيكون دائماً مأسوراً حد الاختناق باحتماليات الأكاذيب المتوسعة التي لا تنفد. فهذا ما نحتاج إلى أن نفعله إذا أردنا أن نصبح أكثر صدقاً، نحتاج إلى أن ندرس بعمق أكثر المجالات الواسعة غير المحدودة للخطأ، من أجل أن نعرف أكثر عن الأشياء التي نقوم بها بطريقة خاطئة، قبل أن نحاول القيام بها بطريقة صحيحة. ببساطة، نحتاج إلى أن نصبح باحثين في الترهات.

Notes

[1←]
President Trump has made 9,014 false or misleading claims over 773 days', The' Washington Post, March 4 2019, https://www.washingtonpost.com/politics/2019/03/04/president-trump-has-made-false-or-misleading-claims-over-days/

[2←]
A year of unprecedented deception: Trump averaged 15 false claims a day in 2018', The' Washington Post, December 30 2018,

https://www.washingtonpost.com/politics/2018/12/30/year-unprecedented-deception-trump-averaged-false-claims-day/

[3←]
Dekker, Thomas, The Seven Deadly Sins of London, 1606, p. 21.

[4←]
Machiavelli, Niccolò, «Letter #179, To Franceso Guicciardini, 17 May 1521», quoted in Denery II, Dallas G., The Devil Wins: A History of Lying from the Garden of Eden to the Enlightenment, 2015, p. 258.

[5←]
Stefansson, Vilhjalmur, Adventures in Error, 1936, p. 7.

[6←]
Byrne, Richard W., and Nadia Corp, «Neocortex Size Predicts Deception Rate in Primates», Proceedings: Biological Sciences, vol. 271, no. 1549, 2004.

[7←]
Talwar, Victoria, «Development of Lying and Cognitive Abilities» in The Oxford Handbook of Lying, 2018, p. 401.

[8←]
Franklin, Benjamin. Poor Richard's Almanac and Other Writings (p. 55). Dover Publications.

[9←]

Unlike quite a lot of quotes attributed to Twain, he did at least say something very similar: «I can understand perfectly how the report of my illness got about, I have even heard on good authority that I was dead. James Ross Clemens, a cousin of mine, was seriously ill two or three weeks ago in London, but is well now. The report of my illness grew out of his illness. The report of my death was an exaggeration. The report of my poverty is harder to deal with». White, Frank Marshall. 'Mark Twain Amused', New York Journal, June 2 1897, reproduced in Mark Twain: The Complete Interviews, Ed. Gary .Scharnhorst, University of Alabama Press, 2006

[10←]

Alan Abel, Satirist Created Campaign To Clothe Animals', New York Times, January 2' .1980, p. 39

[11←]

.Obituary Disclosed as Hoax', New York Times, January 4 1980, p. 15'

[12←]

Alan Abel, Hoaxer Extraordinaire, Is (on Good Authority) Dead at 94', New York Times,' ,September 17 2018

https://www.nytimes.com/2018/09/17/obituaries/alan-abel-dies.html

[13←]

See, e.g. Smith, Suzette. 'The Day We Thought Jeff Goldblum Died', The Portland ,Mercury, June 22 2016

https://www.portlandmercury.com/The-Jeff-Goldblum-Issue/2016/06/22/18265356/the-day-we-thought-jeff-goldblum-died

[14←]

Regal, Brian. The Secret History of the Jersey Devil, Johns Hopkins University Press, .2018

[15←]

Benjamin Franklin', Wikipedia, https://en.wikipedia.org/wiki/Benjamin_Franklin, as of' .February 24, 2019

[16←]

Stowell, Marion Barber. «American Almanacs and Feuds». Early American Literature 9, .no. 3 (1975): 276-85

http://www.jstor.org/stable/25070683

[17←]

.«Quoted in Stowell, «American Almanacs and Feuds

[18←]
Franklin, Benjamin. Poor Richard's Almanac and Other Writings (pp. 28-29). Dover .Publications

[19←]
.Swift, Jonathan. Bickerstaff-Partridge Papers (p. 6). Kindle Edition

[20←]
.«Stowell, «American Almanacs and Feuds

[21←]
Leeds, Titan, quoted in Franklin, Benjamin. Poor Richard's Almanac and Other Writings .(pp. 30-31). Dover Publications. Kindle Edition

[22←]
يمكن تكوين صورة أوضح عن الموضوع من خلال مشاهدة فيلم «كنز وطني» الذي لعب فيه نيكولاس كيج دور البطولة.

[23←]
GREAT ASTRONOMICAL DISCOVERIES LATELY MADE BY SIR JOHN' HERSCHEL, L.L.D. F.R.S. & c. At the Cape of Good Hope [From Supplement to the Edinburgh Journal of Science]', New York Sun, August 25 1835; text from The Museum ,of Hoaxes

http://hoaxes.org/text/display/the_great_moon_hoax_of_1835_text

[24←]
Griggs, William N., The Celebrated «Moon Story,» Its Origin and Incidents; With a .Memoir of the Author, and an Appendix, 1852, p. 23-25

[25←]
.Poe, Edgar Allen, The Works of Edgar Allan Poe, Volume 3, 19xx, p. 120

[26←]
,The Great Moon Hoax», The Museum of Hoaxes»

http://hoaxes.org/archive/permalink/the_great_moon_hoax

[27←]

Things That Will Definitely Happen In The General Election Campaign», Phillips, 25» ,Tom, BuzzFeed, January 27 2015

https://www.buzzfeed.com/tomphillips/topless-barry-for-prime-minister

[28←]

Those Slippery Snake Stories», Tucher, Andie, Humanities, May/June 2015, Volume 36,» ,Number 3

https://www.neh.gov/humanities/2015/mayjune/feature/those-slippery-snake-stories

[29←]

The True, The False, and The 'Not Exactly Lying'», Tucher, Andie, in Literature and» Journalism: Inspirations, Intersections and Inventions from Ben Franklin to Stephen .Colbert, ed. Canada, Mark, 2013, Chapter 4, p. 91-118

[30←]

Advice to Newspaper Correspondents III: Some Hints on Style», Hills, William H,» .Writer, June 1887, quoted in Tucher, 2013, p. 93

[31←]

Advice to Newspaper Correspondents IV: Faking», Hills, William H, Writer, November» .1887, quoted in Tucher, 2013, p. 93

[32←]

Shuman, Edwin L., Steps into Journalism: Helps and Hints for Young Writers, 1894, .quoted in Tucher, 2013, p. 95

[33←]

.MacDougall, Curtis D., Hoaxes, 1958, p. 4

[34←]

.MacDougall, 1958, p. 4

[35←]

.Rubenhold, Hallie, The Five, 2019

[36←]

Quoted in «The Great Georgia Railway Disaster Hoax on the London Times», Coulter, E. .Merton, The Georgia Historical Quarterly, Vol. 56, No. 1, 1972

[37←]

Croydon Cat Killer has widened brutal spree around the M25, say police», Daily Mirror,» ,July 13 2016

https://www.mirror.co.uk/news/uk-news/croydon-cat-killer-widened-brutal-8414154

[38←]

Mattoon Gets Jitters from Gas Attacks», Chicago Herald-American, September 10 1944,» quoted in Bartholomew, Robert and Evans, Hilary, Panic Attacks: Media Manipulation .and Mass Delusion, 2004

[39←]

.On The Contrary», New Yorker, December 9 2002»

[40←]

.Melancholy Reflections», Mencken, H.L., Chicago Tribune, May 23 1926, p. 74»

[41←]

.Melancholy Reflections», Mencken, H.L., Chicago Tribune, May 23 1926, p. 74»

[42←]

.A Neglected Anniversary», Mencken, H.L., New York Evening Mail, December 28 1917»

[43←]

.Stefansson, Vilhjalmur, Adventures in Error, 1936, p. 288-290

[44←]

Mr. President IV: Ghosts in the White House», Hersey, John, New Yorker, April 28 1951,» .p. 44-45

[45←]

Address in Philadelphia at the American Hospital Association Convention», September» 16 1952, Harry S. Truman Presidential Library & Museum

https://www.trumanlibrary.org/publicpapers/index.php?pid=2319

[46←]

Builders' Winning Play: A Royal Flush», Fleischman, Sandra, Washington Post,» November 24 2001; and «President's Day 101», Sachs, Andrea, Washington Post, .February 15 2004

[47←]

.Hymn to the Truth», Mencken, H.L., Chicago Tribune, July 25 1926, p. 61»

[48←]
Burton, R. F. «The Kong Mountains». Proceedings of the Royal Geographical Society and Monthly Record of Geography, vol. 4, no. 8, 1882, pp. 484-486. www.jstor.org/stable/1800716

[49←]
There are only two maps known to have the Latin phrase «Hic Sunt Dracones» on them, both from the early 1500s. The phrase is never known to have appeared in English. See: 'Oldest globe to depict the New World may have been discovered', The Washington Post, August 19 2013

https://www.washingtonpost.com/national/health-science/oldest-globe-to-depict-the-new-world-may-have-been-discovered/2013/08/19/503b2b4a-06b4-11e3-a07f-49ddc7417125_story.html

[50←]
A Map, shewing the Progress of Discovery & Improvement, in the Geography of North' ,Africa', James Rennell, 1798

/https://www.loc.gov/item/2009583841

[51←]
Bassett, Thomas J., and Philip W. Porter. «'From the Best Authorities': The Mountains of Kong in the Cartography of West Africa». The Journal of African History, vol. 32, no. 3, 1991, pp. 367-413. www.jstor.org/stable/182661

[52←]
.Park, Mungo. Life and Travels of Mungo Park in Central Africa (p. 181). Kindle Edition

[53←]
James Rennell, Proceedings of the Association for Promoting the Discovery of the Interior .Parts of Africa, 1798, p. 63

[54←]
Brooke-Hitching, Edward, The Phantom Atlas, 2018, Simon & Schuster UK. Kindle .Edition

[55←]
Burton, R. F. «The Kong Mountains». Proceedings of the Royal Geographical Society and Monthly Record of Geography, vol. 4, no. 8, 1882, pp. 484-486. www.jstor.org/stable/1800716

[56←]

Clapperton, Hugh, 1788-1827, Richard Lander, and Abraham V. Salamé. Journal of a .Second Expedition Into the Interior of Africa, From the Bight of Benin to Soccatoo

[57←]

Bassett, Thomas J., and Philip W. Porter. «'From the Best Authorities': The Mountains of Kong in the Cartography of West Africa». The Journal of African History, vol. 32, no. 3, 1991, pp. 367-413. www.jstor.org/stable/182661

[58←]

Le capitaine L.-G. Binger, 'Du Niger au Golfe de Guinee par Kong', Bulletin de la Société .de Géographie (Paris), 1889, quoted in Bassett and Porter

[59←]

.Brooke-Hitching, Edward. The Phantom Atlas, p. 166

[60←]

Campbell, Matthew, «Oil boom fuels mystery of the missing island in the Mexican Gulf», ,The Times, September 6 2009

https://www.thetimes.co.uk/article/oil-boom-fuels-mystery-of-the-missing-island-in-the-mexican-gulf-xg7tcsdbcwz

[61←]

.How, Modestly, Cook Hoaxed The World', New York Times, December 22 1909, p. 4'

[62←]

الانحياز التأكيدي: هو الميل للبحث عن المعلومات، وتذكُّرها، وتفسيرها بطريقة تتوافق مع معتقدات الفرد وافتراضاته دون أن يولي انتباهاً مماثلاً للمعلومات المناقضة لها.

[63←]

,The king of con-men», The Economist, December 22 2012»

https://www.economist.com/christmas-specials/2012/12/22/the-king-of-con-men

[64←]

On the first day March, 1822, the price will be advanced One Shilling and Sixpence per» Acre, and in the same proportion every three months hereafter». - «North America», .Perthshire Courier, December 20 1821, p. 1

[65←]

.The Times, July 12 1822, p. 1

[66←]
Strangeways, Thomas', A Sketch of the Mosquito Shore, Including the Territory of' .Poyais, 1822

[67←]
Conzemius, Eduard. «Ethnographical survey of the Miskito and Sumu Indians of Honduras and Nicaragua». Bureau of American Ethnology Bulletin, 1932, p.1, quoted in Von Hagen, V. Wolfgang. «The Mosquito Coast of Honduras and Its Inhabitants». .Geographical Review, vol. 30, no. 2, 1940, p. 252

[68←]
Compare the map in A Sketch of the Mosquito Coast with both modern maps and the map in Von Hagen, V. Wolfgang. «The Mosquito Coast of Honduras and Its Inhabitants». .Geographical Review, vol. 30, no. 2, 1940, p. 240

[69←]
Laguna de Ibans», Lonely Planet, https://www.lonelyplanet.com/honduras/laguna-de-» .«ibans Raista Eco Lodge is apparently «community based tourism at it's best

[70←]
Manchester Guardian, October 25 1823, republished as «Settlers duped into believing in ,'land flowing with milk and honey'» in The Guardian, October 25 2013

https://www.theguardian.com/theguardian/2013/oct/25/gregor-macgregor-poyais-settlers-scam

[71←]
(إن كنت مهتماً بقراءة المزيد عن قضية داريان فهنالك قسم مفصل عن الموضوع في كتاب المؤلف السابق وهو البشر: تاريخ موجز عن كيف خرّبنا كلّ شيء).

[72←]
Rafter, Michael, Memoirs of Gregor M'Gregor: Comprising a Sketch of the Revolution in .New Grenada and Venezuela, etc., 1820, p. 19

[73←]
Brown, Matthew, «Inca, Sailor, Soldier, King: Gregor MacGregor and the Early Nineteenth-Century Caribbean», Bulletin of Latin American Research, Vol. 24, No. 1, .2005, p. 55

[74←]
Rafter, Michael, Memoirs of Gregor M'Gregor: Comprising a Sketch of the Revolution in .New Grenada and Venezuela, etc., 1820, p. 20

[75←]
Rafter, Michael, Memoirs of Gregor M'Gregor: Comprising a Sketch of the Revolution in .New Grenada and Venezuela, etc., 1820, p. 19

[76←]
Weatherhead, W.D, An Account of the Late Expedition Against the Isthmus of Darien .Under the Command of Sir Gregor M'Gregor, 1821, p. 26

[77←]
Jamaica Gazette, July 17 1819, quoted in Brown, Matthew, «Inca, Sailor, Soldier, King: Gregor MacGregor and the Early Nineteenth-Century Caribbean», Bulletin of Latin .American Research, Vol. 24, No. 1, 2005, p. 59

[78←]
Rafter, Michael, Memoirs of Gregor M'Gregor: Comprising a Sketch of the Revolution in .New Grenada and Venezuela, etc., 1820, p. 338

[79←]
.See Brown, 2005 for more of this

[80←]
The London Literary Gazette and Journal of Belles Lettres, Arts, Sciences, Etc, 1823, No. .315, (1 February 1823), p. 70

[81←]
Possibly worth quoting this at length: «The savage criticism on his Endymion, which appeared in the Quarterly Review, produced the most violent effect on his susceptible mind; the agitation thus originated ended in the rupture of a blood-vessel in the lungs; a rapid consumption ensued, and the succeeding acknowledgments from more candid critics, of the true greatness of his powers, were ineffectual to heal the wound thus wantonly inflicted». Shelley, Percy B., Preface to Adonais. An Elegy on the Death of .John Keats, Author of Endymion, Hyperion, etc., 1821

[82←]
Art. VIII', The Quarterly Review: Vol. XXVIII, October 1822 & January 1823, 1823, p.' .157-161

[83←]
.Frankel, Tamar, The Ponzi Scheme Puzzle, 2012, p. 111

[84←]
.Frankel, Tamar, The Ponzi Scheme Puzzle, 2012, p. 89

[85←]
.Frankel, Tamar, The Ponzi Scheme Puzzle, 2012, p. 85

[86←]
Konnikova, Maria, The Confidence Game: The Psychology of the Con and Why We Fall .for It Every Time, 2016, p. 8

[87←]
.Kerenyi, Dr. Norbert, Stories of a Survivor, 2011, p. 280

[88←]
.McCarthy, Joe, «The Master Impostor: An Incredible Tale», Life, Jan 28 1952, p. 81

[89←]
Master Impostor' Now May Try to Be Just Himself», Minneapolis Sunday Tribune, Jan'» .8 1956, p. 10A

[90←]
Associated Press, «Ferdinand Waldo Demara, 60, An Impostor In Varied Fields», New .York Times, June 9 1982, p. B16

[91←]
.Crichton, Robert, The Great Impostor, 1959, p. 103

[92←]
Alexopoulos, Golfo, «Portrait of a Con Artist as a Soviet Man», Slavic Review, Vol. 57, .No. 4 (Winter, 1998), p. 775

[93←]
Zaleski, Eugene, Stalinist Planning for Economic Growth, 1933-1952, 1980, quoted in .Alexopoulos, p. 777

[94←]
.Spurling, Hilary, La Grande Thérèse, The Greatest Swindle of the Century, 2000, p. 24

[95←]
.Spurling, Hilary, La Grande Thérèse, The Greatest Swindle of the Century, 2000, p. 44

[96←]
.Martin, Benjamin F., The Hypocrisy of Justice in the Belle Epoque, 1984, p. 80

[97←]
Quoted in Spurling, Hilary, La Grande Thérèse, The Greatest Swindle of the Century, 2000, p. 48.

[98←]
Kopel, David, «The missing 18 1/2 minutes: Presidential destruction of incriminating evidence», Washington Post, June 16 2014

https://www.washingtonpost.com/news/volokh-conspiracy/wp/2014/06/16/the-missing-18-12-minutes-presidential-destruction-of-incriminating-evidence/

[99←]
كتب فرانكلين لآدم: «أرسل إليك صحيفةً مغلقة، تحتوي على حقيقة لديّ بعض الشك فيها، شكّ في شكلها وليس في محتواها، لأنني أعتقد أن عدد الناس الذين سُلخت فروات رؤوسهم من قبل الهنود في هذه الحرب الوحشية يفوق ما ذُكر في الملفات...». (من بينجامين فرانكلين إلى جون آدامز، 22، نيسان، 1782، فاوندرس أونلاين، الأرشيف الوطني، آخر تعديل في 13، أيار، 2018)

http://founders.archives.org/documents/franklin/01-37-02-0133. (original source: the papers of Benjamin Franklin,vol,37,march 16 through august 15, 1782, ed, Ellen R Cohn (New Haven and London: Yale University Press, 2003, pp, 196–197.

[100←]
Manes, Stephen, Gates: How Microsoft's Mogul Reinvented an Industry and Made Himself the Richest Man in America, 1993.

[101←]
Merchant, Brian, The One Device, 2017, p. 367 (It's rather noticeable, when you watch the video back of the launch, that when Jobs makes staged phonecalls to Jony Ive and Phil Schiller, neither of them is actually using an iPhone - they both have old school flip phones. See

(https://www.youtube.com/watch?v=x7qPAY9JqE4

[102←]
Gatwick drone attack possible inside job, say police», BBC News, April 14 2019,» https://www.bbc.co.uk/news/uk-47919680

[103←]
Gatwick drones pair 'no longer suspects'», BBC News, December 23 2018, http://» web.archive.org/web/20181223172230/https://www.bbc.co.uk/news/uk-england-46665615 (the BBC subsequently edited the article to remove the police quote).

[104←]

Gatwick drone attack possible inside job, say police», BBC News, April 14 2019,» https://www.bbc.co.uk/news/uk-47919680

[105←]

,«See the interactive map at Holman, Brett, «Mapping the 1913 phantom airship scare

/https://airminded.org/2013/05/03/mapping-the-1913-phantom-airship-scare

[106←]

.Hirst, Francis Wrigley, The Six Panics and Other Essays, 1913, p. 104

[107←]

Breves, Dylan, «Coati», Wikipedia, revision as of 02:36 UTC, July 12 2008, https://en.wikipedia.org/w/index.php?title=Coati&diff=next&oldid=224679361. (Previous absence of the term as per results of date-limited searches on Google, Google Scholar, .(and Google Books

[108←]

Randall, Eric, «How a Racoon Became an Aardvark», New Yorker, May 19 2014, https://www.newyorker.com/tech/annals-of-technology/how-a-raccoon-became-an-aardvark; Sightings in the press include: Williams, Amanada, «Hunt for the runaway aardvark: Lady McAlpine calls on public to help find her lost ring-tailed coati», Daily Mail, April 8 2013, https://www.dailymail.co.uk/news/article-2305602/Hunt-runaway-aardvark-Lady-McAlpine-calls-public-help-lost-ring-tailed-coati.html; Leach, Ben, «Scorpions, Brazilian aardvarks and wallabies all found living wild in UK, study finds», Daily Telegraph, June 21 2010, https://www.telegraph.co.uk/news/earth/wildlife/7841796/Scorpions-Brazilian-aardvarks-and-wallabies-all-found-living-wild-in-UK-study-finds.html; Brown, Jonathan, «From wallabies to chipmunks, the exotic creatures thriving in the UK», The Independent, June 21 2010, https://www.independent.co.uk/environment/nature/from-wallabies-to-chipmunks-the-exotic-creatures-thriving-in-the-.(«uk-2006096.html (although this reference is only to «aardvarks

[109←]

Scorpions and parakeets ‘found living wild in UK’», BBC News, June 21 2010, https://» www.bbc.co.uk/news/10365422. You’ll notice that several of these are versions of the same story, about non-native species living wild in the UK. This was based on a «report» by a University of Hull academic, commissioned for PR purposes by Eden, a television channel - it seems likely that the mistake was included in the original press release and .copied from there, although I haven’t been able to track the original press release down

[110←]

Nadal, James, «Brazilian aardvark on the loose in Marlow», Bucks Free Press, February 20 2013, https://www.bucksfreepress.co.uk/news/10240842.brazilian-aardvark-on-the-loose-in-marlow/; Drury, Flora, «So that’s what an aardvark looks like», Worcester

News, June 9 2011, https://www.worcesternews.co.uk/news/9072841.so-thats-what-an-/aardvark-looks-like

[111←]

Photo of the Day: Wild Fire», Time, September 20 2013, https://time.com/3802583/» wild-fire/; «An Unexpected Visitor in the Volcano», National Geographic, March 7 2013, https://blog.nationalgeographic. org/2013/03/07/an-unexpected-visitor-in-the-volcano/; «Brazil Plans to Clone Its Endangered Species», Scientific American, November 14 2010, https://blogs.scientificamerican.com/extinction-countdown/brazil-/plans-to-clone-its-endangered-species

[112←]

Cançado, Paulo Henrique Duarte, Faccini, João Luiz Horácio, Mourão, Guilherme de Miranda, Piranda, Eliane Mattos, Onofrio, Valéria Castilho, & Barros-Battesti, Darci Moraes, «Current status of ticks and tick-host relationship in domestic and wild animals from Pantanal wetlands in the state of Mato Grosso do Sul, Brazil», Iheringia. Série Zoologia, 107(Suppl.), May 02 2017, https://dx.doi.org/10.1590/1678-4766e2017110

[113←]

Henderson, Caspar, The Book of Barely Imagined Beings: A 21st-Century Bestiary, 2012, .p. 10

[114←]

Safier, Neil, «Beyond Brazilian Nature: The Editorial Itineraries of Marcgraf and Piso's Historia Naturalis Brasiliae», in van Groesen, Michiel, The Legacy of Dutch Brazil, 2014, p. 179, https://doi.org/10.1017/CBO9781107447776.011

[115←]

David Attenborough and BBC take us to Hotel Armadillo - in pictures», The Guardian,» April 5 2017, https://www.theguardian.com/environment/gallery/2017/apr/05/david-attenborough-and-bbc-take-us-to-hotel-armadillo-in-pictures

[116←]

Allen, Nick, «Wikipedia, the 25-year-old student and the prank that fooled Leveson», The Daily Telegraph, December 5 2012, https://www.telegraph.co.uk/news/uknews/leveson-inquiry/9723296/Wikipedia-the-25-year-old-student-and-the-prank-that-fooled-Leveson.html

[117←]

,Wikipedia: List of citogenesis incidents», Wikipedia, retrieved June 30 2019»

https://en.wikipedia.org/wiki/Wikipedia:List_of_citogenesis_incidents

[118←]

Phillips, Tom, Truth: A Brief History of Total Bullshit, 2019, p. XXXXXXX (FILL THIS IN WHEN THE LAYOUT IS DONE it's a good and funny joke to cite the book in the book itself).